



رواية

فتاة الكاظمية

عباس مدحت
البياتي

رواية

فتاة الكاظمية

المؤلف



عباس مدهت البياتي

إهداء

إلى القارئ والناقد والمتابع والذي يامر شاداتهم أُعبدِ طريقي

وإلى من لهم في القلب صرح ومعبد

وخاصة الأصدقاء منهم

وإلى أبنائي أنس

الفصل الأول

1- بين 1990 - 2000

فترة المراهقة كانت أشبه برحلة صيد في البحر بقارب خشبي، تعرضت لعواصف هوجاء، اجتاحتني أمواجه المتلاطمة، حملتني الشجون بين رغباتي الجامحة وظرف الحياة القاسي. خلال تلك الرحلة كنت أبحث عن الفتنة في وجوه الفتيات ذوات سمرة البشرة، كأنهن حوريات أسطورية خرجن من أعماق البحر، جسدن مزيجاً من الجاذبية والغموض، بعثرن أفكارني، أوقدنّ في داخلي نيراناً لا تخدم.

لكن تلك المرحلة لم تكن مجرد البحث عن الجمال فقط، بل كانت صراعاً بين الرغبة والحرمان، بين الحلم والواقع المرير. كان الحصار المفروض على العراق قد زحف كظل ثقيل على تخومه، نهش الأيام والزمان، جرد الوجوه من بريقها، سرق الراحة من الجسد، أثقل القلوب بهوم لا تنتهي. كنت أعيش وسط تلك الفوضى المجللة، كأنني عالق في دوامة لا قرار لها، أبحث عن بصيص نور وسط العتمة، عن لحظة هدوء وسط العاصفة بين تلك الماجنات السمراوات.

ومع كل ذلك، كانت المشاعر تتأجج في داخلي، كأنها نيران لا تهدأ، تشتعل كلما لمحت تلك الفتنة التي أسرتني، كلما تلاقت نظراتي مع تلك العيون الغامضة التي تحمل أسراراً لا تُكشف إلا لمن يجروء على الغوص في أعماقها. تلك الفترة جعلتني في حيرة من أمري، فلم أحتمل جلد الأيام الشقية إلا بشق الأنفس. كانت مرحلة مشحونة بالشقاء، عبارة عن فوضى مُجلّة، ازهقت المشاعر، استنزفت الذهن، أثقلت

القلب، جعلتني أعيش عصف ثورة لم أستطيع كبح جماحها،
عنت في إيقاد فتائل الذكورة في داخلي، أصبحت أسيرًا
لمشاعري المتأججة، لا أحتمل سرّي ولا أطيق جنوني..
كأنني نجمٌ هارب من مداره، يبحث عن مستقرٍ له في فضاء
لا يستقر.

كنت قد وُلدتُ عام 1980، في سنةٍ حملت معها نذير الحرب،
حيث اشتعلت المواجهة مع إيران واستمرت لثمانى سنوات
عجاف، كأنها ليلٌ طويل لا يعرف الصباح. اقترنت طفولتي
بنغمة القصف والقتل وقوافل الشهداء، كأنني كنت أعيش في
ظل شجرةٍ يابسة تتساقط أوراقها مع كل صرخة ألم تطلقها أم
تكله.... ثم وعيت على صخب حرب الكويت، حيث كانت
الأرض تهتز تحت أقدامنا، والسماء تمطر نذر الدمار، قبل أن
يحل الحصار كغيمة سوداء تخنق الأنفاس، شملت بغشاوتها
الجميع، كشطت الجيوب وأثقلت القلوب. تلك السنوات كانت
كريحٍ عاتية، عصفت بأرجاء الوطن، قلعت الأحلام من
الجنور، تركت خلفها أرضًا قاحلة لا تنبت إلا الحزن.

ثم التحقت بفترة الاحتلال والطائفية لتكتمل فصول العذاب
والقسوة على أصولها. كأنها سلسلة حلقات مغلقة قد عُدَّ لها
مسبقا، حيث كلما تجاوزت واحدة، انتكست بالأخرى لتجدها
أكثر شدة ووعورةً من الأولى. حقبة طويلة، أكلت من العمر
الكثير، سلبتني شبابي والمصير. بحرٌ هائج ابتلع الزمن، ولم
يترك لي سوى ظلال الذكريات.

مع ميولي نحو الفاتنات السمرارات؛ اشتعل الشوق في روحي وتفجرت الصبابة في صدري، كنتُ أبحث عن السحر في البشرة، حتى لم تعد تراودني راحة دون أن أجد نفسي منجذباً لعلاقة عابرة أو صداقة دائمة أو أنية مع أي فاتنة ذات سُمرَة آسرة. صرتُ أفكر في شؤونهن، حتى أنني لم أنتبه لغيرهن من الفتيات. المراهقة جردتني من سلوكياتي، جعلتني اتبعهن لأجد فيهن ما يُشبع ولعي بذلك اللون الذي يُذكي إعجابي بحسن المفاتن. أصبحت أفكر فيهن وأتأمل حضورهن حتى لم يعد ذهني ينتبه إلى غيرهن.

تحولت المسألة من إعجاب صريح إلى جدلية تسيطر على فكري، فما أن أتهياً لمواجهة أي تحدٍّ؛ حتى أجد الفؤاد يضعف بين يدي، فأميل ميل الغصن نحو شمس سمرتهن، كمن فقد توازنه وصار يعاقب وتينه بسوط العشق، يلهث وراء سرابٍ لا ينطفئ، يبحث عن ظلٍّ لا يزول.

خلال تلك الفترة لم اكن سويا في مقياس ذاتي، وكأنني افتقدت طاقتي، تراخت الأعضاء كثيرا، تبدلت الطباع. في تلك الليالي المتوشحة بالضياء، هجست بذاتي كطائر كسير الجناح، يراوده حلم الطيران لكنه يخشى الريح العاتية. مع الحصار الغاشم؛ انطفأت شموع الأمل في دروبي، ضاعت مفاتيح السعادة بين زوايا اليأس، تهدلت أشرعتي، جهمت ملامح وجهي، غدوتُ غصناً أجرداً لا يقاوم نار الصبر، كأني شجرة في صحراء وجدي لا أحتمل العطش.

وأنا أرواح في جوف التيه، كنتُ اتأمل السكينة الغائرة بين
أمواج القدر، أضحت الرغبة في داخلي مشاطة، كبحرٍ هائج
يثور ثم يخبو لكنه لا يهدأ أبداً. كنتُ أجد في السمرة غاييتي،
كنتُ أبحث فيها عن فتنة العينين حين تحتضني النظرة، وعن
رقة الشفاه حين ترسم فوق جبين قُبلة. ابحث عن فتاة تتجلى
في سدم المساء كنجم بعيد، عن الغيداء، العفراء، النجلاء، عن
الوضاءة كحنين المطر، عن دائرة بكأسي، عالقة بعيني،
كخيوط الفجر حين تلامس الأفق. أردتها أن تكون دفء
الليالي الموحشة، شغف القلب حين يثور، رقة الورد حين
يغازل النسيم.

لطالما كنتُ أحلم أن أغرق في بحر سمراء فاتنة. أحلم في
شوقٍ متقد كالشمس أن يحمل قارب قدري سمراء تحمل في
روحها خفة الظل وعنفوان النزق. كنتُ أفتش عنها بين ألوان
الطيف، عن شفافية حضورها، عن فتنة عينيها الحاملة التي
تختزن الأسرار، عن عذوبة مختبئة بين ندى الصباح ورذاذ
الودق. كنتُ أبحث عن أميرةٍ يعبق شذاها برائحة الورد
والحبق، يرق لها القلب وتذعن لها الروح، تلك المغرورة،
الجريئة كوميض البرق، الحاملة، الواثقة، المغشية بلون
الغسق..

أبحث عن رشيفة الخطى، عن سمقة القامة، ناهدة الطلعة،
جذلة كابتسامة القدر، تلك التي تحمل من الرمل دفئه، ومن
الليل سره، ومن الشبق سراويله، البارعة، القوية، المتفردة
بسطوتها الأسرة، تلك التي ترفق ذاتها بلب الذاكرة كالحلق.

كنتُ أبحثُ عنها بين همسات الود، وبين سحر القد ورقى
الخلق، كفراشة مبهوتة بألوانها، كلوحة لا تكتحل إلا بروية
من واقع شوقي.

لا أدري لِمَ كنت أبهر بذوات البشرة السمراء دون غيرهن؟ لِمَ
يعتريني ذلك الوجد حين ألمح ضياء نجمها تشهق بذات
الصمت والنزق، لِمَ أنبهر بهنَّ حين يتقد سحرها في الخيال
كضياء شعلة الفئار؟ لِمَ تجعلني أنغمس في وحدتي الشائكة
بشيء من الجنون والقلق؟....

كنت أهجس في سمرة البشرة يكمن لغز الفتنة، كما في شفرة
السيف يشتد الحسم. بلقائها يشتط نبض القلب، برونقها تجعل
صورة الحياة شفافاً في عيني. حيث أنبهر بالشفة المراغة
بدكنة الغسق، التاع بجمرة البشرة وسواد الشعر. دائماً ما
أتأمل الرشيقه منهن، الهيفاء، الغيداء، تلك التي يرأف أنفها
بشموخ لاذع، ذوات النكتة والأرداف المرغة والأكمة أريانة.

كنت أرغب أن أرتبط بشراكة دائمة مع أي فتاة تحمل نتفة من
تلك المواصفات الحاذقة، لأجعلها ملكة على عرش مملكتي،
لنكن سليله قلبي وحبيبتي ونديم كأسى إلى الأبد.

تلك هي القصيدة التي أحب سماع قافيتها على مدى فترة
المراهقة ومقتبل العمر. دائماً ما كنت أشعر بتنوع معانيها
وبجميل صورها وصفاتها وهي تتجدد في نظري وتثير
حفيظتي. فمن لهفتي صرت أتبع رجاء كل سمراء تصادفني
في الاسواق والشوارع العامة والمنتديات والنوادي الليلية.

رغم العناء الذي كنت اشعر به جراء ذلك، إلا أنني كنت استمتع برحلاتي، أأمل أن أحظى بسلوة ترضي ظني وخاطري، تروض جنوني، تحتل ثورة تفكيري.

فترة المراهقة جعلتني أضعف حيال كل سمراء أصادفها، جعلتني أتأملها حديقة وارفة أسترح بها، بحيرة وله اسبح فيها، أختلي بزوها وظلالها وخضرة عالمها ونضوج ثمارها وما يرتأ إليها من حبق، حتى اني من شدة هوسي بهن صرت لا أكلُ من التجوال بحثا عن زنبقة تفيض عطرا وراحة في أروقتي.

عانيت كثيرا وأنا أبحث عن ذاتي بين صحف مفاتنهن، طفقت اتبعهن كالمجنون المتلف، أتلفت ذات اليمين وذات الشمال، أتمعن في الوجوه الدبقة والعيون المغرية، أبحث عن الأصداف واللؤلؤ المكنون فيها، عن فقع الغسق. تلك المباهج القاطنة بضميري والنائمة في صرة فكري وفي أعماق الرغبة، والتي لها في كل فج شفق يهل بالثناء والشبق..

لا أدري لِمَ لا أنجذب إلا لجمرة النار التي أسَّعَر بها، كنت لا أنظر للفتاة المرعبة، الرعاء، الخرقاء، التي لا تهتم بذوقها وأنافتها وفننتها، بل كنت أفتش عن الرشيقية المُلذة بالشياكة والأناقة منهنَّ. وحين أجد ضالتي أتبعها كالأعمى لأجدل صفائر شوقي في قوامهن، أمضي خلف المليحة كخطل الظل، غاويا حراسة تاجها من شبق العيون المتلصصة بها.

أحيانا أقف قبالتها مكتوف الأيدي كي أستمتع بفتنتها، دون أن أشعر بذاتي وهي تتبع الجنون الكامن في داخلي بتلك المجانة الدابغة، تبحث عن اللغز المكنون في الفتنة المفرطة بعناقيد شجرتها؛ حتى أهجس بشذوذ سلوكي حين أقارن سلوكي بسلوك الآخرين من زملاء.

عندها كنت فتا يافعا، خجولا، لا أتجراً على إقحام ذاتي بالمناكبات والمعاضل، لا استطيع تحمل منغصات الجنون. يكاد الخجل ينز من الجبين كالعرق، أخجل أن أجازف بإقحام ذاتي بأتون الرغبة التي تعتريني، مرتعبا دون أن أجرء طرق أبواب فاتنتي بشكل علني وعبثي، رهبة من أن تلتهم الرغبة بعصف النار وشطط الدخان. كنت أخاف من أن أدخل أنفي في بوتقة الظن والشك، أن أجازف بحرشة ما تنعكس عليّ بالسلب، كنت أكره المناكفات بين الزملاء، عزيز نفس وذات كبرياء، لا أرضى بالذل، ولا اتوق العلاقات العبثية ولا أحتمل آثارها، فأنا كنت أبحث في الفتاة التي أهواها عن السحر المكنون فيها وعن النية الصادقة والمحبة الخالصة..

ذات مرة وددت أن أجازف وأخترق عالمها بشكل مباشر، عزمت على مصارحة فتاة سمراء وجدتها كالمح الملح اللاسع بين رفيقاتها، فتقدمت إليها لأستثير هواجسها، وحين وصلت حد الشاطئ توقفت هواجسي، بقيت أنظر كمجن لتلك الأمواج المتدفقة والمنبعثة من وحي محيطها دون أن أجرأ إقحام ذاتي بعالمها، بقيت أستمتع بدفق السحر فوق مفاتيح الوجه والجسد،

وحين انتبهت عليّ؛ شفتني بنظرة من عينيها فيها أسف،
جعلتني الوم ذاتي على جنبها وهوانها.

لا أدري لِمَ كنت أهاب التصادم أو التلاحم أو التخاطر معها
بحرشة تعينني على مواجهة سلطانها! على الأقل أكون راعٍ
لنلك السمرة من عبث الدبابير الدائرة حولها، على الأقل
أشترك معها بمهرجان الفتنة والجازبية، أهى الفرص بطرقها
فتحيل ضعفها لقوة..

والحقيقة كنت أتمنى أن تأخذ بيدي كطفل لمهرجان أنوثتها،
أن أمسك يدها، أمسد شعرها، أتبع ظنها، أتعلق بجيدها كعقدها
التمين، لاستشعر بدفق نبض الفؤاد وطراوة الصدر ودفع
البشرة، أن استل من أسيل الخد ولدانة الشفة قُبلة غرة.. لا
أدري أن كان ذلك هو نقص في قيافة شخصيتي أو ضعف في
قدراتي وعواطفني أو عيب في فكري وسلوكي. أو خلل في
ثقافتني وتربيتي، أو خطأ في تقديرني وتبجلي لها، أو جبن ما
كبلني وأحالني لهشاشة.....

لكني كنت واثق من أنني متلبس بذوات سمرة البشرة، أعرف
ذاتي البريئة جيدا، فهي طريدة مشاعرها، لا تقوى على
العناد. صادقة، هائفة، ليس لها القدرة على التحكم برهاقتها،
لقلة احتكاكي وتجاربي العاطفية، وربما لانعزالي عن المحيط
المشاء بحدة الظرف الماجن.

كما كنت لا أجرؤ الانخراط بعالمها بعمد كالجابرة، في
الحقيقة كنت معتمدا على خيط واه من الحظ لأستدل عن ذاتي.

فلا استطيع أن أخاطر بالفؤاد في خوض تجارب عبثية دون أن أتيقن من نجاح المهمة مسبقاً. لذا صرت أطرق ابواب عالمي دون أن أتلقى استجابة مباشرة ودون أن أتيقن من الهدف المراد، دون أن تختمر عجينة الفكرة في ذهني.

في إحدى المرات وأنا أتجول في شوارع بغداد، تبعت بنتاً لطيفة سمراء، تلبس بنطلونا أزرق نوع الجينز وقميصاً مقلماً بخطوط خضراء وبيضاء رفيعة، تحمل على كتفها حقيبة رمادية موائمة مع لون بشرتها، كانت تتبخر في مشيها منحدر من السوق العربي نحو مرأب النهضة....

تبعت خطواتها قرابة كيلومترين من المسير دون أن أتجرأ من الاحتكاك بها أو التحرش بها وملاطفتها أو تعريفها بذاتي، على الرغم من أنها كانت وحيدة دون مرافق. كانت تمشي بهداوة على جانب الرصيف الطويل، تخط الخطى برواق وهدوء، وثقة. هجست في نفسياتها شيء من الضجر، كانت مرهقة من شيء ما، ربما من الدراسة أو طارئ مادي ألم بها أو عقدة جزلتها، هكذا تحسست ظرفها. إحساسي أخبرني بأنها طالبة جامعية من أهل الجنوب، تبضعت أشياء بسيطة من سوق الشورجه ثم اتجهت لمرأب النهضة حيث تقف حافلات الجنوب.

يقينا أنها كانت مشغولة بأمور جمة، وقد تكون مادية أو عاطفية أكثر من أي شيء آخر، حدسي بها لا يخطأ أبداً، أهجس بالانا القاطنة في داخلي تتعامل مع المحيط كمخبر سري، تدون ما يجول في خواطر الآخرين على صفحات

الظن، تخبرني بكل التفاصيل المارقة أمامي بدقة متناهية؛ بحيث أهجس بذاتي الخفية تجرني لمعرفة حقيقة الآخرين قبل أن تعلن على الملأ، تجردني عن ذاتي الحقيقية التي أعرفها وأتعامل بها في مجالات الحياة كافة لأنغمس بذاتي الخفية، تؤنبني عن أخطائي، تمنحني ثقة في تصرفاتي وسلوكي بحسب المواقف وبما أكن وأشتاق. بصراحة كنت اشعر بذاتي ذكية بشكل مفرط، لأنها تعيش بداخلي بوجوه عدة تمنحي القدرة على المواجهة والتفسير والتقدير.

وفي إحدى المرات صادفت فتاة سمراء في شارع السعدون كانت تمشي برفقة زميلة لها شقراء اللون. يقينا أحداها تغار من الأخرى لفرط الجمال المراق على أجسادهن، للفتنة الرابضة في وجوهن ورشيق قوام أجسادهن، تهجس بهن كأوراد الربيع مختلف الوانه.

تتبع خطواتها وهي تفرح وتضحك مع رفيقتها كطائر الكروان الحر، غير مبالية بما يجري ويجول في خاطري من صدع أثيري يشدني إليها، من صراع عبثي يتشح بالوله العائم في فكري وقلبي وعقلي، حيث بقيت أعاني كثيرا من اللمم والوساوس العالقة في شخصي والسحر المغشي في تلك البشرة.... كانت تنتقل بين المحلات الزينة والأناقة حيث تخرج من محل لتدخل آخر دون أن تتبضع شيئا منها، حاملة في يدها كأس آيس كريم تتمطق به. ناثرة شعرها الفاحم على الكتفين كشلال يتراقص مع النسيم. كاشفة جزء من زندها الريان المغنج بالنضارة والطراوة عبر رداء قميص شفاف

وردي اللون بنصف كُـم. تعلو شفقتها حمرة وردية من لون القميص، ذائبة بدكنة شفاه مُندأة بلمعة سحرية، أضفت على جاذبيتها جاذبية اشعرتني بسحر فتنتها، كأنها من ذوات العجر وهي تتجول في ذلك المساء بين قضبان البشر، بحيث جعلتني لا أنتبه قط على فتنة صاحبها المرافقة لها رغم رشاقتها وحنو طلتها وجميل سحنتها.

لا أدري لِمَ أنصب تفكيري وشغفي على تقاسيم وجه وجسد السمراء فقط، ربما لخفة دمها وحلو حركاتها. حينها شبهتها بقطة شيرازية جذابة نشطة، لما لحيويتها من تأثير دبق على القلوب الرهيفة... ربما صاحبها كانت أكثر سحرا وجاذبية منها، إلا أنها لم تثير حفيظتي، لم تدشن مشاعري قط. ربما لم تسحرن لثمائل بشرتها ببشرتي، حيث دائما ما يغر الإنسان ويغزه الشيء المختلف، وربما طبع فيَّ أنا، حيث دائما ما أشعر بالجاذبية لذوات سمر البشرة.

هذا الإحساس لم أنميه في داخلي من قبل قط، أنما ولد معي بالفطرة، نما مع نمو عقلي وإحساسي، ركب هواجسي منذ الصغر كشعري وأظفري. منذ أن هجست بخفقان الفؤاد صار يورقني. منذ ذلك الحين وأنا أهجس بلوعة تجاه ذوات سمرة البشرة، أحسبها كمطرقة عواطف تطرق رغباتي.

هكذا سرقنتني من عالمي لمتاهة جناتها. هكذا لم تدع لي مجالا لأتفرس بوجه وجسم صاحبها، كل شيء كان فيها خارج حدود المنطق والسيطرة، تحكمت بي عبر ريموت كونترول مجسات بشرتها وخفت دمها وأثير جاذبية مفاتها..

وبعد عناء ساعة من الزمن وأنا على شاكلتي أتتبع
خطواتهما، دلفنا لشارع أبو نؤاس، حيث دخلنا لأحدى
المقاهي ليستمتعن بيومهن على شاطئ نهر دجلة مع السمك
المسقوف، حينها عدت خائبا أجر أذيال الخيبة، ملتظ بحسرة
الشوق التي تشبثت بخطوات قدمي.

كنت أتمنى أن أجلس قبالتها، أن أحدثها، أجالها، أغزل بها.
كنت أتمنى لو تكون لي قدرة خارقة في تتبعها، كأ أن البس
طاقية الإخفاء لأجلس قبالتها دون أن تراني، مثلما فعل جيري
بتوم حين أوقع به في شباك خبثه... تمنيت أن أخلق المعجزات
كي أظفر بنظر دائم لتلك الملامح، أنشعب من نمير تلك السمرة
المنسابة على جسدها ككريمة الكاكو.

كنت أتمنى أن ألبسها كتلبس الجن للبشر، أو أتربع على
عالمها كشیطان أخرس، أدخل في جوف فكرها وشرابينها
حتى أصل لأسرار فؤادها، لأدون أسمى على جدران قلبها.

العاشق دائما ما يكون أناني بطبعه، وهكذا جالت في ذهني
خواطر جمّة، كلها توذي بي إلى ضفاف شواطئها بشيء من
الغرابة والأنانية، لأستمتع بكريمة بشرتها التي أتشوقها.
لأتلمس فراء ثديها الوثير، لأنعم ذاتي بلدانة الجسد لحظة
العناق، لأرطب شفاهي بندى الخد ورغاء الشفاه. أستبيح
الرواق الممتد فوق ذلك الصرح، حتى أشد فؤادي بفؤادها
بوثاق دائم لن ينفصل، بذلك أكون قد حققت أمنيّتي وغايّتي
ومرادي دون أن يراني أحد من الناس، دون حاسد أو لدود أو

عذول أو شيطان وسواس. حينها أكون قد أشبعت غرائزي من
نمير سحرها وارتويت من زلال فتنتها.

لو تحقق لي ذلك لتلبست كل سمراء تصادفني، وخاصة تلك
التي تأملتها خلال رحلة الجامعة، أو تلك الغيداء اللعوب التي
كانت جارة لنا دون أن أستطيع أشف ذاتي بقبلة من خدها،
أو...الخ من الحسنات اللاتي مررن على سكة محطتي.

هن كُثر اللاتي دخلنَّ عالمي المجون، كُثر طرqn أبواب
فكري، ولكثرة ما تأملتهن تناسيت أسمائهنَّ واشكالهن، نسيت
حتى مواضع الشوق ومواقع التلاقي.

قبل دخولي الجامعة كنت قد التقيت بفتاة سمراء شديدة
الداكنة تدعى أمل، وددت أجعلها أمل حياتي، حينها كنت قد
أكملت المرحلة الثانوية. في حينها كانت تحكمنا الفطرة، لم
أكن قد استوعبت فكرة العشق بشكل صحيح على ما كنا عليه
من طيبة وبراءة، كانت تسكن في حي بغداد الجديدة قرب
السوق الشعبي... تعرفت عليها وتعلقت بها حتى تعشقت
خيوط أشواقي بأسافين هواها. بصراحة لم أكن أخطط لما بعد
اللقاء بشيء، ربما لشغفي بها وهيامي برونق بشرتها. كانت
سمقة، رشيقة، لمحة، شديدة السمرة، دافئة وكأنها شمس
صيف بزغت في زمهرير شتاء، كوت جوارحي المستهامة
بسحر جاذبيتها، وجدتها شبة، رهيفة، خفيفة ظل، ناعمة،
لدنة، وارقة، تحمل من الغنج حدته ومن الود زبده.....

لكن حين جنحت العاطفة إلى مصب رواقها، إلى الصبابة المشاعة بكأس تويجها؛ لم أجد لنداء الفؤاد تلك الاستغاثة الجدية من قبلها، لم تشد أزري بأزرها. بقيت عواطفي تعاني من جذب وشد ورخاء وخواء ولا مبالاة، بقيت تعاني من هوس العذاب والعناء والداء والنداء؛ حتى قررت نبذها على رصيف شتائها، لأغادر عالمها ببرود دون أن أغير اهتماما لها، لعدم التماس تلك الثقة المرادة والمتبادلة بين الرجل والمرأة في إدارة سنابل العشق الحميمة.

رغم أنها جلدتني بسحر جمالها وبنايا فتنتها وهيافتها، ولكني لم أدع ذاتي تكون في موضع سخرية بين يديها، فكرمتي لها الأولوية. لعدم جديتها حالت الظرف بيني وبينها إلى يباب، هجست بها كوردة جذابة دون عطر ورائحة، سطا لونها على القلوب فتهافت عليها العشاق؛ حتى أصفرت وذبلت في العيون كأوراق الخريف، خفت أنوارها وتماهت في دماسة عتمة العلاقات الغير مجدية.

كانت مبهورة بالشياكة والأناقة فمنحت عشاقها فيزا مجانية للدخول إلى مسرح عالمها المجهول دون مراقبة ومحاسبة، دون حساب وانتقاء، تطبعت بتطبع بنات الهوى. كان برجها هوائي، خشخاش، لم تتبع عقلها كدليل قدر تتبعها قلبها وعواطفها الهائفة، جعلت من ذاتها كرة صولجان تتدحرج بين رغبات عصيها الأنية، بحيث لانت لكل من غازلها وأبتسم لهم دون تحفظ، لم تحافظ على قدسية الجسد وبهاء الفتنة، لم تكل من قافلة المعجبين بها قط..

مقابل ذلك لم تجد مشاعري الهانفة لها موضع قدم على رصيف المودة، تقرحت في مكانها لمزاجية طباع تلك السمراء، جعلت رغباتي الناعمة تتحجر في جورها كحصى الكلية، باتت تؤلمني. لم ترتقي بسحرها ومفاتها لمصب جنوني وهوسي بها قط، حتى شعرت بأنها قد أثرت بشكل جدي على مستوى طاقتي النفسية والفكرية والدراسية..

كنت أحاول أن أُميد أشواقِي المبسترة بالتخاطر الروحي والغريزي مع ذوات الشأن، وكل أُملي أن أجعلها مملكتي الخاصة دون أن يدخلها طير.

أحدى فتيات الجامعة كانت على شاكلتها، حيث قالت لي بأن لها قلب طيب، لطيف، رهيف، لرقته وهيافته أهجس به سلس جدا، دبق، يلتصق بكل عابر سبيل. لا أستطيع أمنعه أو أكسر خاطر عاشق أعجب بي. لا أستطيع خدش جلودهم. كأنها تستقطب الحشرات إلى صحن حلاوتها. حينها قالت لي ببرود مبررة سلوكها:.....

- كيف تستطيع البنت أن تُسكت نبضات قلب خفقت من أجلها؟ أشعر بأنني غبية أن فعلت ذلك، أشعر بأنني أقتله، أذبحه حين أصدّه عن رغباته. قلبي لا يطاوعني أن أكون شفرة جلاذ أقطع بها شرايين عاطفة ترجتني، توسلت بي، لتستقي شيئا من نمير فتنتي...

والحديث لها حيث قالت:

- أنا لا اعرف استخدام القسوة بأشكالها، ممكن أتألم وأتعذب، لكن لا أصب الألم بكؤوس المحبين والمعجبين بي بتاتا، لا أرغب حرج فتا أودع أشواقه وشغافه في سمرتي الملعونة، أو في شفتي الدبقة، أو في كهربية جسدي السليطة. نعم أنا جذابة، هكذا يقولون لي الشباب، وبطبيعتي طيبة القلب، ولاذعة.. تلك الصفات أتحسسها وأشعر بها في عيون المعجبين بي، جعلتني أرتقي بذاتي لأجعلها بلسم شفاء أسافد بها غرائز الشباب وقلوبهم الشبقة.

لعدم جديتها وعدم ثباتها واهتمامها بأنوثتها وتقديرها لشرفها؛ لم أخاطر بمشاعري في مستنقعها. كنت أشعر ذلك السلوك يقيدني، ينفي وجودي، يقلم أضافر رغبتني، يمنع عني جديتي في محاولات فك أحجية جاذبية من أهوى من السمر، حيث الرجل يهتم بكرامته وشرفه قبل الفتنة والجمال... أحيانا أرفد ذاتي المضطربة بشيء من النجوى لأعينها على التحدي، وأحيانا أرفت الفؤاد بنار جوى سمراء اناخت في بيداء احلامي، هكذا النجوى تسحرني بذات الشأن، أجبر على أن أشد الرحال لمربع صخبها بصمت وجنون..

مع جنوح الغروب وسكون الليل؛ ينشغل الذهن بفيض من الأفكار المتقلبة التي تفرزها الشجون، فأميل إلى الرهيفة والعفيفة من اللاتي طرقت باب فكري، اللاتي فيهن لسعة من لهب الشمس ولمعة من ضوء القمر، لتكون بذلك نديم صبري نهارا وأميرة قلبي في السهاد.. حتى أني من شدة ولعي بهن

بت أتخيلهن يشذبن الجنون في دروبهن، فأرسم لهنَّ صوراً
من واقع الحال على الورق، أفاضل بينهن بدرجات الود.
حيث أبهر كثيراً في ملامح الوجه ونسق الطول ودبق الأنوثة،
على ضوء ذلك تكون المفاضلة. صار الأعجاب في مخيلتي
يتحول لواقع حسب درجة الغرابة المبتوثة فيهن ومقدار
الجاذبية وسحر البشرة، ذلك ما كان يشغل البال ويؤرق الفكر.

لفيض الشوق بت أرسمهنَّ على الورق بقلم الرصاص
والجرافيك، أجسد وجوهن وأجسادهن، أجعلهن أقرب إلى
الحقيقة، أحياناً ابحر بعالم المجلات بحثاً عن الأنوثة
الصاخبة... لا أدري لِمَ اخترت الجرافيك في الرسم، ولمَّ
أختر أقلام الباستيل أو الزيتية أو المائية؟ ربما ليست لي دراية
باستخداماتها، ربما لطبيعة الحالة القريبة من حافز الذوق الذي
يحفزني إلى الغوص في ملامح السمرات بإشارة من المخ
أو القلب.

كنت أهجس يدي تغوص بالقلم في طراوة تلك الأجساد
لتغرف من ملحها لسعة الجاذبية، لترسم بحرفية شكل النهد
وجمرة الشفاه وواحاحات العيون بحرفية. أشعر بالقلم يلوي
الاستحالة، يدعها تتوافق مع الظلال والانكسارات بين ثنايا
الجسد، بحيث صرت أجسد النعومة الذائبة في تلك الملامح
الموشومة بدقة مع الموشحة بالسمرة الدبقة. أهجس بتلك
الصور توائم شراسة عواطفي مع حنية الجرافيك وحدته في
إبراز شكل الجاذبية.

بقيت تلك الحالة ملازمة لي زمن وأنا أعاني بشاكرتي من ذوات السمرة حتى يوم تخرجني من الجامعة، عندها كنت أحتسب لكل سمراء تقابلني، أكتشف في بشرتها جمالية وجاذبية جديدة تزيدني عشقا وإرهاصا وولعا بها، خاصة حين دخلت مرحلة الوعي في الجامعة، بعد أن ترسخ العقل وأرتقى منسوب الذكورية في الجسد قمة الشبق...

لكن تقلبات الحياة والظروف المحيطة بي من حروب وقسوة وحصار غيرت من مجرى الحياة. جلدني الزمن، جعلني أنحرف عن ما تأقت له نفسي. بذلك نحيت منحا آخر، ارتديت ثوب التعفف، تجنبت خطر رغباتي القديمة تماما، بت أبتعد عن موارد المسافرات بشكل عام، وذلك بعد أن قرفت ذاتي سلوكيات بعض الفتيات، بعد أن بنيت بيني وبينهن برزخا من الصمت والعناد بوجه كل مسفرة وأن كانت ذات بشرة سمراء! وخاصة بعد أن تأثرت قليلا بأصحاب الفكر السلفي وبقسوة الحصار وظل الفاقة، فارتديت رداء الحصانة مبتعدا جديا عن خط المراهقة..

إضافة لأمر أخرى خارجية وداخلية خصتني، أو قل بأي نتيجة القصص التي سمعتها والتي عشتها ورأيت بعض منها وتأثرت ببعض من تلك العلاقات المزيفة، والتي معظمها تمخضت بالفشل. تلك الأمور ولدت في ذاتي عقد نفسية، أثرت على فكري وخط سيرتي في الحياة، تبدلت مراكز الأسطر في الذاكرة، بحيث بقيت شريد الذهن، بعيدا عن

مستنقع الفساد والتجربة، مما صرت أخجل من تلك الأمور
ومن السلوك العبثي الغير مجدي.

لا أنكر حجم الخجل الذي كان يركبني ويمنعني من المجازفة
والمخاطرة التي أفكر بها أحيانا، ومن الطبيعي أن أصاب
بوعكة قرف من تلك العلاقات المخزية، ومن الطبيعي أن
أتأثر وأتغير في مرحلة الجامعة بعد أن توسع الفكر والإدراك
وتغيرت المطالب النفسية، صرت أكره عبثية الصور والأفلام
المخزية والمشاهدات اللعينة والمخيفة التي تطلعت عليها، تلك
التي كشطت عن ذهني سمة البراءة..

هناك من كان يسير بعكس التيار أو عكس تيارى أنا، ماضيا
مع التيار العام المرهق. وهناك من بنى لذاته مسرا مستقيما
كما هو حال سبيلي، وهناك من تنقل بين تلك المواقع، حتى
قضى سنين عمره ناط على الأسوار الدانية دون نهج.

لكن بعد السنة الأولى من الجامعة انقلبت خطط أفكاري
ومشاعري وخواطري رأسا على عقب، انحرفت كثيرا عما
كنت اشعر به وأتمناه مما سبق، وأن لم يتغير الذوق العام
بشيء عن قراءة مواصفات المرأة التي أحب، أنما نما عندي
وازع ديني لما رأيت من خذلان وانحرافات أغشت الوسط
بين الفتية، انعكست سلبا على أصحابها وعلى الواقع
الاجتماعي الملتمزم. لذا كانت لتلك الهزات دور في بناء
الحصانة التي احتوت شخصي، كانت بمثابة الحاجز المانع
الجدي لأبتعد مسافة كافية عن حد الخطر، عن الحد العالم

الغجري واللامبالاة لبعض النسوة، فتمسكت بالذوق العام بعيدا عن مظاهر الفساد.

لم أكن أتوقع يوما ما بأنني سأنحرف قيد شعرة عن خط الرغبة الجامحة التي تملك جوارحي، لأنها رغبة ملئت شغاف القلب خمرا، رفلت العين والروح غزلا ولهفة، استحوذت على لدانة الفكر بالسفح واللمح، بسطت الحيرة على منازل الذوق تماما.

لكن الله يريد وأنت تريد، والله يفعل ما يريد.

كبرنا وكبرت الذوات وتماهت الأفكار في ظروف متقلبة فتقلبت أوضاع النفوس وباتت تحرث في الممكن من ظفر العيش، حيث محيت آثار أمس من سبل الشوق، بصر النظر وخف صوت القلب. لقد ذابت تلك المسحة البريئة الصادقة من زبد الأذهان مع مرارة الأيام المشوبة والمحقنة بالحصار، تلك التي ما عادت تنفك أغلالها عن أعناقنا، تبدلت مفردات الفكر ولغة التفاهم وقوالب التقويم، حتى أجبرتنا الظروف بأن نتخلى أحلامنا وملذاتنا بسبب تعقب الذل لنا وتقلب الفكر في مدرج العمر مع تساقط السنين من لائحة الزمن..

مع كبرنا كبرت الهموم بحيث هرم الشاب وهو لم يزال في مقتبل العمر، شمطت الفتاة وهي لازالت صبية، كل ذلك بان في الوجوه وفي الأطمار التي بتنا نلبسها نتيجة الفاقة التي عصفت بالمجتمع عبر تلك الفترة الزمنية من زمن الحصار الطويل.. خلاله تقطعت قوادم أجنحتنا، بحيث ما عادت لنا

أمكانية القدرة على الطيران في أجواء الفرح والشيق والنساء،
اشتدت علينا العواصف، فذرت أحلامنا كرماد في فلاة
الامنيات، محت أثر الطفولة من الذاكرة، أعشيت العيون
بفسيفساء الوهن. صرنا كمن يتبع الشيطان، نستجدي الرحمة
من فاه الزمن المرير، حتى خارت قوانا وتبخرت أحلامنا،
دون أن نستطع إيقاف زحف الهمجية على أحاسيسنا بسبب
خشونة ملمس الايام.

بتلك الظروف بقي الإنسان يتأمل معجزة حقيقة تغير
مجريات الأمور، تنقذه من السخط الجائر دون أن يتغير شيئاً
من الواقع. بقي الحال على ما هو عليه، وبقيت النفس مراهقة
تبحث عن غايتها في دروب التسكع مهما كبر شأنها، تبحث
في العيون التي جفت قروؤها عن الدرر التي ندر وجودها في
صرة الحياة.

2- الصيدلية

نتيجة تمادي الوضع المزرى الذي مرّ به البلد من حرب وحصار وضعف أمكانية وقلة ثروات وغلاء فاحش كان قد القى ظلاله على كاهل الفرد، حينها بت أبحث عن عمل ثانوي أشد به أزري إلى جانب دراستي، لأستطيع مواجهة موجات العصف السليطة التي باتت تضرب خيم الكرامة والعزة بغل، وقد تمكنت من إيجاد عمل بصفة متدرب في صيدلية تابعة لأحد أصدقاء والدي، في الوقت الذي به تخطيت به السنة الثانية من دراستي الجامعية في ذات الاختصاص. كان ذاك عام 2000.

أصبح العمل الجاد يأخذ جل وقتي، بحيث نادرا ما أجد فرصة راحة ضالة بين مخالب الزمن، الخوف من المجهول ومن المستقبل بات يوسوس في قلوبنا، يجردنا من أحلامنا وآمالنا، جعلنا منبطحين على رزقنا، متمسكين به تمسك الأعمى بعصاه، ناسين علاقتنا وأحبائنا وذوينا، صار كل شخص يفكر بنفسه وغايته ورجاءه.

حينها بت أتقاضى أجرا جيدا يعينني على جلد الحصار ومرارة ذلك الظرف السليط، المارد، الذي صار يخلق الخوف في جيوب تفكيرنا وأعماق هواجسنا، بحيث صرنا جزء من صيرورة الحالة التي لا نستطيع التخلص منها، لا نستطيع أن نتخطى أسورة التذمر بحثا عن أهواءنا وهوانا وعالمنا المتحرر، عن هواءنا وماءنا وغذاءنا، عن رقينا وسمونا وأحبائنا إلا بالهرب خارج أسوار الوطن...

لقد تطورت الحالة من حرب لحصار جائر، ثم لحرب شعواء ودمار في مؤسسات الدولة ثم لاحتلال، ألحق ذلك انحطاطا عاما في السلوك وفوضى عارمة في الشارع والنفوس وفي دوائر الدولة، تبع ذلك القسر والتهجير والقتل الذي لاح أطياف الشعب، تمثل العنف بالقصف والتفجيرات والأحزمة الناسفة، حتى صار البلد أشبه ببركان يلفظ حممه على أبناءه، بحيث لم تسلم جرة من ذلك العصف إلا وهشمت.

أكثر ما كان يزعجني ويثير في نفسي الاشمئزاز؛ هو تحول الجندي الأمريكي (المارينز) في الشوارع والمواقع دون رادع، باتوا يتحكم بمقدرات الشعب كيفما يشاء، فهم لم يتواجد بيننا إلا للقتل والطمع والسرقة، حقد دفين ملأ صدورهم.

نتيجة لتلك الظروف صارت اهتمامات الناس محصورة في حدود الذات وبالممكن والشخصية، باتت تبحث عن سلة الأمان والمعيشة أكثر من اهتمامها بالعلاقات الحميمة العامة والمصالح المشتركة العمومية والإنسانية.

قلَّ أو شبه أنعدم الاهتمام بالأمور الثانوية التي لا ترتبط بالشخص بشكل مباشر.... على سبيل المثال؛ صرت لا أعتني بنفسي ولبسي كما كنت في السابق، لا أهتم بمحيطي، لم أتبع التطورات من حولي، نسيت أو تناسيت أولاد محلّتنا بعد أن شبوا وكبروا. حتى أنني بعد التخرج بسنوات كنت قد نسيت أسماء معظم طلاب مرحلتي الدراسية وبعض الجيران، كما صرت لا أهتم بالمظهر الخارجي الذي صار لا يشكل ذا أهمية تذكر لدى معظم الناس إلا ما ندر، لقد تبدلت المفاهيم

التقليدية والقيم المتجذرة والأعراف التي تعودنا عليها والتي
تربينا في أحضانها منذ الصغر بسبب الفقر المدقع والقتل
المبرح، صارت الأمور الآنفة تغطي عليها الأنانية، صارت
لها وقع وتأثير أكبر على الفرد في العموميات والخصوصية،
الحال وصل برئيس الجمهورية يحث المعلم على العمل بعد
نهاية الدوام كعامل أجير ليرتقي بمعيشته، لقد تراجع التعليم
إلى الدرك.

في أحد الأيام التقيت أحد الزملاء مارا في شوارع بغداد،
أخذني بالحزن وصار يقبلني ويود عزيمة علي قارورة
بيبسي.. لكنني تفاجأت به، كنت أنظر لوجه كمجنون يسترج
ذاكرته، نعم أتذكر ملامحه كحلم عابر، يا ترى أين ألتقيته،
أين رأيته؟ بعد هنيهة تداركت الموقف وتذكرت كان أحد
طلاب صفي في مرحلة الدراسة الإعدادية، تذكرت شكله
ومنطقه ومشاكساته.... ياه... ياما جلسنا معا وسررنا معا،
وسرنا معنا... ياما ضحكنا وأغدقنا وتهللنا معا.. ياما تبادلنا
الأحجية واشتركنا في حلول المسائل الرياضية... الخ. لكن؛
أستعصى عليّ أسمه!..... ياه.... أين ذهب ذلك الاسم الذي
كنت أردده باستمرار، أين اختفى من الذكرة المريضة، كأنَّ
العناء طمر ذاكرتي بأحوال الزمن. عندها سألني مستغربا:.....

- ما بك يا صلاح كأنك تغيرت؟.. هكذا سألني
باستغراب، أخذ على خاطره مني.
- لا لا لم أتغير، لا تتوهم، أرجو أن تسامحني لم أعد
أملك مخا يتدارك نفوق الماضي، أشعر بذاكرتي

ارتدت الناس جلبابا جديدا له دلائل ومعاني أخرى براقعة، أضحت السرقة تدعى شطارة ودهاء بعد أن كانت تدل على الخسة والنذالة، وتوزيع المناصب ولاء بدل أن يكون الرجل المناسب في المكان المناسب.... وتلك لم تولد بغتة، إنما ولدت من رحم جور وحصار مع تمادي الفاقة في الوسط.

ما أن تمادى الحصار حتى رمى بنا في جوف الهاوية.. غدى النصب على السذج والمساكين يعتبر إذكاء وفطنة. ما فتئت المرأة السافرة صارت أكثر حظوة وقسطا من العفيفة المحجبة في استقطاب فرص العمل والزواج، أمسى الفقير منبوذا يمشي وحيدا في آخر الركب القافلة الطويلة، كأن الناس وضعت الدين جانبا، حيث ما عادت تهاب عقاب الله!!!!...

على سبيل المثال لا الحصر، موظف النفوس الكحيان المتهتك المفلس والملقب بقاسم حافي، والذي كان فيما سبق في موضع الصدقة والرأفة من قبل الجميع، أضحى لا يحرك قلمه ولا يفتح ملف أو سجل مراجعة إلا بمقابل مادي يدفع له علنا. أضحى في مسألة المادة لا يجامل أخوه، تغير طبعه ومرونته، صار كعود الطرفة يابس جلد، أجرد، حرقته شمس الفاقة، الفقر بدد النضارة من وجهه تماما، بحيث بأسلوبه الخبيث الجديد المستند على قوائم المنفعة والرشوة تمكن بليلة وضحاها من شراء بيتا وسيارة وصار سيذا مرموقا في المجتمع والشارع.. بذلك تغيرت كنيته من قاسم حافي إلى

قاسم باشا وخاصة بعد انتماؤه لأحد الأحزاب المتنفذة في سدة الحكم الجديدة بعد الاحتلال الغاصب.

هكذا هلم جرى تغيرت النفوس والطباع خلال فترة الحصار وعقب جريرة الاحتلال، بتنا ننحدر نحو الدرك الأسفل نتلمس الحضيض دون أن تشرع في الأفق بادرة أمل بعودة الزمن لحالة النظافة والعفة والشرف.

من المشاكل التي طرأت على الساحة والتي لا يعقلها أحد.. أحد الشباب في مقتبل العمر قد جنى على زوجته كونها لم تطبخ له أكلته المفضلة!!!. تصوروا إلى أي حد نشف مخزون الحب والرافة والاحترام والتقدير في المخ، والذي بات لا يحتمل أعز الناس وأقربهم إلى قلبه. إلى أي حد وصل الاستهتار بحياة الآخرين. جنى على زوجته لأنها طبخت له أكلة الفاصوليا التي يبغضها، فدفعته أعصابه إلى نحرها.....

شخص آخر يهين زوجته، ومن ثم يصورها وهو يقص خصلة من شعرها وينشرها على مواقع التواصل الاجتماعي الفيس بوك كعقوبة لها، لعدم مراعاة أمره في الليل بالشكل المطلوب.

التخلف خرم العقول، غزى الواقع كمرض الكوليرا، أنتشر في المجتمع بعد توالي الحروب. حين يرى الإنسان محيطه ينحدر للهاوية بسرعة الزمن؛ يحاول أن يتوخى الحذر، يتجنب الالتحام مفضلا السير على الأرصفة لتلافي المطبات التي لا يتوقعها.

حينها كنت أشعر بذاتي مركونة خارج هذا المحيط، بعيدة جدا عن المغريات والمتغيرات التي طرأت على أسس المجتمع، كنت لم أزل بريئا أغرد خارج السرب مع قلة من الشلة التي لم يوشل مخزونها المادي والأخلاقي بعد، لازلت محافظا على كياسة شخصيتي رغم عمق الجراح في النفس، حيث قلة من الناس من هم ثبتوا على ما هم عليه على شاكليتي من الذين لا يستطيعون تبديل جلدهم حسب المواسم، بقوا يسرحون في بوادي المجتمع بعقلية نظيفة، يقتاتون بالممكن من ما تجيد به الظروف.

...قرأت اليوم خبرا في أحد الصحف المصرية مفاده: أن امرأة تطلب الخلع من زوجها كونه مؤدب وخلق جدا!!.. فذلك لا يروق لها ولا يتماشى مع رغباتها ورغبات العصر، من سهر، وتدخين النرجيلة، وشرب خمر، وفرفشة فارغة على صفحات النت ومحادثات الفيسبوك والجات... الخ. لقد أدعت في المحكمة بأن زوجها قبل الزواج كان مشاكسا، لعبوا، مدخنا، مرحا، فوجدت فيه فرصة للهرب من واقع أبوها المتمزمت دينيا وعقائديا لواقعه المختلف المتجدد تماما، حيث كانت قد عاشت واقعا من الكبت النفسي وتقييد الحرية وفرض الحجاب وتشديد المراقبة في ظل قمع واضح من قبل أبوها، حتى عانت ما عانت... لكن بعد الزواج تغير زوجها تغيرا كلياً؛ صار مؤدبا جدا، خلقا! لا يجلس في المقاهي، ولا يخرج للتنزه والرحلات، ولا يدعها تخالط النساء، ولا يدخن السجائر أو النرجيلة مثلما كان قبل الزواج. لقد كتم على أنفاسها وحريتها تماما مثلما كان يفعل أبوها حسب ادعائها...

حيث قالت الزوجة: كأني خرجت من سجن أبي لأغص في
سجن زوجي.....

كأنّ داء التغيير قد أنتشر على حد سواء في فضاءات البلدان،
كالهواء الناقل للفايروس الذي يطول أنوف الجميع. بات
الفساد والدين يمضيان معا في سباق أزلي، يسابقان بعضهما
البعض في خطين متوازنين، يغزيان الأسر والمدن ويطون
المجتمعات، ذاك الصراع الأزلي الجائر بين الغنى والفقر
طفح على سطح المجتمع، بات يقف على أبواب عقول بعض
البشر.

كأنما قلّت مجالات الإنسانية، أصبح وجودها نادر، ضيّقت
آفاقها، خاصة بعد أن توسعت طرق التجاوز عليها من
سلوكيات عبثية كالسرقة والأجرام والنصب والشعوذة بين
الناس وبالذات في المجتمعات الفقيرة والمتخلفة والمغتصبة
أرضها.

لكنّ طبعي أنا يختلف كثيرا عن طباع تلك المرأة تماما؛ ذات
مرة شاهدت فتاة محجبة بالكامل، تلبس القفازات في كفيها
والخمار يغطي وجهها، لا يظهر من جسدها سوى ضياء
عينين يكسران زجاج الصمت بوجه من يحرق بها. بهتُ بها،
تمنيتها زوجة، تمنيت أن أجد طريقا لقلبها، لشدة أناقتها
وتأثيرها بي، بت لا أسيطر على ولعي بها، لذا حاولت جاهدا
أن أتبعها بهوسي وعقلي وعواطفي وحلمي وجنوني إلى حيث
أن تكون.

لكن؛.....

على حين غفلة غاصت في أتون زحمة أسواق الشورجة المزدحمة، كانت برفقة والدتها، كانت قد مرقت أمام عيني كطيف دون أن أتمكن من تكملة الحلم معها، دون أن أتمكن من متابعتها ومعرفة لغزها، كأنها دلفت في غياهب الجب لشدة الزحمة المعروف بها السوق العربي. بغياها هجست بها قد جلدتني، طوقت إرادتي، ألهمت نار الجمر في داخلي بجمرة لغزها الأثوية، فعرفت بأن الجمال يكن في الحجاب وليس في السفور كما يشاع، لذا ندمت كثيرا على فقدان أثرها، لقد تماهت كفص ملح في بحر الزحمة أمام نظري، كخيوط دخان تلاشى في سدم الهوى، مرقت كاللحظة العابرة في سدم الزمن.

هكذا صرت العن حظي دون أن أتمكن من أن أسعد بمن أحظى وبمن أتأمل وأهوى، بقرارة نفسي صرت اليوم الحظ العاثر، وكأن الحياة وضعت عقد الحياة كحجر مصد أمام تطلعاتي، ففي كل المحاولات التي وددت أن أرتقي بها لحالة الرقي التي أتخيلها وأرنو إليها؛ كنتُ أصطدم بجدار الفشل، وكأن هناك عجز واضح في ولادة الحظ وضعف بائن في قدرات الطاقة التي ابحت عنها في أعين الغير.

على أية حال كبرت العقد وتوالت في طريقي بشكل عبثي بحيث ما أن أحاول أن أجد مسلكا أميناً في دروب الحظ المتشعبة؛ حتى أجد ذاتي تزحف دون إرادة خلف ظرف موارب يولد من رحم الشك والعسر، كذئب يعسّس الليل،

ينقض على الأحلام الفنية، الامر قد لا يخصني فقط، بل
يخص مجمل الطيف العراقي إلا ما ندر.

كنت أرى تلك الصورة في وجوه الزملاء والاقارب والعامّة،
وفي وجوه أولاد المحلة، لذا حين تعم الاشياء ينسى الفرد
مصابه ومشاكله وهمومه، يحاول أن يشكر الله على ما تبقى
بين يديه من نعم.

3- سوق الذهب في الكاظمية

ما أن لمحتها وهي تجري بين أروقة أسواق الكاظمية حتى أقشعر بدني، لم أعد أشعر باتزان قط، بدت لي وهي تخترق حواجز النظر كشعلة وضاعة تحرق ثنايا الظلمة، شغلت البال والقلب والجسد بمفاتها الجميلة.. وأنا أترقب خطواتها كأنما أصيبت بمس كهربائي، أو بالأحرى مس شيطاني من شطط تلك المفاتن التي تركبها. لقد حلت في السوق أشبه بإعصار هائج ضرب شواطئ السوق على حين غفلة، بحيث شتتت من على غصن الذهن كل الحمامات الذاكرة التي كنت اتأملهن فيما سبق. هكذا جذبتني نحو واقع جاذبيتها المصاغة بالتلاؤم والسطوع الظاهر على رشاقة الجسد رغم أنها مغشية بحجاب تام وخمار لفع معالم الوجه والجسد.

وهي تخطو خطواتها باتزان، تهجس بها تشهق بسحرها كطائر الطاووس المبتهج بذاته وكبريائه، متبخترة برهافة مشيها وتناسق خطواتها بحركات منسقة داخل أفرع سوق الذهب المزدهم، كعارضات الأزياء. ترفق ذاتها ثقة عالية بالنفس، فلا تغير أهمية لكل الذين أصابتهم قشعريرة الفتنة التي سرت في جسدي، لم تبالي لشذوذ حدقات العيون المتألصة المشدودة بجميل قوامها، أمثلها بملكات الجمال، بعشتار البابلية، بفسحة من الصمت، تركبها طاقة فياضة من السحر والبهاء وهي تتنقل بين محلات الصاغة بأناة، تقمصها رغبة جامحة وروح مستشيطه بفك لغز رغباتها من الذهب،

تستطرق محلات الصاغة بحثاً عن غاية مدفونة في أعماق الرغبة.

وأنا أترقيها عن بعد وعن كثب، هجست بها تدور في مخيلتي كفراشة، لا تستطيع أن تنفك عن مخيلتي، ولا أستطيع تجاوز حدها. دؤوبة الحركة، تنتقل بين محلات الصاغة برهافة، بخفة، تبعثها كمجنون يسعى خلف عقله وظنه وقلبه، وهي تسعى خلف رغبة جامحة تسيطر على ذاتها وعلى سحر مفاتها. ما أن تدخل محلٍ ما؛ حتى يتكهرب جوه فتزيج عنه جموده وسكونه، فيزداد بهجة وضياء وزحمة وقدرا بفتنتها، كأنها بروحها الترفة توقد مشاعل ضيائه، تشاغل قلوب العشاق من حوالها دون أن تقصد، بل بت أشعر برهافتها مسّت حراشف ظن وعقل وفؤاد كل من تواجد في المكان، كنت أحد المنشغلين الدائرين حول فتنتها دون أن أتمكن من بلورة قدرتي لأضعه بين يديها. هكذا تركت الغصة في أعماقي واعماق الكثير من الشبيبة في ذلك الرواق.

يقينا كنت قد ارهقتُ، شغلت بالي وأجهزة الروح العاطلة بلظى الفتنة، لأبقى متيقظا ضمن مجال سحرها. لذا قررت أن أتبع تلك الفتنة المتوهجة خلف خطواتها في تشعبات السوق عسى أن الفت نظرها.... عندها لازمتني حالة ضعف وعناد في ذات الوقت حيال تلك الساحرة التي استفزت كل من حولها بشكل عبثي، في الوقت الذي به سنفرت قامتها ومفاتها بحدقات العيون الملظة بنار الشبق. فبانّت تشع لمعانا كجوهرة، بل بمفاتها غطت على جواهر الصاغة.

لذا تبعها الفؤاد بشغف وهي تجري كفيض بهاء بين شعب السوق وزحمة البشر، متنقلة بين الصاغة من ركن لآخر بخفة ورهافة، شغلت كل المنكوبين الذين تواجدوا في تلك اللحظة ضمن دائرتها، أصابت العيون الملاحظة بعمش الفضول، مع أنها لم تخرج عن حدود قيافتها واتزانها قط.

تهجس بها كراقصات الباليه وهي تجري ورواء رغبة جامحة سيطرت على هواجسها، متنقلة بين محلات الصاغة كشعلة وهاجة من الجاذبية... ما أنلفت نظري؛ حتى تركت كل ما جئت من أجله لأشغل ذاتي بظلالها. سحرْتُ بقامتتها وألقها، افتتنت بظهورها، تتبعت ذلك الهباء المنعكس عن قامتها، البريق المنعكس عن الجاذبية المراقبة في مفاتنها.

تبعتها بحيث جعلتني أنسى لاجاة فكري والحاجة التي جئت من أجلها، أنسى قدرتي في ظل وحدة ملتاعة، لأنحدر خلف ضعفي وجمرة الفتن كضريح لا يهجس بمحيطة، علها تشم شياطين دخان الفؤاد الذي تلظى بنارها.. أضحيت مهووسا بها، لا حلم لي إلا أن أكون مجنونا بين يديها. تيقنت بأن حالة الجنون ما هي سوى مرحلة تسامي تصل بالفرد لدرجة النبل والصفاء التام من العلاقة بالطرف الآخر، والتي من خلالها يتقبل الحياة بشكل من أشكال البراءة مبجلا حبيبته بشتى القيم. هجست بذاتي تحولت لهباب، لضباب، لدخان بين عيون الناس وأفكارهم دون المساس بغاياتهم، متأملا أن أمسك بكفاف ثوب تلك الآلهة. هكذا صرت أتبع الغاية بأمر من القلب دون الغوص في مجال العقل، عسى أن أدخل من ثلمة

الظن لعالمها المجون، أو أغور بين السطور التي تشغلها أو كلمحة في سدم عينيها، لأستقرئ الغايات والنبيل الغافية في أروقة القلب والحدق. وددت أن أفجر الشهقة في صدرها؛ علها أن تصاب بما أصبت به من رشح يحرف فكرها تجاه شخصي. هكذا جنح بي الخيال لنقطة اللاعوده وأنا أتحرك كظل خلف قامتها بين الاسواق.

تبعثُ خطواتها في أزقة السوق الضيقة على مدى ساعة زمن دون هواده، دون إدراك ووعي، بحيث تمكنتُ خلالها من سرقة ذاتي من عالمي الحقيقي لأدسها في اتون عالمها الأبدي الخيالي. جعلتني أنشغل بهدف غير مرء بالنسبة لي، كمواقع النجوم في فسحة السماء، عن عطر أنتنفسه أو وصل يعين القلب على تخطي عجزه، منشغلا بالألق الظاهر عليها وهي تستطير بين الأعين كفراشة مبهورة بذاتها، كألهة الحب. ذاتي المريضة شعشت الرغبة في داخلي، حررتها من قيودها، قدفتها في سلة مقتنيات تلك الفاتنة، وهي تبحث بفطرة عن ذاتها بين لآلئ وجواهر محلات الصاغة.

يا ترى؛ من تكن تلك الفاتنة التي أجبرتني إلى الميول لجانبها؟ من تكن تلك التي أبرمت خيوط العقد بأسافين فكري؟ تلك التي بزغت من دون فتيات السوق قاطبة تشع أنوثة في لوحة إعلاني، بل من دون نساء أجزمت أن تنقط حروف غاييتي، أن تشرع بخطط عذابي، أن تنشر في صحف العيون أهاتي. تلك التي سحرتني، قيدت تأملاتي، بحيث ما أن طرقت بابي بمفاتنها؛ حتى انشدهت بها، بل أجبرتني على أن أفتتن

بمعالمها من رأسها لأخمص قدميها. جعلتني أشكك بقدراتي
وبتقديري للأمور الطارئة، فلا أدري أن كانت تلك الفاتنة هي
آية من آيات الوصف والجنان التي أبدع في خلقها الله؛ أم هي
حالة شيطانية عبثية أشعلت فتائل الوله والإعجاب في مراكز
الذهن والقلب، لأجبر على وضع قيدها في معصمي؟.

كانت مغشية تماما، من رأسها لأخمص قدميها، تلبس جلبابا
أسودا وخمارا من ذات اللون وقفازات قطنية سوداء ترأف
أنامل كفيها. لمحتها تتجول بين محلات صاغة الذهب وهي
تمعن النظر في تلك الجواهر من قلائد وأساور ومحابس
وأقراط بشغف. تتفحص الأحبال، ترتدي التاج... وهكذا
دواليك تجرب تلك الجواهر على مفاتنها البضة ومقاساتها
وكأنها لا تدرك بان تلك الجواهر لا قيمة وفتنة لها إلا ما
تستنبطه من مفاتنها، لا قيمة لها إلا حين ترصع بها معصميها
أو تحجل بها ساقها أو تحلق بها جيدها.

من خلال ملاحظاتي وجدت عدد النساء في السوق أضعاف
عدد الرجال، ومع ذلك لم تشدني غيرها من النسوة. كانت
غريبة اللبس والأطوار، ذات كرزمة تدل بأنها ليست من أهل
بغداد، لما للبسها من احتشام محكم يغشيها بالألق البارز
عليها، وكأنها فصلت لذاتها تلك المقاييس لتكون مميزة بين
النساء بالقدر والبنية والقوام والأدب وغيرها، حيث المتميزون
دائما ما يحيطون ذواتهم بحلقة يعجز الآخريين على تقليدها
وفك أحجيتها، لذا تجدهم في المجتمع يحاطون بجمهرة من
الأعجاب دون أن يهتموا بتلك الهالة، بالأحرى عدم اهتمامهم

ظاهرياً لا يدل عما يصيبهم من نشوة داخلية تعطيهم دافعا ليكونوا أكثر إثارة ونضارة ولمعة في الحدق.

هكذا هجست بها وهكذا فرحت بوجودها. تأملتها ملياً رفيقتي، تمنيتها زوجتي، حبيبتي، سليلتي، أعجبنني شياكتها ورشاقتها وقوام قدها الفارع، رغم سلطان الحجاب الذي أخفى معالم وجهها ومفاتن الجسد الممشوق تماماً، إلا أنه كشف لي عن جميل ما تخفيه من فتن. هجست بالحجاب لم يكن حجاباً قدر أن يكون كشافاً كهربائياً يبهج سحر الجواهر المكنونة في داخلها. أبهج الدرر في الجسد بدلاً من ضمورها، بانئت لي معالم الأنوثة مثيرة ومقسمة بدقة... أوحى لي الحجاب بأنه لا يغطي من الجسد سوى لون البشرة، وذلك ما أثار جوارح القلب، جعل أعني بما تحت الحجاب، متخيلاً لون البشرة وتكور المفاتن بما تهوى النفس وتتأمل؛ أثارت في داخلي نزعة جنسية بما يتمناه الزوج في زوجته... كان الحجاب قد سمح لمرافئ الفتن من البروز والتكور والتهيج تحت غشاء العباءة بشكل ملفت للنظر، أظهر تقاسيم الجسد بكل ما لها من سحر وتناسق وتكور مكوم وملوم بما فيها من رقة وعذوبة ولذع وطراوة ترتديها. جعل رقائق الأنوثة تسطع تحت إنارة مصابيح السوق كالكريستال، سَوَّرَ القوام الممشوق بالجابية، صور ذلك الجسد الحزوني يرتق بالعذوبة، بان كجسدٍ هلامي منعّس بالفتن، يتحرك بلا رداء وحجاب في أجنحة الرواق. بتلك المعالم بدت لي كحورية من الجنة الوله تشغل بالي، وكأن الحجاب المبتوث عليها أوقد وهج البراكين في الجسد، فأثارت حفيظة الجميع وهي تنثر تلك الشواظ على العيون

المبحلة بها. مضت تختال الأنفس تحت وقع سهام العيون
المبحلة في قوامها. كأني بها أصبت بلهفة شيطانية من غواها
فانحدرت مع موج ذلك الجسد المتقد إلى حيث جمر جواها،
فاستشطت الآهات وأنا أتبع صخبها وهواها.

وأنا في غيي أتتبع خطواتها، بت أراقب الحدث بحذر وأن
كنتُ مقرونا كشاهد في المشهد، حيث ذلك المد العفوي بان لي
كقدر أغرق السوق بفيض سحره. باتت تثير أعصابي كلما
لامس القلب شطط تلك الأمواج العاتية، اضحى ذلك القلب
المسكين مرتع فوضى، لا يصبر على صخب المشهد وهو
معلق بذوائب تلك الجميلة، أسير هوى، لا يبغي أن يتحرر
عن حلمه قط.

مع ميلان جسدها الممشوق تميل أنفاسي، تشهق بسحر الألق
المراق فوق ذلك الجسد، تعزف على أوتار خطواتها. لرهافة
الإحساس؛ مضت الروح تحبو خلفها، لما التمسست فيها من
هيفة وفيض وقطران وشهد تشهق بها مفاتنها، هكذا أوصفها،
جملة جواهر معلقة في شجرة ميلاد، تتلأأ في أحداق العيون
بفيض ذلك الحسن المراء..

بشيء من العناء تماكنت نفسي أمام تلك السهام التي أصابت
بها وجدي. بذلك التناسق المبهر في مرافق الجسد، تمكنت من
فرض قيدها في معصمي، حاولت أن أجاري عصف فتنتها
بشبابي، أن أكون بألقها وفي صفها، أن أتسلق برجها العالي
بلون الرضا، بصفة الندى المراق على بشرتها وظاهرها

المتترف دون أن أتمكن من أجاريتها لتقتي المهزوزة بنفسي.
لذا تريثت أن تنهي عملية التسوق علي أجد مخرجا لمعاناتي.

بدقاته المثيرة شاطر القلب حدقات العين الاعجاب والوله،
وبوقع العزف والغنج الذي تأبط به، تنقل مع تنقلاتها بين
الصاغة وفوق أحجار الظن، متأملا أن أخطف أهتمامها ولو
بنظرة رضا. وأنا أتبعها طاف خيالي في مرافق الجسد، تنقل
بي من موضع لآخر، من خيال لواقع ومن واقع لخيال، فاقتا
قدري واتزاني. بشرودي كأني أقف على حد السيف دون أن
أبالي بما يحيط بي من نقد وفيض سخط. غدت الرحلة خلفها
متعبة وأنا اقطع الغابات والصحاري، وأنا أجوب البحار
وحيدا خلف أعماق الرغبة، تلك التي اصطفنتني في تأملاتها
وهي تجول في جوف مستحيل من الصمت والسكون.

وأنا أنظر لها بذلك الشغف، كأني قد أدركت مرامي في
اللحظة التي تخلت عني ثقتي بنفسي، حيث أدركت بأنها هي
التي كنت أبحث عنها طوال فترة عزوبيتي في قواميس
الترجمة وكتب المغامرات والتاريخ وفي جعب ملكات
الجمال، هي التي ركنت شبابي على الرفوف الخمول
والعجز، ها هي بانث كقدر لي بعد أن تذيلت العقد الثالث من
العمر دون أن تشغلني امرأة.

مهما تكلمت لا يمكن وصفها، جسد مكور من ندف الثلج،
ينزف فتنة ورواء في الحلق، يختفي خلف حاجز شفاف من
غبار الغسق، وكأن تلك العبائة التي ترتديها ما هي سوى
مرآة تعكس جميل مفاتنها وشجونها وما في داخلها من كنوز،

كانها زجاج شفاف، يسمح لفوتونات الضوء أخترق حاجزه.. صرت أنبجس بغراء تلك الفتن كشاهد على ندرة وجودها. وأنا اتخيل معالمها؛ أتخيل ندب الوشم فوق الصدر ورساء الشامة على الخد، وهلال الصرة يشع كبدر الدجى فوق مساحة البطن.... هكذا أنحدر بي الخيال لعالم الجنون والشبق والجنس؛ لحالة التحرش والتذليل.

أيه... يا هذا! أين ذهبت وأنت تقف في وسط سوق مزدحم، مراقب من قبل الملاء، فما هي سوى ظبية فلاة تخطت الضباء....

بين الجنوح والرغبة؛ تصورت شكل الجسد اللولبي بين يدي ينفذ كخيوط دخان يتراقص، أو كتعبان يتراء لمن يقترب منها. على حين غفلة حلت بيننا وهي تمخر العباب كسهم نافذ، جسدي ملائكي يميل مع سجدة الأنفاس المسكرة، يرتعش مع شهقة الآه، مرقت كضباب الصبح أغشت العيون الناعسة.

وهي تجري في حيرة من أمرها، كأن المكان ضاق بها، أهجس بها تود أن تتطلق لفضاء الحرية كطائر محبوس يصدح في عالم الشبق والحبق، تلهث خلف غاية محبوسة كتمت على أنفاسها، لذا كانت تود أن تنهي مشوارها بسرعة.

بعد أن تمكنت من أسر هواجسي؛ تمنيتها زوجة وحبيبة، فصيانة الشرف غاية أهواها، أتوق لها، فالإنسان إذا ما أستقر ذهنيًا عمر طويلا، يتفرغ لأمر الحياة الأخرى بشكل مريح، يبدع في مجالاتها، إذا ما أراح البال تميل له الدنيا والسعادة.

لقد شغلتُ بالي بتفاصيل أنوثتها وسحر القها دون تخطيط مسبق، لذا تبعْتُ خطواتها في اروقة السوق كثور هائج يتبع ملاكا طاهرا دون شعور مني، دون أن أشعرها بوجودي. تبعتها كظلها في متاهات الطرق، مارقا بين شعب الأسواق المتداخلة ومحلات الصاغة والتي في واقع بنائها تكون أشبه بمتاهة لكثرة افرعها. تنقلت بين الصواغ من واحد لآخر ومن فرع لفرع، ومن رغبة لأمنية دون كلل وملل. راقبتها بنهم واهتمام، متمعنا بها عبر الواجهة الخارجية لتلك المحلات، تمعنت في رغباتها المختلفة وحركاتها دون أن أجري الاقتراب منها أو التلاحم معها. فلم أجد اهتماما مقابلا منها بي أو بالعالم الخارجي الذي يحيطها. بالأحرى كانت لا تبالي بالمهتمين بها، لا تلتفت لتحرشات وإرهاصات الآخرين بها.

ما أن تدخل محل ما؛ حتى تلفت الانظار لشخصها، حتى تجعل من المحل ورشة عمل يتبع متطلباتها، وكأنَّ في طلبها سطوة سحر تجعل من الحضور عبيد تتبع رغباتها، أو ربما هي زبونة دائمة معروفة. عندها جعلت نفسي أنشغل بأمر ثانوي في المفازة الخارجية أمام المحل الذي تأويه، وكأنني أوحى لغيري بأني مكترث بأمر خاص يخصني ليس له علاقة بما يحيطني، بحيث صرت أمضي أمام المحل جيئة ورواحة في ذات الشارع المزدهم المكتظ بالبشر وبالذات من صنف النساء؛ حتى تفرغ من تبضعها. ربما كنت عرضة للهمز واللمز والهزر والقبح والشتم والنميمة دون أن أعلم، وربما غير ذلك من الأمور كاللوم والسفه، كوني شاب تجاوز حد المراهقة...

خيل إليّ ذلك ومع ذلك لم تهزني شارة من محيطي كي
أغير من خط سلوكي، لأنني من لحظة مشاهدتها افتقدت
علاقتي بالعالم الخارجي، بقي فكري منصباً على جميل
هيكلا وسليط أنوثتها. بقرارة نفسي كنت أشعر بأنني مراقب
من قبل الجميع، من المارة وأصحاب الدكاكين ورجال الأمن
والمعنيين والمراقبين والسذج وأصحاب الشهامة والغيرة. لذا
بت أمتعض من شذوذ سلوكي وتصرفاتي المهيئة دون أن
أغير شيء منها، هجست بالقيد يكبل معصمي وما أني سوى
سجين هواها...

حقا كانت تصرفات غريبة تلك التي عنيت بها، ولا أعلم ما
الذي كان يسوقني ويدفعني خلفها، ربما لأنني أشعر بذاتي قد
قطعت مشوارا طويلا من العزوبية فوصلت حدا لا أحتمل أن
أجازف بخطوات أخرى إضافية، صار العمر يحرمني،
يشمت بكسلي وسلوكي، يلوي خجلي وتقهقري، يحاسبني على
انزوائي وطول صمتي، يعاقبني على برودي وخنوعي
وخذلائي، ربما...

في ذلك الوقت كنت أشعر بالغصة حين أردد كلام المطرب
ياس خضر مع نفسي وهو يقول في أغنية روعي "عمر
وتعدى الثلاثين لا يفلان"، كأنه بتلك الكلمات تقصدي، لذا
وددت أن أنهى مشوار العزوبية قبل أن يأتي الثلاثين القابع
على محراب العمر...

في الواقع لا أحد يكثر بشخصي في سوق الكاظمية لشدة
الزحمة، بحيث باللحظة المارقة تمر موجة من البشر من

أمامي، ثم أن المنطقة بطبيعتها وموقعها الجغرافي المميز
وسط بغداد تعتبر سوقاً مفتوحاً أمام من يرومه ويطرقه من
الناس، حيث كمّ هائلٌ من البشر يزحف إليه كل يوم، بحيث
في اللحظة المارقة تتغير الوجوه أمام عيني لحيوية المنطقة،
فلا استطيع حفظ الوجوه، لذا لا أحد يكثرث بالآخر أو يسأل
عن حاله وظنه وهويته وهواه قط.

فالغيمة الماطرة التي أغشت ظنوني؛ تخطت حواجز الظن
والمشاعر؛ أبرمت صفائر العشق في حشا القلب، أمطرت
رواق الفكر فضةً وزهبا، فأصابني بها مقتلي. بسحر مفاتها
وبحسن اطلالتها بللت ثغر الود الذي شف، رطبت الجوارح
بلظى الآهات، أعادت لي دوافع الشغف وغزل الكلام الجميل
الذي طفح على سطح المشاعر.

ما أن تقيدت بالواقع المرير الذي عشته، وددت التحرر من
شباك العقد، أن اتجاوز ضعف علاقاتي وقدراتي المادية،
صرت أهيّم في دوامة العناء والمصاعب دون أن أتمكن من
طرق فضاء الأحلام بلمحة.... مع مرور الوقت طفق الصبر
يبهت لونه، جعلتني قدرا مخضوبا يتبع رجاءها، ألوذ لوذ
العصافير في وحل غواها، متأملاً لفظة أو هيافة تجيل عن
وجدي جواها.

كفراشة بقيت تدور في اروقة السوق، تأخرت قرابة ساعة
زمن مثلما اسلفت، جابت كل الأفرع، دخلت بمعظم محلات
الصاغة وأنا أتابع المشهد بشوق هميم، بنهم، لم أمِلْ جورها
ولم أكل من التهميش، زادت جمرة الصبابة انقادا في الحشا،

أجبت نواميس الصمت بأجراس مفاتنها. شعرت خلالها بأني مسافرا في رحلة استمتاع نادرة عبر تحف محاسنها. جسد رخامي ممتد بين لاحظة عينيّ ونبض القلب كآلهة الهوى، كملكات عروش التاريخ تقف على أبواب المواقب تترقب جنون العشاق، كعشتار البابلية، وتويا الهيروغليفية، بل صرّحت استلطفها كحواري الجنة. مع أنه لم يظهر من وجهها سوى عينيّين براقتين فيروزيّتين؛ إلا أنهما أوحتا لي بأن خلف ذلك الخمار يخفي قمرا منيرا لم يحن ولادته بعد.

بصراحة بعد الكرامة التي تمثل قيافة الإنسان، لا قيمة للإنسان أن فرط بها؛ هي عماده وشخصيته وهدوء فكره وحلوله الناجعة. وأني من خلال مراقبتي لها بحكم أعجابي السليط، كنت أبحث بين ثنايا الحجاب عن السحر الغافي والإباء الذي يكمل شخصيتي وقيافتي بشخصيتها، عن الكرامة التي تحفظ كرامتي، كنت أبحث عن هدوء البال والاستقرار، عن غيرتي ولون صفاتي، عن حقيقة وجودي في عالم الحس والمشاعر، عن زوجة أبدية أفتخر بها بين طيات تلك المعازل من العقد الحياتية التي تتفجر دماملها على حين غفلة بين مسارب الحياة.... كنت أبحث عن الإنسانية التي تقدر قيافة الرجل... لذا تعلقت بتلك الفاتنة بشكل خطي من أجل صيانة الكرامة التي أبحث عنها في عالمي الشائك، من أجل استقرار ابدي تنوّه الذات وتبتغيه النفس المضطربة..

ذلك ما دفعني أن أقدر حشمتها ونوع لباسها وإقرار بأسها الذي أصبت به، والذي تهت بهوسه الانسيابي وهو يجري

نحو أعماق الرؤى، حيث جمعت رغباتي وأمنيّاتي في
شياكتها وحجابها وفي قوامها ومفاتها.

رغم الخجل المعروف به، إلا أن ذلك الهوس سار في رواق
وأزقة القلب بسلاسة، حيث أجبت مستشعرات الحب
والأعصاب بشكل عبثي وجنوني، مرغت أنف الكبرياء الذي
كنت عليه في وحل الهزيمة دون أن أستطيع أن أفعل شيء
حيال تلك الجبروت، هجست بالحالة أضحت أزمة جديدة كتلك
الأمزجات التي مررت بها فيما سبق، دون أن أدرك شاطئ
الأمان.

كان ظهورها أمامي أشبه بلغم تفجر على حين غفلة دون أن
يمهلني صبر التفكير، أدركت شظاياها منابت الأعجاب في
القلب والعين والجسد بلحظة غفلة. بظهورها أرهقت ذاتي،
طفق طبق الأعجاب ينزف من كل حذب وصبوب، صار الآه
يرتفع بحضرة وجودها دون أن تهدأ أنفاسي، دون أن أجْدُ في
دفاثر الذاكرة صورة تترجم لي حجم ضعفي وهيأفتي، كأنها
قد اختلقت من واقع الصدفة التي جاءت بها قدرا لي، فنبعثر
مع الشوق أمامي كحجر عثرة، دون تخطيط مسبق.

في الحقيقة كانت سليطة بكل ما للكلمة من معنى، بحيث أنها
لم تترك لي فرصة البحث والمراجعة عما تقره الذات ويقره
الفكر والوجدان، ببروزها المتألق والمتأنق كانت قد أحكمت
الأمر وأقرت نوع عذابي وشقائي. أهجس بها حضرت كقدر
وقرار، لا كنزها.

ما ألهم خيالي وقادني أتبع جريرتها في دروب الشوق والرجاء؛ هو عنفوان طلعتها التي بها أوصدت كل الأبواب أمام رغباتي الا باب النزاهة والود، التمسْتُ تلك الأناقة في بروج حجابها المشيد، تحسست الصخب المسترسل في فيض شبابها. رغم الخواء الدائر بيننا، إلا أنها أسرت هواجسي، مرقت كسهم في خاصرة الذاكرة، كوكب دري في فضاء فكري، ألهمتني اليقين لاتبع فنتتها.

جلدتني بصمت شرودها، زحزحتني لوهدة جنونها، دخلت عالمي بسرعة تفوق جريها في عيون الآخرين. أغشت فؤادي بنار الشوق قبل أن تلمظ نار الفتن في الحلق؛ حتى وجدت نفسي أسيرة هوا دون أن أبح بإعجابي بها علنا. هجست بها قرأت طالع فنجاني، فأوقدت شعلة الرغبة والعذاب في ذاتي. غرزت الغموض والعناد في صمتي وصبري. كحلت عيني برمذ الشوق. فلم استطع أمنع نفسي عن تتبع سحرها ولا أن اتنصل عن قوس القدر.

ما أعجبني فيها أنها كاملة الأوصاف، كحسان راهبات الدير. السحر ينفث من الخمار الذي يأويها بالدهشة المجنونة، تبرق بقوام قد ممشوق كعود الخيزران، تزاور الفؤاد بثني خطبها وسحر أوامها وهي تمشي برقة نسمة الصبح بين شعب أسواق الكاظمية. بخطواتها الهائفة، الفاترة، كأنها لا تريد إثارة غبار الشغب خلفها، كي الناس تغض الطرف عن جواهرها البراقة..

بدت لي زجلة بجسد مصان بالسحر والوزن والقياس، فلا هي
ممثلة ولا هي نحيلة، ولا هي طويلة ناشزة ولا هي قصيرة
مدغمة. تنتبر الفتن في قامتها كفواكه ناضجة، تترقرق في
مواضع الإثارة كالنجوم المتلألئة، حيث تبرز عنجرة الارداق
ورمان النهد المغشي بتلايب القميص بإذكاء، تتراقص برواء
تحت ضنين العباءة المنكمشة على الجسد. تلك الأنوثة المشعة
بالفننة من الداخل؛ تفيض سحرا وألقا على ظاهرها.

بقيت نفسي تشتعل برغبة الذات، تتقاذفها ظنونٌ مشتتة وهبات
عصف عنيف. بخطوات العاشق الولهان أتبعث سر الفاتنة،
باحثا عن فرصة تُغريني للاحتكاك بها، بأي شكل كان. أملاً
أن أثير انتباهها بشرارة مشاعري المتقدمة، عساني أشد وثاقها
بوثاقي."

مثلما اسلفت كانت لا تبالي بمحيطها، كانت تجري في واد
وأنا في واد آخر بعيد عن عالمها، لا تبالي بعيون الذئاب
المبخلقة بها، لا تهتم لما يصيح أذنيها من عبارات التهليل
والأعجاب والمشاكسة، رافعة حاجب عينيها عن جادة
الطرق، ماضية بسلاسة، بهدوء، وبعفة ورزانة نحو هدفها.
منسلّة من بين الأفواه كسمكة لا تعير اهتماما للحيتان الدائرة
حولها، كأنها آلة مبرمجة بتعاليم محددة..

كنت أهجس بها وهي ماضية في مسارها وخلفها الأنفاس
تتطاير كقصاصات الورق، لشدة تأثير عصفها بالمحيط. لم
تمنعها وهدة شك ولا هوة يأس ولا صدع ولا شأن من أن
تتخطى سجايانا ونوايانا بهدوء خطواتها الثابتة.

ما أن أفرغت ذاتها من التبضع، حتى انسلت بلدانة من بين أيادي الجموع، راغ ضوع الطيب والسحر خلفها يندى في المكان من فيض الألق، مضت لغاية حدود الشارع العام، عندها انزوت في سيارة فارهة بيضاء نوع مرسيديس، كانت تنتظرها خارج حدود السوق، يجلس خلف مقودها شاب وسيم تظهر على سحنة الرضا والغنى والأناقة، متصدر بثوب أبيض فضفاض ناصع وهو يفتersh كرسي القيادة، يروب وجهه بنزق حمرة التعفف، كأنه قد تأثر بلفحة الشمس الماجنة... ذلك ما بدى لي، كأن يكون زوجها أو أخوها أو ما شاكل ذلك.

ما أفلقني ودعاني أن أتوه في أزقة الشك، كونه انتظرها خارج حدود السوق داخل عجلة فارهة دون أن يرافقها. بت أسأل نفسي وأجيبها وأحلل ما شخصته عيني:....

- يا ترى؛ لِمَ لَمْ يجاريها خلال فترة التبضع؟ لِمَ لَمْ يحرسها من عيون الذئاب؟ لِمَ لَمْ يرافقها وسط زحمة السوق بـ ذات الشيق الذي كان ينتظرها داخل عجلته؟ هل هي صاحبتة؟ أم خليلته؟ أم أخته أم....

لِمَ تركها وحيدة تخض المبازل وتزيح المطارح من واجهتها بعزم أنوثتها؟ هل كان يتوجس خيفة من مصادفة أحد معارفه؟ كون السوق ملغم بفرق وطوائف مختلفة من أطيايف الشعب العراقي؟ هل كان يتجنب أن تلتقطه أجهزة المجهر والتجسس والمراقبة والخبث وهو متلبس برفقتها؟.. هل؟.. هل؟....

هل كان خائفا من أن تلتقطه السنة الضباع في خضم تلك الزحمة التي تعج بالأراهميط؟، هل كان خائفا على سمعته من أن يشيع خبره بصحف السلوك بين الملأ؟....

.... لكنني حين نظرت إليه من وجهة نظر أخرى؛ من باب الرأفة، عذرتة. أو عزت تخلفه عنها جاء كون الشارع مزدحم جدا، لا توجد مرائب عجالات قريبة من موقع الحدث، حيث أقرب مرأب يبعد عن السوق سيرا على الأقدام قرابة نصف ساعة أو تزيد من الزمن. فأنها لا تمل ولا تكل من الدوران خلف حاجتها، لا تعر أهمية للإرهاق والتعب البدني أو النفسي جراء هوس التبضع... والمثل يقول أذا ما وددت أن ترضي زوجتك قل لها دعينا نخرج للسوق لتبضع.. والظاهر كان دخوله السوق دون تخطيط مسبق. النساء إذا ما دخلن سوقا لن يخرجن منه إلا بإنفاق خزائنه من المادة، لذا تجد أسواق النساء عامرة بالبضائع المختلفة، ويزيد عددها عن أسواق الرجال في العالم أجمع، كما تزيد أسعار بضاعة النساء عن أسعار بضاعة الرجال!!! هجست به تجنب كل تلك المطبات..

وربما ودها تختار البضاعة بنفسها، وعلى رواق، ومن غير أن يفرض رأيها عليها. فأذواق الرجال تختلف عن أذواق النساء في كل شيء، وخاصة فيما يخص البضاعة النسائية، لذا تركها على سجيته كي لا يلام فيما بعد. كثيرات من اللاتي يمشين خلف أذواق أزواجهن ثم يخالفن آرائهم بإعادة عملية التبضع للحاجة، فتصبح الكلفة مضاعفة على الرجل.

في اللحظة التي ركبْتُ مع صاحبها سيارته؛ تأجَّجَتْ في داخلي انفعالاتي، بت أشعر بتأوهات غريبة، بت اليوم حظي الذي لا يركن على حجر.. كأنَّ القدر عصص في دروب المتاهة إلى الأبد.... في تلك اللحظة التي أنزوت بها كانت قد أجهشت على الفكرة الوليدة التي تخضبت بها تأملاتي، أراقت مشاعري خلف خيال ظلَّ دائر في أروقة المخ.. بحيث مع انزوائها وغيابها بت انفث الآهات والحسرات خلف تلك العجلة الزاحفة بالتواءات الطرق. هجست بأزيز النار خل مخائب الفؤاد، بان ذلك من الدخان الملفوظ كحسرات خلف انزواء طيفها...

ركنت جسدي على جدار حائط أحد المحلات تركت عينيَّ تنفذ نظرها خلف تلك العجلة، حتى خارت بين طيات الطرق وهي تختزل غورها الأخير. برحيلها طوئ سجل شعوذتي الأنية وجنوني الرعوي، جعلتني لا أصدق شذوذ نفسي المراهقة حين تخلت عن رزانتها وقياقتها بلحظة غفلة، بحيث تركت براءة مكلومة في أعماقي، وحسرة ناهدة في ملامح الوجه.

لم أكن أتوقع أن تكون في أعماقي طفولة غافية ومراهقة ملثمة بذاك الإغواء والاندفاع والشده، وأن تبرأ بالشيق واللهفة الماجنة. في واقع نفسي شكرت تلك المحبة التي أثارَت حفيظة الطفولة في داخلي وجعلتني أشعر بمراهقتي.. جميل أن يكون الشخص مراهقا في لحظات جنون عابرة، لحظات نادرة تحفز الذاكرة، وبالذات في الأوقات الحرجة من العمر.. كانت قد حضرت دون تخطيط مسبق بالذ الخطوب

وأشهى المذاق، بزغت كشعلة ود أنارت أروقتي المظلمة، تلك
التي نسيت معالمها زمنا، ولم أكن مكتشفا مخزون طاقتي
الداخلية من فسيولوجية الحب التي أمتلكها. لذا بقي تأثير تلك
الفاتنة يدور في فلك ذاتي كنور يحفزني لألهم غاييتي، بحيث
صرت أمني النفس أن اراها مرة ثانية.

4- تكرار اللقاء

على اية حال، بقيت تلك الفتاة تمثل نقطة تحول في حياتي وفي اختياراتاتي، حيث بظهورها قلبت موازين الرغبة في داخلي... لذا صرت أبحث عن مثيلة لها في وجوه النساء، أبحث عن الستر والرقي والنموذج الذي يجعلني أرتقى بذوقي وأشعر بقيمة ذاتي وألهب زغب مشاعري ومغرياتي، بحيث صرت أبحث عن شبيهة لها في الأزقة والشوارع والمتنزهات والأسواق المزدهمة كالمجنون، كأنها ب إطلالتها أوقدت فتائل الأمل بداخلي بعد أن تراخت وتناحت رغبتني في عملية الارتباط دون أن تكون لي قناعة بالفتاة.

تلك الفتاة أعطتني دافع جديد للأهتم بالغد، جعلتني أفكر أن ارتبط بمن لها وقع على القلب، بالحشمة والرزانة، بمن صقلت أخلاقها وأناقتهما وشرفها بقدر. تلك الفتاة حفزتني على البحث عن شاكلتها، ألهمت جوارحي وحظوظي الحلم لأرتقي برغباتي لمصاف قدرها وقامتها. صرت أمني النفس بها أو بمثيلة لها، لما وجدت في حجابها من حشمة وقدر يثلج القلب. كأنها بلبسها حركت ذوائب الرغبة الصادقة في الروح بعد ما خمدت طاقتها زمنا جراء تعسف الظرف وعدم قناعة الذات، بظهور تلك الآلهة في عالم الشك واليقين تطمأنت النفس، صار لها جذر أمل في الروح، بت أشعر بأن غيوم الشك تبددت من آفاق المستقبل. أضحى لي أمل أن ابقى في خطوط الحلم كفكرة.. أن أعترض على قارب الظرف كموجة لتغيير مسرى الطرق.

تلك الفتاة جعلتني أثني على إرادتي بالشكر والعزم على اهتمامها وتأثرها بالحالة، على ما طفق في داخلي من ثورة وعزيمة تجاه تلك النوعية من النساء، جعلت سنابل المشاعر الراكدة تتراقص في أعماقي مع موج السحر، هجست في ذاتي حيوية ورجولة وطاقة لا تنضب، أعادة لي ثقتي التامة بنفسي كشاب، كأنها أعادت ترتيب مكعبات أحجية شخصيتي بالترتيب الصحيح بعد أن بعثرتها الظروف القسرية.. من خلال المثابرة بدأت أشاور عقلي بالاسترسال والتمعن والتبخر في الطرقات بحثا عن ذلك اللغز الذي هز كياني وشغل بالي. أتمعن في بانوراما الوجود بحثا عن الذات والتضاريس الأنوثة التي تبرز جمالية الحياة، وكأنها حركت ذلك المد في النفس والذهن لأصف إلى جانب طابور العزاب متأملا تجديد صيغة الحياة بذاتي.. هكذا كسرت حاجز الروتين الذي كان قد أظلني زمنا طويلا، ذلك الذي أغشى الفكر وزوى بي خلف أسوار الحياة زمنا.

في اللحظة التي أجهدت ذاتي تلك المحجة؛ كنت قد فكت قيد العناء والوحدة عن معصمي، جلزت عني متاعب العزلة والفكر المتردي، منحتني طاقة صبر لأتخطى حدود الضعف والانكسار، ما أن دخلت جوارح النفس حتى أغاثتني بطاقة جياشة من العاطفة، كسرت مرآة ضعفي وقشطت لون الخجل من على الوجه والحدق، بت أنظر للأفق بعين الفؤاد وقوة البصر وصبر الأمل، بالتهذيب والتهيب والتمكن من المحيط الدائر حولي. بعد فتاة الكاظمية أضحت ذاتي أكثر رهافة وجرأة وحيوية، متحررة، تبحث عن قدرها بين عيون النساء،

تستطلع قدرها، تواجه الظرف الموارب، تجاري المواقف المحرجة، رغم احتمالية الفشل واردة في كل الأحوال، لكنها أصبحت من القوة بما فيها الكافية لمواجهة تحديات الظرف والغد الموارب.

كما أنني استيشرت خيرا بالتغير الطارئ الذي أصاب شخصي وبالتغيير المؤمل على مستوى النجاح والفلاح والإصرار والتحدي على تجاوز أزمة نفسية كانت قد أضرت بي، بثأواجه ذاتي وأحاسسها على نقاط الضعف والكسل التي صاحبتهما والتي كانت تنتابني وأتھيب منها.

في إطلالتها أمثلها بحمامة مهاجرة، حطت على وتد شجرتي لبرهة ثم طارت جذلة في عالم الذاكرة، لتبقى صورتها ماثلة في مخيلتي، تحفز ذاتي للبحث عنها أو عن مثيلة لها بين صحف الزمن.. بمكوئها القصير غيرت من شكل البهجة ولون الحياة في داخلي، جعلتني اشعر بغباء السلوك في تعاملتي مع عالم النساء، جزلت الدكنة عن الوان الحياة الغير متوافقة مع ظني وتأملي، جعلتها أكثر شفافية لتليق بمستوى الحلم والتأني والتفكير السلس الذي أبتغيه. بطلتها لانتي الشمس على مساء الصبر، وضعت دفء هوسي بصرة النساء، وضعتني على جادة الصواب لأرتقي الهدف..

لذا كانت فرحتي بها كبيرة جدا، بحيث جعلتني ألتمس ضفائر شخصيتي الحقيقية وذاتي الجديدة التي بزغت للحياة بشكل جدي أقوى مما كنت أتوقع، نزعنت عن ذاتي برقع الخجل، كأنها حضرت بالوقت المناسب لتضع النقط على الحروف،

قبل أن أتجاوز عتبة الثلاثين، قبل أن تنكسر مرآة الصبر،
لأنني أهجس بعد الثلاثين اتكبل بقيود العجز والخيبة
والعنوسة.. لقد حلت في وقت مناسب جداً، يسعفني على
تحدي العقد، حيث لازلتُ أرواح في منطقة الود والشبق،
لازال السراج يضيء منعطف من الطريق المُنحدر صوب
الأمل.

تلك الفتاة جعلتني أندب حظي الفقير آسفا عن ما فقدتُ من
سني العمر في دروب التخبط والكسل والوجل التي أرهقت
كياني، كأنها ببروزها المفاجئ حلت عقدة لساني وأشعلت فتيل
ذهني وغيّرت من نمط حياتي، فبت اسمع صوت النداء
الداخلي يقلقني، يحثني على المجازفة ومقارعة الزمن قبل أن
تفلت زمام الأمور من يدي، جعلتني انطق بالعجب أمام تلك
الحالة المرجوة والموصوفة بالخلج.

رغم ضياع الفرصة التي ذهبت ادراج الريح، إلا أنني بقيت
أتأمل بزوغ نجمها مرة أخرى في سماء القدر، في لوح
التفكير، في لون وجهي، لأستعيد بها عافيتي المريضة.
صرت أتأمل قسمتي تحظى بفتاة السوق العربي أو بفتاة سوق
الكاظمية، تلك التي أضمحلت بين ثواني الزمن قبل أن استعيد
انفاسي، أتأمل مثيلة لهن بذات العفة والحجاب لتحفظ كرامتي
وتصون شرفي وبيتي.

بطوبي سجل المحبة أكون قد عدت لحالة الروتين التي كنت
عليها قبل أن أقابلها، ولكن بشخصية جديدة، فذة، مع شيء من
الثقة بالنفس والحيوية في ساحة الفكر والقلب. عدت أعيش

حالة الجفاء والروتين الذي ملته تحت وقع جلد الصحراء مع بقاء الجفن مفتوحا باحثا عن الفرص، عن اليقين الذي ينقلني لكوكب الأحلام. فلم أدع تلك الوحدة اللعينة تأكل من لب الفكرة كما تشاء، لذا صرت أتأمل تلك الجميلة بمفاتيح النساء اللاتي أصادفهن في الطرق، وبالذات في الوجوه اللاتي يتبضعن الأدوية من الصيدلية التي أعمل بها.

لقد عدت لحالة العت والجذب، لحالة الشد والحل، لروتين الجمود والسكون، منشغلا بين عمل الصيدلية والمشفى التي أعمل فيها وبمحاسن تلك الجميلة، مسليا ذاتي بتلك الكوابيس التي تمرق على الفكر كعواصف ترابية تغشي فكري بالعناء والجدل، لتترك أثارا سلبية في النفس تذكرني بزمان العناد والفشل، مع تحرك خفي لستائر الفود والهوس والجنون خلف قضبان ذلك الروتين، وكأنني أتحرك على حد السيف خوفا من جلجلة الصخب المفاجئة، خوفا من فضيحة فشل جديدة....

هكذا بقيت متمسكا بالهدوء أشبه بحركة النسائم وهي تداعب ستائر النوافذ، أداعب الفكر المضطرب بصبر، براحة تحمل نزق الأمل والنجاح.

عدت أتسكع بين قنوط البيت وشعب العمل بشغف تغيير منهج الحياة برغبة ملحة، وإذا أنسل من طوق الروتين الممل لمسارب الجد والحلم. مع مرور الايام صارت الذاكرة تموه في ضباب النسيان، تختفي خف هالة تلك المحجبة، بعد أن افتقدت الأمل بلقائها أو بلقاء مثيلة لها... استمر الروتين على شاكلته لأشهر دون تغيير، حيث كانت حياتي مبرمجة بين

عمل المشفى الذي ينتهي في الثانية ظهرا وعمل الصيدلية التي تستمر من الرابعة حتى العاشرة مساء.... بعد مضي أشهر عدة على واقعة الكاظمية، وكان لا فتاة غيرها في الوجود تقنع فكري وفؤادي. حتى أنني تناسيت بهاء تلك الساحرة دون أن تهزني صدمة جديدة، دون أن أشعر بصيغة تغيير لحالة الصمت والفوضى التي ارهقت ذاتي. صرت أبحث عن الممكن الذي يشغل الفراغ في حياتي، عن الفرصة في جعب الحظ، عن سعادة تميد بعمر الشباب. أبحث عن أميرة تجلد عواطفي، لتعيد ترتيب أوراقى المكربة بفعل العزوبية.

هناك فترات حرجة في عمر الإنسان، بطبيعته يشعر بها بعد سن السابعة والعشرين من العمر، حين يشعر بأنه بدأ يفقد غرة شبابه، أو على وشك أن يفقد شعلة الألق المكنونة بين العقدين الثاني والثالث، وبالذات عند فئة الفتيات العازبات؛ حين يشعرنَّ بغمام العنس يظلل قدرهن. ذات الحال يسري على فئة الشباب بنسبة أقلّ منهنَّ، وخاصة إذا ما زحف الصلع مبكرا وبدأ يغير من شكل الملامح عند الشاب، حينها تتحول تلك الفترة لمرحلة هياج وقلق وتسرع، على الرغم من أن النضوج الذهني يرتقي سلم الثقة.

فترة يهجس بها يود أن يلتحق بركب المتزوجين قبل أن توشل سحابة الشباب مزنها. كأنه كبر على تحدي الزمن واصبح ضمن فئة العاجزين، أضحى شخصا مسلوب الإرادة، قابع على مشارف الاستسلام دون أن يحقق هدفه.. هكذا

يعشق ذاته بالعقد، فلن يستطيع مغادرة موضعه دون تغيير، وقد ينحرف عن أصل مساره حين يشعر بأنه قد أفنقذ جدواه وتركيزه في جذب من يحب.

في هذه الفترة يمر الإنسان بالحالة الحرجة، الغير مستقرة، التي تتسم بفيض احساس يكبل سعيه بالحيرة والقلق، فيتجه إلى اتخاذ قرارات سريعة، وخاصة لفئة الفتيات من الشابات اللاتي يشعرن بالضياح والعنوسة، حيث النصيب لا يخطر حظ الفتاة دائما.

فترة يكون بها الفرد مكبل بالرغبات والاحلام والطوق المادي، لذا تهجس به يدور في دوامة الصراع بين تلك الحلقات المفرغة، وكأنه يدور في فلك مبهم من الحقب الغير مؤكدة، في حلقات الفرصة الأخيرة المتاحة أمامه، عله يتجاوز بها أزمة غروب الوحدة والعزوبية. لذا فإنه ينشط في محيطه ليتدارك عقد الذات، ليعدل كفة الميزان، ليحظى بحياة مستقرة.

كما أن حالة التفكير وقدرات الإنسان تختلف من شخص لآخر، وذلك يتبع البيئة والثقافة والمادة والعوامل الخارجية الأخرى المؤثرة في إرادة الفرد. لا أعرف مدى قدرات الفرد على الصلابة والصمود أمام صرخة الشباب الكامنة في داخله، تلك العابثة بجدران قلبه. ولكن مهما كانت الفروقات حاضرة بين الأفراد، فهي لا تتجاوز حدود الجراءة والمادة والقياس الذهني والثقافي والثقة بالنفس على تجاوز خط الخجل، ليتمكن من بناء الأسرة.

أمام ذلك الطوفان وطوق الهواجس بت أبحث بالممكن عن مثيلة لفتاة الكاظمية بين خواتم الذهب والأحجار الكريمة المرصعة بصفة الحسن والأخلاق من النسوة اللاتي بت أشغل بالي بهن، ابحث عن فتاة مستنسخة عن فتاة الكاظمية لتنتقلني لجو السعادة وراحة البال، عن من تطفئ مجسات الشره والحسرة في العين الضامئة. أتمعن في الشوارع وفي الحارات التي أمر بها، أترصد عيون الزبونات الجدد اللاتي يؤمنن الصيدلية التي أعمل بها، علني أجد مبتغاي بين لدانة تلك الوجوه المارقة.

يقينا لن أجد لها مثيلة، لكنني لن أقنط قط أمام فيض الفؤاد وصمته، حيث دائما بالسعي يجد الإنسان غايته، لذا لم انكاسل. كنت أأمل النفس وأمنيها بالممكن، فبت أبحث عن وصيفة لها بين منتجعات العذارى اللاتي يأمنن الحقائق العامة والأسواق العامرة، أبحث عن القطة التي خربشت وجه أحلامي.

... بعد مرور شهرين على واقعة الكاظمية أنقطع سبيل الأمل، صار للحلم رائحة نتنة، بت أشمها بنفسي، فالفتاة التي استحوذت على الذهن لم تعد لها وجود حقيقي في الكون. أضحى الحديث عنها ذا شجون يشده الفكر. بات القلب يناكف العقل بوجودها من عدمها، في جدل عرفي وعاطفي لا يستند على قواعد ملموسة سوى على ظن خائب، حيث تلك الوقائع صعب تكرر مشاهدها بذات الإغواء والألق. الأمل بإيجاد ضالتي بات ضعيفا، مكبول بالسر وشكل اللباس والعفة

والطهارة والقوام الممشوق، من تملك تلك المواصفات لا يمكن أن تشذ عن قاعدة الدين قط، ولا يمكن أن تكون وحيدة عصرها أبداً، فاللباس لباس إسلامي تقليدي شائع، ولا بد من إيجاد وصيفة بذات الشياكة والشاكلة.

هكذا مضت الأيام بين أضلع الرغبة وأنا أمني النفس أن التقي بفتاة الكاظمية دون أن تجهض الايام برغبتني وادا أن أعبر لها بصراحة عما مكمون في قلبي ونيتي وشغفي بها، عليّ أبين لها مشاعري الجياشة تجاهها، عليّ أضع طرف القيد في معصمها، أن أكبلها برغبتني.

بقيت متحزماً بتلك الأحلام السادرة، وما هيّ سوى أيام حتى تكررت الحالة بشكل غريب وغير متوقع أمام دارنا وفي زقاق محلتنا، وكأن الله قد سمع نداء القلب، كأنّ الرحمن أحس بعذاباتي فرفأ بحالي. حيث لان المستحيل الذي كنت أبحث عنه في الشوارع والحدائق العامة والأسواق، وجدته يتخور بالقرب مني. صار هينا، قريبا، وشيكا، حميما، أقرب من حبل الوريد إليّ. ذلك المستحيل الذي كنت اتأمله قد أحيا وصلي المنقطع وألغى حالة اليأس والتسكع في داخلي، غدت المزحة حقيقة والشك يقين، كلهفة شمس الصبح الجميلة إلى زهور الرياض.

لقد تكررت الحالة من جديد، كأنها ولدت الحالة ولادة قيصرية بذات الشكل والوصف الذي وجدتها في سوق الكاظمية، ولدت من رحم المستحيل وعلى حين غفلة من أمري. حضرت بذات الهيئة والأناقة والطاقة. بعد أن تكررت الواقعة في زقاقنا،

انفلقت صرة الصدفة فانبثقت الأضواء تعلن عن بزوغ شمس حياة جديد بكفي. بان ذلك حين سطا نور قامتها على مرافق القلب والحدق وهي تمور بخفة الغزالة وبرهبة اللبوة في زقاق محلتنا الملبدة بالهدوء والسكينة، ومن أمام باب دارنا، وكأنها حلت لتلغي قيود الشك والضعف والهوان من على لائحة الفرص التي لازمتني وأنا أتبع خيط الحلم في عالم الحب. بزغت بشكل طارئ بحيث لم تدع مجالا للشك قط، كأنها وصفة ولدت من رتق العناء الذي كنت أعاني منه، فاستهامت بنورها بلسم لجوارحي، هكذا صارت تدور في فضاء فكري كقمر تنير أعماقي مبهجة مجالات النفس، اضفت على الفؤاد فرحة عارمة.

من خلال اطلالتها بت أنفاس الصعداء، أقحمت ذاتي في معترك الإرهاصات من جديد، وبزخم يفوق زخم ما مضى، وبعزم تجاوز حالة الضعف والانكسار التي كنت عليها، وبقوة جزلت الروتين عن واقع أمري، سالكا طرق جديدة للوصول لبر الأمان.

ما أن تجددت الواقعة في مجال الروح والقلب؛ حتى تحررت الرغبة عن قيودها، لأسألك الحالة العبيثة كيفما تنتهي الموجة على شاطئها الصخري. أنتشت نفسي، تجردت من تخطيطاتي وهواني، استنفقت على وقع جلجلة صبح جميل يحمل في طياته أمل بتغريد العنادل، بعد أن كنت قد أدركت حدود اليأس ونسيان الفكرة التي تسطرت على ذهني.

هجست بأن الحظ طاور رغبتني في ساعات الصبح المبكرة لحظة خروجي من البيت متوجها لعملي في المشفى؛ لتبرز شمس الفاتنة على زقاق محلتنا بذات السحنة والقامة والمنظر والقياس التي رأيته في سوق الكاظمية، وكأنها نسخة كربونية طبق الأصل عن فتاة الكاظمية، ارتعشت أوصالي، تلبكت، ربما هي ذاتها بكامل قوامها جانحة لحوض زقاقنا. حتما سمعت نداء القلب فجاءت تلهب الرغبة وتوقد النية في داخلي من جديد.. عندها التقت عيناى بعينيها، بشكل من أشكال العصف والانبهار بالصدفة، وبنوع من الاستهجان والاستفسار أو ما شابه ذلك من غبطة. كانت ترتدي ذات الثياب والحجاب والنقاب وهي تسبر الدرب بذات الخطوب وبثلك الرشاقة التي كانت قد جلدتني بها وجذبتني إليها.

لكن هذه المرة بزغت كبرعم من فج طيننا، من بطن الزقاق الذي أسكن فيه، تمشي الهوينا متجهة لمراب العجلات، بحيث باتت تميل جدران الزقاق مع رقة خطواتها، مضيئة سكيئة تامة على الأجواء، ناثرة الحبق خلفها بخطوات قدميها اللئيمة.

كانت تمشي برفقة الصمت والسكون، كأنها تعول على الصمت بتحمل أعباء جلجلة فتنتها النافذة. أهجس بها وهي تجلي الصباح بفتنتها كأنها تناغي الشمس مع هديل الأطيوار، تداعب الصبح، تناغمه، تهمس له بالندى والشبق المباح على ثناياها، وكأن لتنهدياتها الوجلة لتعة تجدد عذابات أمس، بحيث باتت تراق المناكفات على ثنايا الجسد كطاقة من الجاذبية، كلحن يعزف مع ميلان الجسد وهي تتبع خطواتها.

كانت خلجة في مشيبيها، تتراقص مع الود القابع في محيطها، مع دفق الفتن الناهدة في الورك والصدر والأرداف، أهجس بها كشعلة وضاءة تخترق ظلمة أنفاس من يتمعن بها.

بت أحسد تلك الجدران وأنا أرى خيال الظل يرتمي بأحضانها بشيء من النزق والوله. ترى بما كانت تفكر؟ ما الذي أوجهها لتدخل محلتي؟ أم تناصت الأهواء فاستشطت الهواجس فتلاقت النبضات، فحلت عقد الاستحالة بين قلوبنا. أهجس بخطواتها فيها شيء من الحرج وهي تحاول تجنب سهام العيون الشرهة. أهجس بالحيطان تتلصص على البهاء المكنون في حسن قامتها، يقينا أنها حركت الحيطان عن ذلك الجمود المكنون فيها، فبانة أكثر زهو وإشراقاً بمرور الظل عليها.

.. تأملتها أن تقف بجواري، أن تسند رأسها على كتفي، أن تنام كطفلة بأحضانني، أن أحتفل بها مثل تلك الحيطان التي تشعشعت فيها سفائف قرميدها باللمعة والرطوبة، تأملت أن أمسد شعرها بأنامل الحنين.

بمشيتها كانت تنثر الطهر والعفاف خلفها كعصف غبار من العبق المنثور عليها، لتمنح ذاتها صفة الملكة، أو النجمة المبرقة كنجمة الصبح وهي تهادن العتمة، لتمنع عن ذاتها لسعات الثعابين التي تتبعها- لذا فضلت مراقبتها وتتبعها عن طيب خاطر دون أن أقترب من حدود النار، كي لا احترق كفراشة النور، كي لا أفسد فاكهة الموسم قبل النضوج.

.. كانت قد خرجت من باطن الزقاق بثقة مفرطة، حتما لها جذر من المعرفة فيه، وخوفا من أن ينعكس السلوك العبثي الشاذ بالسلب على قامتي وشخصيتي وعلى سمعتها، لذا تجنبت معاكستها ومحادثتها والتحرش بها علنا خلال الطريق.

وأنا في قمة ضعفي وهواني كنت أنظر للمستحيل يتحرك أمامي كدمية جذابة ممكن أن أمتلكها، وهي كذلك أضحت أمنية أرفقتها بجدول أعمالي وبحظي وبحالي وبيقيني..

كنت في قمة الحذر وأنا في سفر تخبطي واهتزازي حين قررت أن أكون ظل لها، تبعتها، لم أدعها تفل عن ناظري قيد أنملة. تصرفت بتريث وحرص شديدين، أجملت المساعي التي وددت أن أقوم بها آنفا بالصبر، خوفا من أن تكون إحدى بنات محلتنا، أو قريبة لأحد من الجيرة.

لم أستطع الجري خلفها بعيدا كوني ملتزم بوظيفتي المعتادة في المشفى، فلا بد من مراعاة مصدر الرزق والحفاظ عليه، لذا لم أود أن أجازف بالتأخر عن باب الرزق في الوقت الذي به لا أود أن أحيدها عنها قيد شعرة. تبعتها لغاية حدود المرأب، حينها أنقطع الوصل بيننا بعد أن ذهبت باتجاه معاكس لمسرى طريقي، وذلك بعد أن ركبت عجلة تاكسي ذاهبة لجهة ما مجهولة...

راقبتها حتى وطئت العجلة، حتى زاغت بها في تعرجات الطرق. يقينا أنها شعرت بي أتبع خطواتها كشيطان أو تابع ظلها، سرّت خلفها كـ أسير مكبل بخيوط فتنتها. يقينا أني

أرهبتهأ، ربما سعدةً بلجأأأ، بأأأأأ. لكنأ فأ قرارة نفسأ
أأأأ من أنأ لأأأ أأأأأأأ أأأأ، أهأأ بأأأأ أأ
أأأأ أأأأأ أأأأأ فأ أأأأأ أأأأأ، فلاأأ أن أأأأأ مع
أأأأ أأأأ وأأأأ. أأأ أأأأأأأأأ من الوأأأ لأأ
أأأأ أم أأأ، لأنأأ أأأأ أأأأأ أأأأأ.

الفصل الثاني

1- مريم - 2008

في هذه الفترة كانت شقيقتي الصغرى مريم قد تزوجت بعمر ثمانية عشرة سنة من أبن خالتي الاستاذ عامر مدرس اللغة الانجليزية، وكان قد مضى على زواجها عدة أشهر، حينها كنت بسن الثامنة والعشرين من العمر، حيث تصغرنى مريم بعشرة سنوات.

في زيارتها الأخيرة لدارنا سألتها عن أصل تلك الفتاة المحببة أن كانت لها فكرة أو دراية عن فتيات زقاقنا، ترى من تكون تلك الفتاة المحببة التي خرجت من الزقاق بلبسها الأنيق؟ من تكون تلك الآية؟ كأني كبرت على أبناء محلتنا وبالذات الفتيات منهن، تناسيت اسمائهن واشكالهن! وكأنَّ الأجواء والأضواء توسعت مجالاتها واتسعت معالمها مع ظلال عمري. هكذا هجست قد تعقدت الأمور وتغير كل شيء مع الظرف القاسي، لذا الكل انشغل بذاته وابتعد عن الحالة الاجتماعية التي كانت سائدة قبل الحصار والحروب التي سبقتها. كأنَّ انزوائي وابتعادي عن أجواء المحلة لفترة طويلة بسبب انشغالي بالدراسة الجامعة وعمل الصيدلية، ثم انشغلت بالمشفى بعد التعيين، كل ذاك أخذ جُل وقتي واهتمامي، فتناسيت دائرة الأضواء وكبرت الاشكال وتغيرت الظنون. البحث عن الرزق حال بيننا لضعف اهتمامي بالأمور الثانوية. فشسعت المسافة بيني وبين أبناء الجيرة، فنسيت اشكالهم وصورهم.. أهجس بذاتي ليست لها دراية تامة ومعرفة حقيقية بكم التطورات الحاصلة والتشعبات التي

حصلت وتجذرت وتوالت وتولدت في حيننا، كأني لم أعش في ذلك الزقاق عمري المنصرم.

في الحقيقة بت لا أعرف شيئاً عن أصول ساكني الحي بسبب التغير الديمغرافي الذي شمل الوطن نتيجة تغير الأوضاع والحالة الحرجة التي شغلت الناس بشكل عام، حيث هاجر من هاجر وانتقل البعض طلباً للرزق فتغيرت الوجوه والثقافات علينا، خاصة كنت قد انشغلت في تلك الفترة بأموري الشخصية والوظيفة التي واكبت عليها... الخ من تقلبات لاحت أحوالي. أهجس بأن الوجوه قد تبدلت، فمن كبر كبر وتغيرت ملامح وجهه ومن رحل رحل وتناسيت قوامه وشكله وهكذا دواليك. وهناك من حل ضيفاً جديداً على الحي، وهناك من ودعنا وغار في المجهول، وهناك من هاجر دون عودة.

ومع تغير أحوال الناس كان قد تغيرت سلوكياتهم، انشغلوا في متاعب الدنيا ومشاكلها أكثر مما تبعوا من أمور الآخرة، صار الجار لا يسأل عن جاره إلا في الأعراس والمآتم. منذ سنوات الحصار وعقد الحروب ومشاكلها الثانوية بدأت تطرأ بين الأسر وفي المجتمع وعلى حين غفلة ودون تهيئة لمواجهة. أصبح الحي كأنه غريب عن ابنائه، أهجس به قد تغير شكله بعد أن هاجر قسم كبير من أبنائه خارج حدود الوطن هرباً من الحصار الجائر ثم الاحتلال، إضافة إلى أن الوجوه الصغيرة تتغير معالمها عندما تكبر، فلا أنسى هادي ابن جارنا المرحوم عباس جار الله حين التقى بي في المرأب

ودفع أجرة العجلة نيابة عني دون أن أعرف من يكون، حينها
سألته باستغراب!....

- ترى من تكون يا فتى؟
- أنا هادي ابن جاركم عباس جارالله.....

كنت قد تركته طفلاً قبل عشرة سنوات تقريباً... ثم الصيدلية
التي أعمل بها بعيدة عن هنا، تقع في منطقة الأعظمية، فيما
كنا نسكن في أزقة منطقة الحرية، تلك المسافة كانت كافية من
أن تنسيني الوجوه والأسماء مع توالي عقد الزمن وتوالي
سنين الروتين.....

المهم أجابتنى كريمتي مريم باستغراب عن طرح سؤالتي،
وكانها رغبت بتلطيف الجو وإضفاء شيء من البسمة والمرح
والمداعبة والمزحة على الأجواء، فسألت باستغراب!.....

- لِمَ يا صلاح؟ سؤالك غريب، ليس من عادتك طرح
مثل هذه الأسئلة... بماذا تفكر؟...من التي شاغلت بالك
وأنت ذلك العصامي الذي لا يعجبه العجب؟ من
سُرقت فكرك وقلبك، دعني أشكرها وأهنئها على
جبروتها؟... ماذا يخطر في بالك؟...أفصح لي عن
مكنونك فأنا أختك.

- لا أكتمك السر، قبل أيام رأيت فتاة محجبة في سوق
الكاظمية اعجبني زيوها، وقبل يومين وكأن ذات الفتاة
خرجت من زقاقنا بذات الحجاب والطلّة، رشيقة
القوام، هادئة المعالم... وقد دخلت مزاجي بقوة، على

الرغم من أن الحجاب كان قد غطى كامل جسدها، منع عني مباهاج الفتن والرقعة ولون البشرة وسحر الجمال، منعني من أن أستمتع بما تحت الخمار من نضارة وألق، جعلتني أعيش خيالا بخيال. هياتها وأناقته تذل على أنها تخفي تحت الحجاب كنزا لا يستهان به.

- فهمت...مبروك...لقد فزت بها!!!!!!

أنشرح وجهي بالفرح، طغت ابتسامة عريضة على محياي مستفسرا فزت بماذا؟..

- ماذا؟... ماذا تقصدين يا مريم؟ من هي؟ بالله خبريني ماذا تقصدين؟

- قلت لك مبروك لقد فزت بها إلا تفهم؟

- وهل أنت قلت شيئا لأفهم!! قللي من هي؟ من تكون تلك الفتاة؟ هل أعرفها؟

- أكيد تعرفها..... على حسب معلوماتي البسيطة والدقيقة، لا توجد فتاة محجبة في محلتي غير هبة صديقتي أبنة السيد علي!... وتلك الأوصاف تنطبق عليها تماما، وأنت تعرفها جيدا ومطلع على شكلها وجمالها.

- يا الله..... كيف ذهبت عن بالي؟ فعلا أنها آية من السحر والجمال، لقد نسيته يا مريم، كانت صغيرة عندما كانت تزورنا في البيت، ثم اختفت على حين غفلة.

حينها خطر في بالي تفاصيل شكلها الجذاب المنمق، فأرشقت مشاعري بعصف سحرها المعنى، بللتني بندى النشوى، نغزتني بذكرها، تكهرب جسدي، سرت قشعريرة بناحل الجسد كشحنة كهربائية، أخذني التيه لعالم الوله والخيال، هجست بروحي تهفو بين الذكريات كقشة هفتت بها الريح بين اشواك الهوى، مضت تهفو بين متاهات الحلم وسدمه، مبحرا في تفاصيل وجهها المغربي، بشفتيها المكورتين من صدف العقيق، وضميرتي شعرها الأصهب المكنزتين بخيوط من الكهرب، ولون عينيها الفيروزييتين المسروقتين من موج البحر....يا.. كيف لم أفكر بها طوال تلك الفترة من العمر، أنها فترة طويلة تقارب عشرة سنين من العمر قضت، حين رأيت وجهها الصبوح آخر مرة.

- هيه... يا أخينا حيلك حيلك... أين سرحت؟
- يا.. يا مريم... هل أنت متأكدة؟ اتدريين كم صار لي لم أرى ذلك الوجه الجميل.
- كم؟
- قرابة عشرة سنوات، عندها كانت طفلة، أكيد كبرت وصارت أجمل وأفتن...
- أكيد، أنها أجمل ما رأت عيني.. لكن ماذا جرى لك؟ ما بك تتلعثم وكأنها شلت لسانك؟ أركز.
- هيا أسعفيني يا أختاه... ما هي أخبارها، ما طبعها؟ هل تغيرت كما تغيرنا؟ هل لازالت محتفظة برونقها وفتنتها؟ هل تزوجت؟ هلالخ.

كَمْ من الأسئلة صبّتها في حضنها.

- ألم أقل لك فزت بها! أي زواج، لا لا أطمأن.. لم تتزوج! لقد تقدم لها عرسان كُثر وبشتى الوظائف، لكنها رفضتهم جميعاً، فمنهم الطبيب والمهندس والمدرس ووووالخ... كانت قد أكملت معهد المعلمات، وتعينت بصفة معلمة في قصبات بغداد.
- شكرا لك يا أختاه.

نطقت بتلك الجملة والبسمة منشرحة على وجهي... رحلت في تيه سحرها أبحث عن شعرة تقودني لفؤادها، في ذات الوقت صرت أفكر بها وبكلام مريم ليل نهار...

ولكن يا صلاح: أصحى! من تكون لتقبل بك؟ تقول مريم بأنها رفضت كم من العرسان، الطبيب والمهندس والمدرس وووو.. الخ، فمن تكون لترضى بك؟...

راودني ذاك السؤال على عجالة من أمري، سرق البسمة من على شفتي، أشعرتني بالتيه والضياع مرة أخرى، كأني موعود بتلك القسمة المرة والعذاب النفسي والفشل.

ولكن القسمة ملعونة وخبيثة يا صلاح، تذكر أنها تأتي من حيث لا يدرك المرء سره، أنها أشبه بسيل الوديان حين تحل، تأتي على حين غفلة، تجرف وتكش كل مخلفات الماضي وما يصادفها من عوالق وما يبني عليها، تليف القلب والذهن بآيات إلهية لا يدركها الشخص، لا تفكر في ذلك، تمسك في النية

قبل المنية، أدعك ذاك بالطيب والرجاء حتى يحين قدوم الموعد.

حينها عادت البسمة مرة أخرى تتسطر على وجهي وتستطير في مخيلتي، فأخذت مريم بالحضن على غفلة من أمرها، طبعت قبلة على خدها، ثم تركتها تعوم في ذهول واستغراب في بحر الظن، كأنني رسمت على وجهها هيكل ولعي وغرامي بهبة، دلفت في مشاعري وسرجت الباب بصمت، تركتها تتمتع بوجهي باستغراب وأنا أشكرها على أخبارها الجميلة، في الوقت الذي به قدمت لها إشارة رضا ورغبة ملحة من عواظي بمواصلتها.

بانَ تصرفي العفوي واضحا تماما عليها، لا تحتاج لتفسير كي تبدي مرونة في مساعدتي للوصول لمرفئها، مما حدا بها أن تستكشف المضمون دون الحاجة لطرح أسئلة إضافية، أنما ابتسمت لي قائلة:...

- على بركة الله....

مضيت على عهد الود دون تخطيط دال على خطب رغبتني الأكيدة بالاقتران بها، لقد فهمت المقصد، أغدقتني بابتسامة هادئة من وجهها الجميل، مما جعلت الانشراح يطفح على محياي.

بتدليلي بأخبار هبة كأنها زرعت في ذهني بذرة الحلم من جديد، تلك التي تناسيتها، أو تخليت عن متابعتها فيما سبق لأسباب خارجة عن إرادتي، كان قد عاث الظرف المواردب

في مجريات حياتي بالقسر والزيف لتلك الفترة من الزمن؛
حتى طفح الخلل في شواهد الظن، فأنساني أمور جمّة مما
سعرت عليّ دروب الحياة.

من خلال مريم شعرت بأن الله لم يتركني وحيدا أقارع دروب
الأمل، بل منحني قوة لجز اليأس بمعول الصبر والقنوط،
وكأنني بها أقترّب من نيل الحلم وأقترّب من الدخول إلى فج
الحقيقة بعد أن كانت العقد قد سلّنت الفكرة من قبضة اليد بفعل
الغفلة. كانت مريم قد أعادت الأمور لمكانتها، جعلتها في
قبضة يد الأنا الحالمة، اسكنتها خواطري. حينها أحسست
بالنشوة والتؤدة في سري، بمعرفتها زدت سحرا وجمالا
ورغبة في مواصلة الحياة.

صرتُ أترقب وصلها كل صباح وأنا صاغرا لسوط العذاب
وهو يطرق أحاسيسي بغل، صرت أتأملها من لحظة خروجها
لعملها لغاية عودتها منه، أراقبها عن كثب دون أن أدعها
تدرك مخاض عصفي وثورة جنوني بها، كي لا تفلت زمام
الأمور من قبضة يدي. صرت أتبعها بوجس، كي لا أفسد
فاكهة الموسم، كي لا تغبر الأجواء.

عولت على أن أسير خلف هوسي بها، مائلا لضفة الشوق،
وكأنني بها طير يبحث عن وكره، أسير برفقة الصباية ونار
الجوى دون أن أستشعر ببراكينه الحارقة، تلك التي بات
يتسرب دخانها من ثنايا الوجد والعيون النافقة، تلك التي
صرت أقرأ بها طلعي في خطوط يدي المتشعبة وهي تخفق
في ضفاف سحرها الفتان.

أضحت الأهواء تنسكب كقطران الشهد على قوام جسدها البان
من محاجر عينيّ اللوحة، مضت الروح تخفق خلفها بعزف
الآهات.. هكذا أضحت معالمي واضحة للعيان ولكل من يدقق
النظر في ملامح وجهي، كأني أصبت بمس الجنون والشبق،
بت أجرد الوجد برهف الوجدان؛ محاولاً أن أكف عن تتبعها
دون أن أتمكن من صد هيافتي وشكم عنادي.

كنتُ قد قيدتُ لحظة خروجي من البيت بزمن خروجها،
حفظت موعد طلعتها ورجوعها، حيث دارهم تقع ضمن
الزقاق الذي نسكن فيه، تلي دارنا بمئة متر تقريباً، قياساً إلى
ناحية الشارع العام.

كانت قد تحجبت تماماً من رأسها لأخمص قدميها، بفعل
الظرف الذي تعيش تحت وقعها، بسبب تقلب أوضاع الوطن
من جهة ومكانة والدها في المجتمع من جهة أخرى، حيث
أبوها هو السيد علي أمام مسجد الحي الذي نقطن فيه.. لمكانته
المرموقة في المجتمع وقديسيته المعروفة وباعه الطويل في
أمور الدين، كان قد ألبسها جلباب فكره ويقينه، فباتت بهيئتها
التي تعودت عليه منذ صغر سنّها.

منذ ذلك اليوم دخل الإيمان قلبي، فبت أذهب للمسجد بأوقات
الصلاة، محاولاً التقرب من السيد علي والدهبة، " فلأجل
عين ألف عين تكرم" محاولاً التقرب منه والسلام عليه،
وتعريفه بذاتي وتنبيهه بأني أبن أحد أصدقائه ومن معارف
الجيرة وأني من المؤمنين والمواظبين على الصلاة.

في البداية كانت الحالة مجرد نزوة أود أن أصل بمرواحي لضفة والدها، أملا أن أدرك من خلاله ضفاف هبة... ولكن مع مرور الأيام تغيرت الفكرة وتبدل الفكر، فتشعبت في أصول الدين وفقهه، بت أواظب على الصلاة في مواعيدها متوخيا التقرب إلى الله، متأملا في ذات الوقت تحقيق مرادي بهبة، باغيا شذرة الإيمان والنعمة والرضا، منبهرا بضياء الإيمان الذي كنت غافلا عنه على الرغم من تأثري المسبق بأفكار الصوفية كما أشرت. معيرا ذاتي فكر السلفية الذي كنت قد تطرقت لمبادئها وسراطها فيما سبق.

في الحقيقة لم أكن صوفيا أبدا في سلوكي، لأن التصوف في نظري هو التعبد بطريقة لم تأتي بها الشريعة، فيغلب على المتصوفة البدع، لكنني كنت أقرب إلى الزاهد من المتصوف الذي يحرص على تفرغ المؤمن للعبادة والزهد في الدنيا، مبتعدا عن الموبقات والاعتلالات، متأملا الآخرة. في الحقيقة كنت سلفيا وما زلت، فالسلفية تعني سلوك مسلك السلف الصالح والسير على نهجهم في العبادة، فيأخذ بالدليل ويؤمن بآيات الله وأسمائه وصفاته. رغم تأثري لكنني كنت غير ملتزما التزاما تقويميا بالصلاة وأركان الدين لأكون بصف السلف الصالح.

بتقربي من السيد علي اكتشفت حجم الطيبة والأخلاق المتمثلة به، فأحبيته من كل قلبي.. لم أكن أتصور يوما بأن الصلاة ستلازمني كظلي، أو أنا الذي سألازمها كعملي ونومي ويقظتي ومأكلي ومشربي، لم أكن ملتزما بالصلاة سوى في

أيام الجمع كحال معظم الشبان.. ما أن ترسخ مفهوم الدين في ذهني ما أن راغ قدسيته في قلبي حتى أصبحت أكثر هدوء وسكينة، أكثر رزانة وصبرا مما كنت عليه، أكثر رحمة وصدقة وحكمة وصدقا. لقد فعلت الصلاة فعلتها، دخلت في أعماق الروح كركيزة، صارت تخيرني بين مدخل الشر والخير، بين اختيار الصالح أو الطالح، أنها النعمة التي لا يدرك أهميتها إلا من دخل في خضمها وهضم معانيها.

وفي إحدى المرات سايرت والدها، رافقته خلال عودتي من المسجد للبيت، محاولا الاستفسار منه عن بعض أمور الفقه والتنوير والعقيدة، محاولا التوسع بأمر العلم بما تنأى عنا من مفاهيم الشريعة، واستبيان الغموض في بعض الجوانب وأصولها. كنت أمضي معه على سراط الود بحكم أنه والد هبة، وعلى سراط الإيمان، كونه المتخصص بالدين بحكم مكانته وإمامته، فاكشفت فيه كنزا من العلم ومنهلا من المعرفة وغنا من الأصول والفقه والتوحيد.

وقد اسهب في حديثه معي طويلا، ففي مجال العقيدة تطرق إلى شمولية الإسلام قائلا:....

1- أن أساس فقه الإسلام هو الوحي الإلهي.....

- يتميز الفقه بأن مصدره هو وحي من الله تعالى تمثل في كتاب القرآن وأحاديث السنة النبوية. كل مجتهدٍ مقيدٌ في استنباط أحكام الشريعة من نصوص هذين المصدرين، وما يتفرع عنهما، أو ما ترشده إليه روح الشريعة ومقاصدها

العامة وقواعدها الكلية... فالتوسع جائز بما يناسب العقل والمجتمع، وخاصة في مجال التفسير. فالفقه بذلك كان كامل النشأة، سوي البنية، وطيد الأركان لاكتمال مقاصده وإتمام قواعده وإرساء أصوله في زمن الرسالة وفي فترة الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم، وقد تم التوسع في مجال التفسير بعد أن توسعت حدود الإسلام.

قال تعالى: " اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً " صدق الله العظيم.

ولم يبق بعدئذ إلا التطبيق العملي وفق المصالح البشرية التي تنسجم مع مقاصد الشريعة.

2 - شموله كل متطلبات الحياة:

- يمتاز الفقه الإسلامي بأنه يتناول علاقات الإنسان الثلاث: (علاقته بربه، وعلاقته بنفسه، وعلاقته بمجتمعه)، لأنه صالح لكل زمان ومكان وعام للبشرية وخالد إلى يوم القيامة، فأحكامه كلها تتأزر فيها العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملة لتحقيق يقظة الضمير، والشعور بالواجب تحت مراقبة الله تعالى في السر والعلن. كما أن احترام الحقوق غاية الرضا والطمأنينة، والإيمان والسعادة، والاستقرار، وتنظيم الحياة الخاصة والعامة وإسعاد الناس.

ومن أجل تلك الغاية: كانت الأحكام العملية التي تتعلق بما يصدر عن المكلف بها من أقوال وأفعال وعقود وتصرفات، كانت شاملة لنوعين من الأحكام:

- الأول: أحكام العبادات من طهارة وصلاة وصيام وحج وزكاة ونذر ويمين، ونحو ذلك مما يقصد به تنظيم علاقة الإنسان بربه.

- الثاني: أحكام المعاملات من عقود وتصرفات وعقوبات وجنايات وضمانات وغيرها مما يقصد به تنظيم علاقات الناس بعضهم ببعض، سواء كانوا أفراداً أم جماعات، وهذه الأحكام تنفرع إلى.....

أ- الأحكام التي تسمى حديثاً بالأحوال الشخصية.

ب- أحكام مدنية.

ج- أحكام جنائية.

هـ- أحكام دستورية.

ز- الأحكام الاقتصادية والمالية.

ح- أحكام الأخلاق والآداب.

وكان سبب اتساع الفقه هو ما جاء في السنة النبوية من أحاديث شملت كل باب من هذه الأبواب.... الخ.

لقد أغناني بالمعرفة الحقيقية التي بت أشعر بأني بحاجة لها، لأنها تعتبر من عناصر بناء شخصية الفرد، والتي لا ألام على فقدانها في ظل ظرف مريـر قيدنا وغطى على مشاعرنا

وهواجسنا وطقوسنا وطاقاتنا، بحيث جلدنا الخوف ولاحتقتنا الفاقة هنا وهناك لفترة طويلة من الزمن، حيث تمكن الغاصب من شج وحدة صفوف العراقيين على حساب طوائفنا، ولم يكتفي بذلك؛ بل زاد في غله في تعميق الهوة بيننا من خلال فرض صراع دائم بدعم الأطراف على حساب أخرى لتتقاتل فيما بينها وتتب التفرقة إلى الأبد.

على أية حال أصبحت أحد مراودي المسجد الذي يئمه السيد علي، لغرض ملازمته والاستسقاء من منهله العلمي وأتباع خطبه في أيام الجمع. بذلك أكون قد نلت أستحسانه وتقدمت خطوة نحو هدفي في الوقت الذي به عمدت ذاتي بإيمان يزيدني صلابة وخشونة في مواجهة عقوق الحياة ومهازلها. كنت ماشيا بتخطيط محكم لأجني الفائدة العلمية والنفسية على حد سواء..

في إحدى المرات خلال لقائي به سألني بغرابة، وهي الغاية التي كنت أبحث عنها من خلال تقربي منه، أراد أن يتعرف على شخصيتي التي أراها قد تدمرت وتلطخت بسموم الشوق لأبنته هبة، فما عادت تستقيم دون علاج ناجع.

- أراك ابن حيينا يا رجل...من أنت وأبن من يا بني؟
- يا عم أنا ابن جارك القديم...أنا صلاح ابن سعيد النجار.
- الله يرحمه، ما شاء الله، كبرت وكبرنا وضاعت علينا الحسبة والمعرفة، أنا سعيد بك، أرجو أن تستمر بمواضبتك، وورعك، وتقائك، التزامك الديني يحفظك

من الزلق، كما لا ينفعك في دنياك شيء غيره. وأنا
معجب بك وبشبابك الطيب.

- سألتزم يا عم بأذنه تعالى وهداه؛ أنا بحاجة لرصيد
ديني أشد به وثاقي أمام الله وعصف الزمن، بحاجة
لترسيخ القيم بعد أن هبت علينا سموم التغيير الغربية
على عاداتنا وتقاليدنا وأخلاقنا، قيمنا هيَّ حصانتنا،
لا بد من الاعتناء بالنفس والمحافظة عليها، وديننا
عظيم يقينا الزلات ويقوم أخلاقنا.
- أحسنت وبارك الله بك.

ثم ودعته وهو مسرور بي مثلما سررت بلقائه، شعرت بذلك
من خلال علامات الفرح الظافرة بين عيني، سعدت كثيرا
بتعرفه على شخصي.

بتعرفه عليّ كنت قد اختصرت طريق الوصول لغايتي التي
انشدها. التفكير بأبنته هبة أخذ جل وقتي، هرس طاقتي
وقدراتي في بوتقة حسناتها وحشمتها وجمالها، لم أعد سويا
بحسب مقاييسي ومقاييس الفكر، أضحيت شارد الذهن،
مهووسا بها، أكاد لا أسمع في داخلي صدى سوى ما ينطق
باسمها. لا أهجس بالحياة ولا بمحيطي لكثرة شكوك الظن
ونواظر المعرفة، حتى أنني بدت كمن يبحث عن نفسه وسط
تيه وهيام لا حدود له.

واضبت على ديدن المتابعة والملاحظة، وعلى التأن في
غايتي، على أمل أن ترافق عوادم الصبر المحترقة إرهاصات
نجاح في الأفق، مزهوة بطبق من القبس الود أنير بها عتمة

الفكر والظن. ليتني أستطيع أن أجلي السيف من الأرق بشيء من رغاء البهجة والسرور، أني أشعر به يضغط على أعصابي بسبب تشتت الفكر وأنا على عتبة الثلاثين من العمر، هكذا اشتط الصبر، دلس معاناتي بالغاية مغشية في تأملاتي.

بقيت رغبتى معلقة في حبل الوصل، لم استطع المضي قدما في حبك روايتي مع هبة، في متابعتها لمسافة أبعد من حدود المرأب، كوني أيضا مرتبط بدوام رسمي من جهة، فلا أستطيع التخلف عن العمل في ظل ظرف قاس لا يرحم، خوفا من فقدان وظيفتي، ومن أن يصل خبر هوسي بهبة لوالدها الذي بات يكن لي جل الاحترام والتقدير. بات يستسيغ رفقتي ويقدر شخصيتي، وددت المحافظة على تلك العلاقة. خوفي وقلقي من أن تكون هي من تخبر والدها إذا ما زدت من الضغط عليها في تتبعها، أو ربما يعرف ذلك عن طريق الوشاية، فأصحاب الذوات القذرة المهزوزة والهزيلة كثر في المجتمع، يجوبون الطرق كدبابير مؤذية، شغلهم الشاغل تحقيق مصالحهم بلسع الناس وأذيتهم.

كانت بمجرد أن تصل حد الشارع العام الرئيسي، بمجرد أن تدخل المرأب؛ أجرد نفسي من تتبعها، بعد أن عرفت بأنها تستأجر عجلة تاكسي ذاهبة لعملها الروتيني في مدرستها.. وبمجرد أن نفترق، أدخل في عالم الغيوبة والعذاب النفس، ادخل في حدود الظن والتكيل، أتلص الضعف المخزون في فكري وفي بدني، أعيش حالة هذيان وجنون، معلقا بحبل

التأمل والتخطيط والتخبط، أتتبع كل فكرة تحمل في طيها شيء من المجازفة، علّني انتشل ذاتي من ركودي وتخبطي. وعساها تنحرف بمركب عواطفها تجاه شواطئي..

والحقيقة دون أن أجازف لا يمكن أن أغرف من بحرها شربة ترويني، أو أن أقرب من لظى نارها الوجرة دون إشارة منها. بمحاولاتي المتكررة كنت أمني ذاتي اختراق حاجز الخجل دون أن أتجرأ، دون أن أجلو ذلك الخرش من واقع حياتي لأعتق رغبتني من قيد الجمود.

ولكن ما أن يعود الغد حتى أجد نفسي مكبل بذات القيود، لم استطع أن أغير من سلوكي العبثي شيئاً، كأنّ قيد الخجل لا بد في شخصي، لا يفك وثاقه عن معصمي، يقيدني، يرهقني، أنها العفة وصورة من مكارم الأخلاق التي كبرت عليها وتوسعت في ذاتي مداركها، تلك التي أغنتني بالمعرفة والمعروف.

يوم بعد يوم زدتُ شغفاً بها، زدتُ ولعاً بها، كما أنني لم أستطيع نسيان فتاة الكاظمية مطلقاً، أو فتاة السوق العربي التي تعلقت صورها في ذهني، دائماً ما أحاول مقارنتهن بهيئة هبة، محاولاً البحث عن خيط وصل يجمعهن أو يفرقهن، كأنهن بتركيبة كيان وقالب هبة، كأنهن شخصية واحدة بذاتها وأنوثتها وكمالها وشياكة لبسها. كأنهن توائم تماماً..

لكني أعرف هبة جيدا فهي قرينة أختي مريم وصديقة طفولتها، ليست لها أخوات بعمرها أو تصغرها، هي بذاتها آخر العنقود في سلم العائلة كشقيقتي مريم بالضبط..

المهم تعلقتُ بها مثلما تعلقتُ سحنتها وحشمتها في كنفي، أصبحت أراعيها كدمي الطفل، فلن أهدأ ألا بذكرها وتأملها. هكذا سطت وطغت على صفحات أيامي، أضحت هاجسي الأول والأخير، والعصب الشاغل لفكري وقلبي، محاولا الوصول لحقيقتها بشتى الطرق. أكاد لا أرقد ألا وطيفها يراود مخيلتي، يحاور وسادتي، يرقد في جفوني، يعبر قنطرة أحلامي دون أن أستطع أن أميز بينها وبين شبح فتاة الكاظمية وفتاة السوق العربي، فأبقى أعيش صراع بينهما، حتى يغلب تفكيري الوسن، فأسقط كحجر صوان في حوض أرقى وهواني، حتى يغشيني الكرى فاستسلم لقيده.

2- هبة

رغم صعوبات الظرف، رغم العوائق وتبدل الحال والفكر لدى أفراد المجتمع قاطبة للتقلبات السريعة الحاصلة في ظرف الوطن؛ لم أكن أتوقع أبداً بأن تلك الفتاة ستوقد فتيلة فكري بقدحة ما من زناد فتنتها، وذلك بعد أن كنت قد تجاوزت خط المراهقة خلافاً لزملائي المتخبطين بها في الشوارع والأزقة. حينها شعرت بها قد أعادت ذاتي لمرحلة الطفولة التي افتقدتها، لفترة الصبا والمراهقة والتخبط، ولكن بشيء من الأناقة واللهفة المبطنة لأحتفظ بالرزانة والجدية في سلوكي العام..

لم أكن أتوقع تلك الطفلة الجميلة المسماة هبة ستشغل فكري بعد أن تناسيتها ونسيت ملامح وجهها الطفولي تماماً، وخاصة أنني تعرفت عليها كطفلة لا تتجاوز عشرة سنين من العمر بلون بشرتها البيضاء وخصل شعرها الذهبي وابتسامتها الرقيقة، والتي بكيانها كانت تشبه برعم صغير متألق بفتنة الحياة، كحسان الشقراوات في مباهاج الفتنة والجمال. لم يخطر ببالي بأن ذكرها سيرهقني يوماً ما، والذي أضحي كطنين الذباب، لا يكف عن طرق طبله أذني بضجيجيه.

كانت بعيدة جداً عن هاجسي وغايتي النائمة ورغبتني الملتاعة بسمرة البشرة خلال تلك الفترة من مرحلة المراهقة التي عصفت بظني وفكري قبل فترة الجامعة وخلال مراحلها، حينها كانت طفلة، فتية، لم تدخل في سجل الحسبان

ولا في قوس العاطفة، كنت أحسبها كشقيقتي مريم. ثم أني لم أفكر بذوات البشرة البيضاء أبدا في تلك الفترة من عصف الشباب. ولم أتوقع يوما ما قط بأن تدخل أفق حياتي كشمس لاهبة تجزل عن ذهني كل مخلفات الزمن، أدور حولها وتدور حولي، أستجدي منها دفء نظراتها وشراسة حسننها ولطف خصرها الأهيف، لتستثير عواطفي ووجدني بشكل مبالغ به، بحيث صرت أطاوع فتنتها وهي تقلم أظافر رغباتي وتلهم أفكارني بشطط ذلك الود وعصفه، لتستكين بين شهقات انفاسي المثارة كقمر منير تخفق بضياء وجهها في سماء رغباتي الدهمة.

لم أتوقعها يوما ما ستشعل فودي رأسي بذلك الألق المغنج بقامتها، لتدخل أفاق حياتي من بابه الواسع، لتجعلني أتضرع لحسنها، ألامس أدمة الجلد والشعر بأحاسيسي، لأقشط عنه زبد الشوق المعنى، علّه يكتمل هلال الود ليكون بدرا في أفق وجدني.

لم يخطر في بالي بأن البركان الذي خمد جنونه من سنين عجاف، سيُتهيج بنظرة من تلك العيون الفيروزية، سيبعثر حمم الشوق في الطرق الوله، ستحول اشلاني لرمم تقذفها الآهات والأهواء في دروب الحب والشوق.

لم يخطر في بالي أبدا؛ بأن تلك القطعة الشرسة ستعينني على قدري وزهدي، ستأملني محاسن غدي، ستواسيني وتسليني وتمكنني من جنتي، ستكف نزف احتضاري وعبثي، ستكون شغلي الشاغل الذي لا أستغني عنه، كشهقة الأنفاس

ولوعة الظن وطبق الحيرة بها، لتحريك هاجس الحلم والخيال
لُبْدُ محبة تدثرني بها وتأويني.

هذه الوردة المزهوة التي تراودها فراشات الصبح، لتعلق من
نضارة وجهها سعادة أنية؛ أيضا تراودها دبابير الشر، لتعبت
بثناياها كيفما تشاء... كانت ولم تزل صغيرة، تتوق اللهو
واللعب، لا تقوى على كشف موجات الذباب وهميس الوجد
والإعجاب المعقبة لمفاتها... تارة تهرب من واقعها المسجور
لواقع أكثر هدوء وخصوبة، وتارة تستسلم لقدرها المحبوك
بالعقد. ما عادت تحتل التناقض وقسوة الظرف المحيط بها.

هذه الطفلة المكتنزة بالحوية والإثارة تحمل من الأوصاف ما
هي نادرة جدا؛ لها جاذبية ساحرة، لها بشرة برقة ندف
القطن. تجمع في ثناياها جملة مباحج. تعصف بكل من يغدق
نظره في ملامح الوجه، أو يستميل إلى مفاتن الجسد. لها كنز
من الجواهر مدفونة في خلجان الفتن، لن يدركها إلا من
يغوص لأعماقها، حيث اللغز المستتب يكمن في غراء السحر
المكنون في تقاسيم الجسد، ماثوث في لون البشرة وطراوتها،
في ملامح الوجه المنسقة، ذلك الذي يجعل الملهوف يشترط
بهواها من النظرة الأولى.

لنضارة الأنثى ثرثرة لدنة بتقاسيم الجسد، تفيض جدلا ساحرا
في عيون العاشقين، وألقا بنسق الإعجاب منصب على شعب
القوام؛ من لها تلك المواصفات تكون قد امتاكت ناصية الفتنة
بكل أسرارها، بالإضافة لذلك شفافية الطرفة واللذع الخفيف
إذا ما تميزت به تكون قد اكتملت بالنعيم التي أنعمها الله

عليها.. فهبة لها كل ذلك. هبة من تلك الفاتنات النوارد، من الذوات التي تميد بأسرار الرقي والبهاء بعيون معجبيها. لجمالها الأخاذ الصارخ قدرة خارقة على توليد تلك الحماسة في عيون متيميها، وخاصة هؤلاء المراهقين وأصحاب القلوب الرهيفة الضعيفة التي لا تقوى على تحمل الصدمات إلا إذا ما تيمّموا بنضارة حسناتها.... هذه الطفلة أشبه بدمية جميلة، مزهوة بعينين واسعتين مخضرتين بلون الحشائش الداكنة الخضرة، ذات بشرة بيضاء، ملساء، ناصعة الخد، ناعمة الملمس، كصلصال طين حر.. يزوق وجهها الباسم فم ياقوتي، قرمزي اللون كحبة الفستق المنتفخة، مشبعة بالعذوبة والحيوية - يغطي متنها شعر حريري أصنهب مائل لشقرة لماعة، خاصة حين تدلكها خيوط الشمس بزيت الصبح، فتنعكس إطلالته على شبكة العيون كشلال ذهبي مناسب على الكتفين. دائما ما كانت تجدله بصفيرة أو صفيرتين تتدليان لأستها، فتميد قامتها سحرا وهيافة.

تشعر بلامحها المسورة بالجاذبية مصبوبة كقصيدة شعر، مسورة بإبداع الوزن والقافية، يعجز عن وصفها الكلم لتتشعب أبعادها. تلك القطعة تخفي بين عينيها أبعادا من الشوق. لرقعة أحاسيسها المشعة بالألق تفيض فتن.. دائما ما ترصع خدها غمازة جميلة، وفي الحنك تخفق شامة تزيدها فتنة وألقا.

كانت تراود دارنا بين فترة وأخرى لغرض الصحة واللعب أو الدراسة مع كريمتي مريم، حينها كانت لاتزال برعم في أول نضوجها لم تتجاوز ريعان ربيعها التاسع من العمر...

كن يلعبن معا، يذاكرن معا، يمرحن معا، يغدقن بكركرة تطرق أذنيّ بين الفينة والفينة، وذلك بحكم أصرة الجيرة التي تجمعنا، وكأنهن شقيقتين تداخلت طباع بعضهما ببعض.. كانت هبة تتمركز في آخر عنقود العائلة، مثلما مريم تجثو في آخر درجة السلم العائلي.

المرة الأولى التي زاغت عيني عليها وتأملتها بشوق وحنين حين داهمتني بسؤال رياضي في مجال القسمة والضرب، حينها ساح فكري في تلك المنابت الرائعة من لطافة الحسن وسحر التقاسيم القابعة في ملامح الوجه، برحت أسرح في تلك البقع المنتبرة والمنتظمة بدقة هندسية فريدة، تلك الريانة بالطراوة، المكتنزة بالجازبية الفذة. أحسست بكم الفروقات وماخذ الحسن والجمال التي أنعم بها الله عليها من بين الخلق. حينها كنتُ في قمة النزق الشبابي، ابن الثامنة عشرة سنة، في قمة المراهقة والولع بالفاتنات السمرارات، كان الفارق الزمني بيني وبينها عشرة سنوات، وهي فترة كافية للفصل بين أفكارى وطفولتها.

في الوقت الذي به صَبَّتْ عيناى صنابير عطشها على ملامح وجهها، برحت أطل لها عناصر المسألة بشوق منقطع النظير، وبشيء من الطرافة الغالبة على طبعي، لأستدرجها لمحبتى. حينها قسمت لها الأصل والأجزاء، بسطت لها الفكرة حتى هرست عواملها في ذهنها، لتصل بذاتها لنتائج القسمة بيسر دون إعانة ورجاء.

ما أن خزلت المشكلة حتى شكرتني بلباقة ورضا وهي تنظر إليّ ببراءة... ودون قصد أو نية كانت قد غصتْ أناملي في ثنايا شعرها الحريري، عبثت بخصالاتها الصهباء المنحدرة على أسيل الخد....حينها قلت لها:...

- لا يهملك يا حلوة، سأجعلك تحبين الرياضيات كمحبتك لشعرك الجميل هذا، وإذا ما أستعصى عليك حل مسألة ما، أو تعكرت في ذهنك أجواء فكرة ما، لا تتردي أبداً في سؤالي، حتى لو كانت المسألة معقدة خارج دروسك، حتى لو كانت تعبر عن مفاهيم ليس لها علاقة بمنهج الدراسة.. لا تنتظري الإجابة من أحد يستعطف عليك، سأكون رغم أشارتك في أي وقت ترغبين - أنت فتاة ذكية وموهوبة، لا تحتاجين سوى لتوضيح بسيطٍ فقط لتصلي إلى حلول المسائل بذاتك. ثم أنت يا هبه فاتنة، جميلة. ربي يسعدك ويهنئك في مشوار حياتك، كوني حذرة من تحرش الغرباء بك وعبثهم، فأنا أخاف عليك من الكلاب الضالة.
- وعد لن أسال غيرك، كثيرا ما يحذرنني أبي بمثل تحذيرك، لا تخف عليّ فأنا واعية.

وفي إحدى المرات كانت تلعب مع كريمتي لعبة الأسماء، على أن تذكر أحدهنَّ أسما ما لا على التعيين، وتذكر الأخرى أسما آخراً على أن يبدأ بالحرف الأخير من الاسم المذكور أنفاً- على سبيل المثال أن قالت كريمتي ياسر فعليها أن تذكر أسما يبدأ بحرف الراء مثل رامي- والاتفاق مبدئي كأن تكون

الأسماء أسماء بنات فقط أو أسماء أولاد فقط أو تكون مختلطة
أو أسماء حيوانات أو طيور....الخ. رغم بساطة الفكرة إلا
أنها توسع من مدارك الطفل الثقافية.

- ذكرت مريم اسم أميره
- ذكرت هبة اسمها هبه
- ذكرت مريم أسم هيا
- ذكرت هبه أسم أصاله
- ذكرت مريم اسم هاله

بقيت مستعصية عليها أسم يبدأ بالهاء .. وبعد عناء وصمت
نادت عليّ قائلة:....

- ساعدني يا صلاح أسم يبدأ بالهاء
- كثيرة هي الأسماء.. فكري بها قليلا

حين أستعصى عليها الاسم قلت لها...

- طيب يا هبة.. ما أسم أمك؟
- صح هناء... بدأت تضحك وتكركر.... كيف بالله
- أنسى أسم أمي ههههههههه.... لا بد من أن شيئا قد
- جرى لمخي ليصبح ترللي ههههههههه ..

شاركتها مريم بضحكة رنانة كما شاركتها أنا حتى بعثرت
بطرفه قصدتها حين ذكرت لها.....

- اسم أمك هناء ونسيتها فلو كان أسمها هدية أو هريسة
- لتذكرتها على طول ههههههههه... أعرفك جيدا كم

تحبين الهدايا وتعشقين الهريسة، خاصة في
عاشورا.. هههههههه. أتذكرين حين كنتِ تجلسين أمام
الموقد حتى يجهز طبخها.

- أنا فقط؟.... الكل كان ينتظرها، كل الأطفال الذين من
عمري وعمر ك كانوا ينتظرونها ههههههههه،
- هههه أنا طفل؟ يا ويلك....

قلت لهما: على أية حال فأني أعدكم بهدية في حال تفوقتما
دراسيا هذه السنة، وها هي السنة على مشارف الانتهاء..
كأنني وددت أن أرمي حجرا في واحة نميرها الساكن، لأشد
عواطفها وفكرها بسلسلة تمتد لمأربي، كأنني تعمدت أن
أشعرها باهتمامي بها، وأن كانت الحالة لا تعد سوى نزوة
أنية عصفت بفكري آنذاك.

- صحيح يا أخي؟ (قالت مريم) هل هذا وعد؟.. أنا أريد
شنطة أضع بها حاجاتي.
- وأنا أريد ساعة يدوية.
- وهو كذلك ..إذا اجتهدوا وأنجحوا..

وفي إحدى المرات جمعتها بمريم لأشرح لهنّ عن جغرافية
الوطن العربي الكبير، فقلت لهن:.....

- الوطن ما كان وطنا مجزأ، كان كتلة واحدة ببقعة
جغرافية تمتد من المحيط الأطلسي لغاية الخليج
العربي، وذلك قبل أن تقصه الدول المستعمرة بمقص
الحقد والكراهية باتفاقية سايكس بيكو اللعينة التي

وقعت بين فرنسا وبريطانيا ، لكي يستولوا على خيراته، فتم الاتفاق على تجزئة الوطن لدويلات صغيرة ليسهل السيطرة عليها. كان الوطن وطن واحد تحت ظل الحكم العثماني، وبعد أن ضعفت وتراخت قواها كدولة؛ انهارت قواها أمام سطوة البريطانيين والفرنسيين. انكسرت، تراجعت.... هكذا بقيت مدينة الإسكندرونة العربية تحت الحكم التركي، فيما أهديت عربستان من قبل بريطانيا لإيران كهبة، جراء وقوف شاه إيران مع الحلفاء ضد الألمان خلال الحرب العالمية الأولى، بعد أن تم خطف أميرها خزعل ليسلم لملك إيران رضا شاه ليتم إعدامه. ومنذ ذلك اليوم قُبعت عربستان تحت سيطرة الاحتلال الفارسي، مثلما سيطرت إسبانيا على سبته ومليلة في المغرب.

- هبه: كيف يعني أعطوا عربستان كهبة؟ هو ما معنى هبة بالضبط؟
- ألا تعرفين معنى أسمك؟
- بلا ... يعني نعمة من الله.
- ويعني بركة وهبة وعطاء وهدية ونعمة ومنال وإحسان ومنحة وصدقة ونوال...ووالخ....
- يعني أنا نوال؟ ونوال من تكون؟ هههههه.
- تكون هبة.

وفي داخلي قلت: هدية من ستكوني يا هبة؟ من هو صاحب الحظ السعيد الذي سينعم بهذا الوجه الجميل الملائكي وتلك العينين الفيروزيتين. فقالت...

- الآن فهمت... إذا تأملنا أن نعتق رقابنا من عنصرية العثمانيين فالتفت علينا عقارب الغرب، فهم ييغضوننا لأننا عرب ومسلمون.... هكذا أخبرني أبي..
- هل هذا صحيح يا صلاح؟ قالت ذلك مريم
- نعم يا عزيزتي مريم، مع الأسف صحيح، يعتبرون وجودنا خطر عليهم. لأن الله منحنا القدرة على صهر الوجود، فنحن أصحاب حضارة وثقافة ودين، فما أكرمنا به الله من خير وحكمة وقيم نتحلى بها، هم يفتقدونها. لذا دفعهم حقدهم وشعورهم بالنقص إلى سرقة خيراتنا وتدمير بلداننا وزرع الفتن بيننا. ألم يقل الله سبحانه وتعالى {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ..}. صدق الله العظيم، الم ينزل القرآن بلغتنا العربية الجميلة، فما هي لغتهم تندثر كل قرنين أو ثلاثة لتظهر لغة جديدة مختلفة..

3- ارهاصات الجامعة

تقع دار هبة في الحي الذي أسكن فيه وفي ذات الزقاق، فهي لا تبعد عن دارنا سوى بضعة أمتار فقط ضمن التسلسل الأبجدي قياسا لبعد الدار عن حدود الشارع الرئيسي، ولكي تذهب لعملها أو لتتسوق؛ يجب عليها أن تمر من أمام دارنا، فلا يوجد منفذاً آخر غيرهِ.

كثيرة هي المرات التي كنت أصحابها برفقة مريم من مدرستها للبيت، خاصة خلال أوقات الذروة والزحمة حين كانت تدرس في المرحلة الابتدائية، كنت افعل ذلك حين أجد وقتاً كافياً لديّ، عندها كنت طالبا في المرحلة الثانوية، فلم أنقطع عنهنّ إلا لظرف عارض أمر به... ولكن خلال مرحلة الجامعة قلت التزاماتي معهن، حيث نادرا ما يحدث ذلك التوافق بين خروجهنّ من المدرسة وأوقات فراغي. لذلك انقطعت عن اصطحابهن، كما تغيرت بنائية مدرستهن بعد أن تحولنّ من المرحلة الابتدائية للمرحلة المتوسطة..

كما أنها في تلك الفترة ارتدت الحجاب نزولا لأمر والدها، وبالتالي أنزوت وانقطعت عن زيارة مريم تطبيقاً لتعاليم والدها الذي فرض عليها القيود وهي صغيرة..

آن ذاك كنتُ يافعا أفرح مع النسمة العابرة، مسترخ على بسطة الشباب، حالما في اللذة وبهجة الحياة، منشغلا في نوات سمره البشرية. كنت لأزال في بدايات البلوغ من العمر، مشغول البال بهوس القلب وفرحة الجامعة، الفيض يغمرني

بنشاط زهري يغشي الذهن والبدن والعاطفة، أحب الحياة، أمضي مع وله الشباب، مع الطير والشجر في تأمل الغد البهيج المفعم بعبق السعادة، غارقا بملح فتن السمراوات من الفتيات.

رغم مرارة الأيام بسبب ظرف الحصار، رغم قساوة الزمن المحيط بي؛ كنت أتمعن في تصفح أحلامي بصحف الغد، أترقب بخيلاء وتبجل نزق العاطفة المشدودة الجامعة، متأملا الارتباط بفتاة ذات سحنة سمراء شفيفة، كتلك التي رسمت لها جدارية على جدران القلب منذ الطفولة.

النفس وما تشتهي، تلك هي الرغبة الجامعة التي كانت تشغلي. بينما كانت تدور بيني وبين زميلي طارق نقاشات حول جميلات طالبات الجامعة، كنت أثير حفيظته بعشقي للفتاة السمراء، فيما كان طارق دائما ما يناقض رأيي بهذا الجانب، لذا عندها قلت له: من الأجدى أن يتزوج الشخص بفتاتين أحداها بيضاء والأخرى سمراء ليتحسس طعم البشرية.... حين كنا نلتقي على محجر الحديقة الخلفية لبناء الجامعة ونحن نستطلع مروج الفتيات اللاتي يتجولن في طرق الجامعة، كنا نتجادل حول أيتهن الأجمل، فإذا كانت الفتاة سمراء يقول لي هذه من حصتك وأن كانت بيضاء يقول لي أغض عينيك فتاك من نصيبي ههههههه.

بصراحة حين أشاهد فتاة سمراء افتقد توازني، أتوق صحبتها، اتوه في لون بشرتها وتقاسيم وجهها، محاولا حفظ ملامح الوجه والغور في تفاصيل الجسد.. كنت أتمعن بخيال

يغشيني، فأنزوي خلف تلك الهالة بشهقة أنفاس ابغي انفرس بها، حيث أركب موجة الوله وأنغمس بفتون تلك الهالة لأسافر معها لعالم خفي مجنون، أتخيل الفاتنة السمراء مطروحة على فرشة بيضاء ناصعة، حيث سحر المنظر يجلي أرقى..

كنتُ أجد بدرجات السمرة تغور الجاذبية، تلفح بسعة العيون وألق وشموخ الأنف وطراوة الشفة. حيث أني أجد للأنف سلطان على ملاحه الوجه، فالجاذبية الذائبة به تبدو أكثر طفقا من جاذبية العين الشفة، أراه كفنار يضيء محيط الوجه بشعل تضفي على بقايا الوجه نورا من الجاذبية، وخاصة أنه يتوسط الوجه، لذا يكون تأثيره شاملا كل محيطه بذات الكيفية التي يسطع بها.

كنت أراعي ذاتي الأسيرة والقلب المشعشع، متأملا أن أحظى بزنبقة تطفئ جمره الفؤاد، لتضفي على أجواء رهقي صبغة سعادة استشعر بها، تعيد ترتيب أوراق الذهن المبعثرة في طرق الشوق والمراقة.

ما أن بلغت حتى شظيت مآربي، عندها كانت هبة لازالت زهرة لم تكتمل نموها وأنوثتها، لازالت قيد النشأة برعم صغير لا تجاري عصف الأهواء ولا حنو النسائم التي كانت تغير عليّ وتعترني قدرتي. لازالت لا تفقه شكل العلاقات ولا لها صدى في ظفر الحياة، فهي تصغرني بعشرة حقب مثلما أسلفت، أي أن الهوة بيننا واسعة وكبيرة، إذا ما قارنتها بعقلية المراهق آنذاك، هوة صعب ردمها وتجاوز تجويفها، لاختلاف الفكر وشكل النضوج. حيث تكتنف أفكارى قيم وعادات كانت

قد رسخت بالذهن منذ الصغر، كما أن حساب الظرف والعمر له تأثير على الذات، فلم تعد تغريني إلا من لها جذور في النفس. تلك المسافة الفاصلة بين عمرينا، كانت كافية بأن تمنع أفكاري من أن تنحدر بنزواتها من قمة الوله والشطط الذي كنت عليه لوهدة طفولة وبراءة هبة، حينها لم تزل عودٍ غضٍ طريٍ مائلة الطرف، تكسرها نسائم المساء، لا تفقه لعبة الحب ولم ترمضها أشعة شمس العاطفة اللاهبة.

في تلك الفترة من الذروة الشبابية كنت أعيش في ثورة شبقية عارمة، تأملت أن اتشبث بغصن يحتمل عصف أثيري، باحثاً عن الثمرة الناضجة لأستلذ بها، عن فاكهة ناضجة بين تلك الفتون اليانعة من ذوات السمرة المطعونة بالجادبية.

عندها كنت لا أفقه للحب معناه الحقيقي السامي الذي تأصل بي فيما بعد، لم أكن أفكر بارتباط دائم قدر أن أحرث بين الأفخاذ غريزتي لأزرع بذرة الشعلة، قدر أن أطفئ جمرة الغريزة بشفاه ندية، أن أوشم الأتداء بقبلة عبثية، محاولاً غسل ذاتي بعاطفة سريرية، متأملاً تلك الفتنة والجادبية... هكذا كنت أنهمر كسيل وجد في جوف فانتات الطرق اللاتي اصدفهن، باحثاً عن سوط جلد أزجل به النار المضرمة بأعماقي، عسى أن يهتز كياني، أن أرفأ بالنشوة. كنت ابحت عن الوصفة الناجعة لتهدئة شطط البال وجزل عبثية الخيال.

كنت ابحت عن الفتاة المغنوجة بالطرفة والملاحه، عن خفة الدم والابتسامه، عن طبع غريني مرن يترجم أفكاره، عن طابع بريدي يحتمل شبقي ويرفأ بأحلامي، لـ يرتقي مع فكري

قمة النضوج الجامعي، لألتمس شغف الحياة بنزق تلك الصفاة المحبوبة...

لكن كان لتأثير الحصار الجائر علينا نتائج مختلفة، أصبحت الحالة مكبلة بالعقد، مشبعة بالروتين، أحالت توجهاتنا العاطفية والذنبوية إلى سراب ورماد، بتنا نسحق تأملاتنا بأتراس الفاقة، بحيث نادرا ما احظى بغايتي أو أمضي خلف إرغاصات قلبي. عجزت عن مزاولة هواياتي وتتبع رغباتي، الفاقة جزلت أهوائنا، الحصار ضرب مستويات المعيشة بسوط الذل.

آه كم تأملت أن تتبلور تلك النزوات بالفوز بجسد أحلام مثلما تصورتها في ذهني ووصفتها بأقلامي، تلك الأمنية لشدة ما ارهقتني تركت أثرا في نفسي، مكثت كورم سرطاني في خاصرة فكري، كانت حالة استقرار من الضرورات الملحة لحالة الهيام التي كانت تجتاحني. كان لابد من تجسيدها والتعلق بها بأي شكل من الأشكال لإسكات حالة الشبق التي طغت على صفاتي، لأنها مغنوجة بالسمرة. أحيانا كنت أقف مبهور أمام صورة ما تعجبني، أتأمل رقة البشرة وصفاء اللون ونعومة الملامح فتذكرني بالجميلة أحلام. كنت أشعر بالحر ج يداهمني حين تبادلني تلك الصورة النظرات، لأنني لم استطع التعامل بشكل نموذجي مع أحلام حتى خسرتها. كنت أفسر نظراتها استفسار واستخفاف لعدم جديتي أو لعدم قدرتي على الارتباط بها وأن كانت نظرات إعجاب متبادلة بيني وبينها.

نزوات عدة أرهقتني، لم استطع التعامل معها بشل جدي، لم
اتمكن من أن أعبر قطرة الغواية لضفة الوجد، رغم أنني كنت
في قمة احتياجي، لم أستطيع استغلال الفرص التي أتاحت لي.
سبقتني أهوائي، بقيت متخلفاً عنها لزمن طويل. لم أتجرأ على
تجاوز حدود التقاليد والأدب المتطبعة بي، خاصة حين أكون
في الأماكن العامة. كنت أهجس بنصل الخجل يجهض على
تطلعاتي، يقتنص سعبي إذا ما شج التأمل بطانة صبري.
يجهض على سعبي قبل أن يبرز ذلك السعي إلى النور.

كنت قد ترعرعت في غي، كمن يمشي في دائرة تيه مغلقة،
منطلقاً بعفوية وسذاجة نحو غاية غائرة في السدم، حيث كلما
أدرك سور غايته؛ أعود لنقطة الصفر، لذاتي الخائبة بعد كل
ومل ومشوار جور أتعنى له.

دائماً ما أجد نفسي مكبلية بخطواتي الأولى، دائماً ما أجد
اعذاراً لذاتي، وكأنني لم أحرك ساكناً عن موضع الغاية التي
أنشدها وأتوق لها. أنها تأوهات أحلاماً ومراهقة، قلة الخبرة
وضعف السلوك وفاقة جيب رافقتني لغاية تخرجني من
الجامعة.

هكذا بقيت حياتي خالية الوفاض من الصعقات واللتعات،
خالية من المتعة والوعود والمواعيد إلا من خيال ركب ذهني،
جسد فصول مسرحية الهوى دون نهاية جميلة، لم يشهدها
سواي أنا.

هكذا كنت أشهد وأتأمل الفتاة التي تغويني، أو تلك التي أتخيلها تسعد قمري، أحيانا كنت أذهب لأبعد من التخيل والتأمل، مرهقا ذاتي بالاستمناء الرخيص بعد أن أركب مركب الشبق والهيام، مارقا بتفاصيل الجسد، لأصل بمبتغاي عند حدود الإثارة والرغبة الجنسية. ما أن التمس حاجز ضعفي؛ حتى أعود لذاتي ألومها على قباحة فعلتها وتهورها ونزقها.

والحقيقة كنت أعود للعادة السرية بين فترة وأخرى نتيجة الفراغ والكبت والوحدة، كوني تجردت من العلاقات العاطفية بحكم الظرف وتركيبية أخلاقي وتربيتي وعواطفِي وخجلي ونوع الرغبة التي تملكنتني، تلك الأسباب خلقت طباع غريبة لدي، عقرت سلوكي بالوحدة، بعثرت أشواقِي وشبقي في طرق الرذيلة.

ففي الوقت الذي كنت به أرهق ذاتي بالأحلام، كان عود هبة الطري لا زال ضعيف الصلابة، بعيدا عن ملاحظاتي واهتماماتي. بعد أن تركتها نبغت بغفلة من أمري، كبرت وترعرعت في الظل، بعيدا عن خط هواجسي ومشاعري الملتاعة. حيث لم أحظ بروية ملامح وجهها قط منذ أن دخلت مرحلة الدراسة التأسيسية، أي قبل عشرة سنوات بالضبط، تلك المدة الطويلة هي كافية لأتناساها.

ما أن أرغمها أبوها على ارتداء الحجاب والخمار، خوفا عليها من الصقور والنسور الجارحة التي تجوب الأجواء وتقتنص الفرائس في الخفاء، حينها اختفت في جحر حجابها. كما أنني حينها كنت أمتعض لبس الحجاب المتشدد، لذلك لم

أعر أهمية لها ولغيرها حتى أدركت سن الخامسة والعشرون من العمر؛ عندها تأرثت بالفكر السلفي.

لمطبات الزمن سوطا من الجلد، يزيد الإنسان تقويما في الوقت الذي به يزيده عقدا ومتاعبا في ذات المضمار. مع ازدياد توسع حلقات العمر تزداد مشاكل الحياة باستمرار، كنت أشعر بشقاء في مواجهة متطلبات الحياة، لقد أخذتني المتاهة إلى أن أنشغل في دراستي الجامعية وأتعبت تدبير لقمة العيش في الصيدلية، التي غدت صعبة المنال ومرة المذاق. فترة انحصرت مدخراتها مع شظف ينابيع الحياة وتشعب عقد الحياة مع دوي طبول الحرب، تلك التي التفت خيوطه على اعناقنا ومعاصمنا، بحيث ضربت طوقا من العسف على خاصرة الوطن وبالذات على ذوات الدخل المتوسط الضعيف.

منذ أن زادت مشاغل الفكر تعقيدا، بدأت أخطط بتأن لمشروع المستقبل الشائك وأنا في أول درجات السلم الجامعي، أخذت الحياة تسيرني في دروب المشقة، الوعرة، الملتوية، الموحلة بالعناء والعوز والجري خلف هوية المستقبل الغامضة، بعد انزلاق الوطن في نفق النزف المحيق والاحتباس المظلم...

لقد شغلتنني الفاقة وشظف العيش عن خارطة أهوائي وصوت شبابي، فنسيت الترف والرفاهية وذوات سمرة البشرة. في الحقيقية نسيت الأحلام التي زرعتها في مستقبل العمر، ما أن دخلت الجامعة؛ بانث آثار الحصار على شخصي، صرت كمن لا يبصر ولا يسمع ولا يرى إلا جلجلة رعدة خفية صادرة عن أعماقي، ذلك الوجع الذي تتبع ظني من الداخل،

نبت من وحي الذعر المشروع والمرتقب بين خواطر الفكر
والمستقبل. بات الخوف يولد من هوس الخوف، من رهبة
مجهولة بدأت تتكاثر في ظني كالبتيريا بالانشطار وبالتجانس
وبالانكسار وبالخطام وبالترويع، حتى أصبح للخوف جيوش
تقارع الأحلام المستترة في قلاع الذاكرة.. أذكر صديقي
وجاري إيد كان يحمل بيده كرسيًا يود بيعه، حين إذ سألته
عن حاله قال:.....

- بعت مجمل أغراض البيت ولم يبقَ عندي سوى
كراكيب بالية وثلاجة وهذا الكرسي، لا أستطيع
مواجهة الغلاء وقلة الرزق الذي أنهك أبداننا. وهناك
من باع كل شيء وقبّع على الحصار!..

ونتيجة لتلك الرهبة السائدة في أجواء الوطن، ذبلت
وتخوورت الأحلام، بل أنها ماتت في رقعتها اليابسة، أضحت
النفس عرجاء لا تستجدي إلا صبرا خال من أملاح العقد. لقد
ولد الخوف من رحم الحروب، من جور الحصار، تزامن مع
نبوغ مراهقتي وتطلع شبابي. كنت في العاشرة من العمر حين
فرض الحصار على الوطن، تدرج مع كبري، لم أنتبه إلا وهو
جبل شامخ يحجب عني نور الشمس.

كمعظم رفقائي الذين تعثروا في خط الدراسة؛ تعثرت، بقيت
تطلعاتي الحقيقية بعيدة المنال. يومها دخلت قسم الصيدلة،
والفضل يعود لابي الذي تحمل وزر غيبي على عاتقه..

لكني كطفل كنت أشعر بسعير الحصار يتبجح في وجوه الناس، يتسكع في الشوارع والأزقة، يتمثل في أثوابهم وأسمالهم البالية، شاخصا في صفرة الوجوه ولون الفاقة والشعور المنكسرة وبياض الشعر نتيجة الفاقة والحسرة القابعة بين محاجر العيون.

بانث صورته حاضرة في المواد التموينية التي توزعها الدولة على الشعب، فأعرفه من لون الخبز الأسود، وطبق الرز المزجى بالرممل والزوان والصنامة، وكأن الرمل وقطع الحجر والزوان مقصود إضافتها ليزيد الكيل صاع، ليباع على الناس البسطاء بربح إضافي.

كان الظرف يتبجح بالفاقة، لم يحترس أبدا، يجوب الشوارع والطرق والحدائق، يتقصد البشر والطيور والحيوان أينما يكون. تجده شاخص في طوابير الناس التي تقف مصطفة من أجل الحصول على قنينة غاز لتطبخ به، أو لتحصل على تنكة نפט أبيض (كيروسين) تتدفأ به، لتكف عن ذاتها قسوة الشتاء المذل، أو لتحصل على طبقة بيض أو دجاجة.

أضحى كل شيء يستعان بالطابور حتى الخبز، كل شيء صار نادر الوجود، صعب المنال، حتى الحدائق لم تسلم من عبث الحصار، أصفرت وماتت وقطعت أشجارها لتكون وقود نار لمواجهة قسوة الشتاء، في الوقت الذي به نشفت الأنهار والجداول والسواقي من نعمها. كأن كل شيء كان مدروسا ومخططا له لأذلال هذا الشعب... ما برحت روضة أطفال جلولاء التي كانت روضة جنان تفتح النفس، كان يحرسها

حارس دائم، فلا تفتح أبوابها إلا في المناسبات الوطنية والأعياد فقط؛ أضحت بعد الحصار جرداء، قفرة، بعد أن قطعت أشجارها لتصبح وقودا للفقراء ولعابها بيعت في اسواق الجمعة..

لقد تهادى الحصار كثيرا في غيه، ومن قصصه المريعة حين شح النفط من محطات التوزيع، ارتفع سعره، أستغل البعض موقعه ومنصبه في الدولة بتخزين البترول في بيوتاتهم، ومن ثم صاروا يبيعونه بأسعار مضاعفة - لقد ذهب ضحية تلك العملية المرحوم رحيم كهربائي الذي ود أن يفك كربيه بتتكة نفط تحت سطوة عتمة الليل بعيدا عن أعين السلطة، ليتعثر بعارض خشبي لينكب على وجهه أمام برميل النفط وفي يده فانوس، الفانوس لم يكن رحيمًا معه، أحرقه فتفحم بنفطه..

وانا متوجه إلى كليتي، صعدت باصا من كراج الببائع متوجها إلى باب المعظم وهي رحله تستغرق بالعادة ثلث ساعه ولكن في عجلة التاتا (وهي حافلة تقل بحدود 50 راكبا) قد تصل مدة الرحلة إلى ساعة ونصف، لقد حملت أضعاف العدد، كنا مجبرين على تقبل الموقف والوقوف في الممر الضيق، متحملين الإهانة والمذلة طوال مدة الطريق، بل صارت شاحنات اللوري القلاب أحيانا تنقل البشر بين الأماكن.

عموما كان قد صعد في حافلة التاتا رجل عجوز، أنيق الملبس على خطى أناقة رجال الخمسينات والستينات حين كان الخير عائما وفيرا، كنت أنظر إليه والى لبسه وأناقته فأحترمه، أقدر مركزه إن كان خبيرا أو أستاذا جامعيًا أو مربيا فاضلا أو

دبلوماسيا...الخ، ولكن الحصار كسر ظهره وأذله كمعظم أبناء الشعب... ركب هذا الرجل الحافلة متجها إلى باب المعظم، بقي واقفا في الممر متحملا الإهانة والهوان والتدافع بسبب صعود ونزول الركاب دون أن ينبس بشفة، يُزاحم الآخرين من هم دون عمره بحثا عن مقعد فاض، ولم يتنازل له أحدا من الجالسين على الكراسي كي يجلس، وقبل وصول العجلة إلى محطة باب المعظم رأفت به وقلت له:..

- تفضل يا عم أجلس مكاني..

فضحك الرجل وقال بصوت مرتفع بعد أن تذوق طعم الذل والحسرة والإجهاد:....

- كلكم تريدون من الرئيس أن يترك كرسي الحكم، وانتم لم تستغنوا عن كراسيكم في عجلة التاتا من أجل رجل عجوز، يا للعجب ههههههه.

لم أحترس من الحصار بشكل جدي إلا بعد أن دخلت الجامعة! بعد أن قلَّ المورد وضعف حال الناس بشكل مفرح، حيث أصبح الغني فقيرا والفقير شحيا وشحاتا، والشحات مسحوقا، هكذا هلم جرا. باتت الحياة لا تطاق، الممرارة ترسخت في العيون قبل الأفواه، باتت الناس تجري خلف الرزق المتخفي عن الانظار كالديبيب، تبحث لها عن منفذ في جحور الزمن، حيث لا تستطيع تدبير لقمة العيش إلا بقطع الأنفوس، وكثيرون منهم وصل به الحال لدرجة الاستجداء والانتحار والهجر هربا من قسوة الظلم الذي تعرضنا له، فيما تمكن البعض من

أصحاب الشهادات من أن ينسلتوا من بين قبضة الحصار
للدول المجاورة، وآخرون واصلوا تأملاتهم لأبعد من ذلك حين
هاجروا لدول أوروبا وأستراليا وكندا... أما الذي بقي في الوطن
صار يعاني من الفقر وتدبير لقمة العيش؛ حتى ضحك خلف
اللقمة التي لا ترى بالعين المجردة.

4- الصيدلاني عمر

كان لابد من الاحتراس من همجية الظرف قبل أن يجف نهر القيم الذي أشرابت منه قيمنا، قبل أن تصيبني سموم الجفاء وخشونة أمراض العصر المتفشية بين البشر. بثت أرى ذاك العصف الذي بات يكتسح صفوف المجتمع يدنو من خواطري رويدا رويدا، بل صار يكتسح ظني وأعماقي دون انذار. ها هي غمامة الحصار والحرب واضحة تطفو فوق رؤوس الجميع، وها هي تزحف بلا تحسب نحو حقول الفكر. هالة سوداء تتقدم نحونا بالسرعة التي تهف بها خطوات أقدامنا نحوها.

ذلك المارد الذي سعى بكل جبروت ليقبض من مآربنا وأمانينا وعلاقاتنا وأحلامنا وارتباطاتنا، وبالذات من المساكين والفقراء والركع السجود والمتكاسلين والقانطين على السبل، قابع في دواخلنا ومآربنا. هؤلاء الذين تتخبط خطواتهم بعيدا عن لغة السعي الغير مفهومة لطبقة كبيرة من المجتمع، صاروا ينحدرون نحو الهاوية دون مبرر ووازع يعيّلهم من الناحية الاجتماعية، إلا أن هناك رغبة سياسية تتملك القرار تود جرفهم لحوضها لتتبع نياتهم واحزابهم... هكذا جرت الأمور وتفاقم العُقد في دروبنا بعد أن ضاع رأس الخيط المقطوع. هكذا عصفت رياح الغل الصفراء بخيمنا، بدا تقيدت أمانينا، جزلت أحلامنا، صرنا نتأمل الفرصة السانحة لنهرب من الواقع المقيت لواقع جلف دون أن نحفظ كرامتنا، صرنا نستطلع أبراج المستحيلات لننفذ بأجسادنا.

حينها كنت مخذولا، معزولا، منخور القوى، مختزل الفكر، منزوع الإرادة، منشغل بترميم ذاتي المترهلة بالدراسة الجامعية والمحصورة بين الهوان والفاقة.. في الوقت الذي به كنت متلهفا بتعبيد مسالك الرغبة العاطفية المستشطرة بأعماقي والمتشبهة بعملية الثانوي في الصيدلية، لأعين ذاتي على تجاوز أزمة الفاقة؛ ومن ناحية أخرى كنت أجد وأجتهد بممارسة التطبيق العملي كجزء مكمل لدراستي النظرية.

صيدلية المنارة الكائنة في الأعظمية أضحت مفتاح الحياة بالنسبة لي، عمقت في ذاتي مفهوم المادة، قومت ذاتي، منعنتني عن الانحراف في ظل ذلك الظرف المذل. كنت أعمل في أوقات الذروة المسائية مدة ساعتين من الزمن يوميا، حيث أنشغل بين الخامسة مساءً والسابعة أو الثامنة حسب الظرف والأمان، لزيادة الخبرة وترصين الثقة بالنفس بعملية المادة والاختصاص.

ساعدني رتم عملي هذا في وضب مفاهيم الصيدلة في الكلية، وممارسة تطبيقاتها الفعلية لما كنت أدرس من مواد، وكما ساعدتني الصيدلة على إدراك لغة الناس عن قرب، إدراك سلوكهم وطرق تعاملهم ومفاهيمهم من خلال الاحتكاك الدائم بهم. إضافة إلى تعرفي على أنواع الأدوية والعقاقير الطبية ومعرفة خفايا وأسرار المهنة وتراكيب الكثير من الأدوية البسيطة وخاصة الجلدية منها، إلى جانب الخبرة التي منحتني إياها والثقة بالنفس. عندها ساعدتني على رفد أطروحتي بالثقة والفكرة والتجربة، في الوقت الذي به حزمت ظهري بالمادة

لتجنب منغصات الحياة إلى جانب الخبرة والعلاقات الاجتماعية، والتي فتحت لي أبواب العمل على مصراعيها بعد التخرج.

إضافة إلى أن العمل يعتبر مصدر رزق إضافي جارٍ، يعينني على تحمل أعباء نفسي وتطبيب تقرحات الجروح المقرحة جراء تعسف الحصار المقيت، كان العمل قد أزاح عن كاهلي الهم والغم وزنقة الحياة الرتيبة والتي باتت تتوسع في خوائها مع توالي الأيام الرتيبة، تلك التي ضيقت دروب الرزق واللقمة الكريمة.

كما ترقت علاقتي بالصيدلية من مرحلة الرغبة وتهيئة النفس لمرحلة المحبة والإدمان، لما فيها من جوانب خفية ونزيفة أزاحت عن قلبي الضجر والقرف والملل وأسكتت مواء الوحدة التي ما عدتُ أطيق ضجيجها وصخبها في داخلي قبل ذلك... كما أن العمل بالنسبة لي بات كمن رصع أسمه على صدر الأحلام ببهاء، كصفة الجاذبية في الأحجار الكريمة، تلك المبرقشة بأضواء التهليل والتبجيل، بحيث جعل السحر يبتهج في أعماقي كقنديل سعادة مرحلية، أكبح بها جماح العقْد واليأس الملتفة حولي، جعلني أنسى الكثير من الهموم والمشاكل.

في ظني؛ ارتقت أحلامي في تلك الفترة من واقع العناء والذل لواقع الرخاء والتقييم، لمرفاً الوله، حيث صرت أقضي في الصيدلية ساعات الراحة والبهجة والألفة والرغبة والعمل والتعامل المباشر والغير المباشر مع الناس، من خلال

الاحتكاك مع محيطي الذي أعيش فيه بعد أن كنت شبه معزول عن الناس بقنوطي في غرفتي.

خلال ممارستي العمل ارتبطت بكم من العلاقات التي فيما سبق كنت أتمنى أن ألتبس نسيجها، في ظل ذلك الاحتكاك زدت بهجة وألق في عيون الناس، لذا من خلال حُسن تعاملي ورهافة خلقي تمكنت من تشعيب علاقتي مع جميع الزبائن وموظفي الصيدلية. تلك العلاقات أضفت صبغة الاحترام والتقدير المتبادل لشخصي في الشارع أو في مرافق الميادين الأخرى. كنت استشعر بذلك خلال التبضع أو التجوال في الأسواق أو خلال التجوال في خواء المدينة أو حين أقضي أوقات الفراغ في جلسات المقاهي والحدائق العامة.... الخ. لقد التمسست المشاعر الصادقة في عيون الناس، خاصة من الذين تعاملت معهم في الصيدلية.

على سبيل المثال بت أشعر باليقال يقدمني على الآخرين، ناهيك عن تقديم أفضل ما لديه من فواكه وخضار وبأسعار أدنى من سعر البيع، ذلك المثل يجري على العطار وصاحب المقهى والسّمّاك والنجار والخياط و..... الخ من مهن تحتاج إليها مثلما هم بحاجة لك، على الرغم من أنني لست من سكان المنطقة.

كنت أتألم كثيرا حين تخبرني امرأة بأن مخزونها المادي لا يكفي دفع ثمن الدواء المطلوب، على الرغم من أنها يجب أن تأخذ كورس الدواء كاملا، فأقوم بتجزئة الدواء لها محاولا مساعدتها على أن تنقذ نصف ثمن الدواء لغاية أن تستطيع

شراء النصف الآخر... وأحيانا أتنازل عن جزء من سعر الدواء بالاتفاق مع مسؤول الصيدلية.

هكذا كنت أستر الأمور وأسيرها، وهم يدركون مدى أهمية الكلمة الطيبة وحسن التعامل والرافة في تجاوز المرضى عليهم.

ومن خلال الصيدلية تعرفت أيضا على صديقي ورفيقي وأنيسي الصيدلاني عمر، الذي لم يبخل في إرشادي وتوجيهي المستمر، كونه كان أقدم مني وظيفة وأكثر خبرة في مجال العمل، لذا أصبحت الأصرة بيننا متينة وقوية، فهو دليلي في ميدان العلاقات الاجتماعية وفي تخصيص وتصنيع بعض الأدوية المستحدثة محليا داخل الصيدلية، وتسويق أخرى وخاصة الجلدية منها، ومعرفة الغاز وتراكيب البعض الآخر منها. فهو لا يكبرني سوى بثلاث سنوات فقط، لكنه بعلمه وخبرته كان يكبرني بالكثير الذي لا يقدر.

دائما ما كان يمنحني طاقة إيجابية تعينني على نجاح مهمتي وإثبات قدراتي في مجال عملي، وكذلك كان يحاول منحني ثقة تعزز ثقتي بنفسني من خلال الصداقات والعلاقات الجديدة التي اقتحمت كياني عبره، سواء من خلال العمل أو بتعاملي المباشر مع جمهور الناس، أو من خلال دمجي بشلة من أصحابه، ليخرجني من دائرة الوحدة الضيقة لدائرة الانفتاح والانفراج.

كما سهلَ عليّ دخولي مجالات الحياة العامة والخاصة حين عرفني على رفاقه المقربين له، بت أصحابه برفقة زملائه في المقاهي والسفريات وجلسات النوادي الليلية، وخاصة تلك الزمرة المرحّة من رواد المقاهي الراقين والرائقين، خيفي الظل، هم مجموعة من المثقفين من أمثاله الذين يجتمعون على الضحكة والنكتة والمرح وتبادل الخواطر من حين لحين، تجد فيهم المدرس والطبيب والموظف والفنان، والرسام.. الخ.

باجتماعنا معاً؛ كنا نمضي بتسليك أوقاتنا ببسر ومرح بحيث نزيح بها هموم الحصار والحرب والعقد الدائرة حولنا، خلالها كنا نجث أنفسنا من قيد القرف والبؤس والروتين الدائر في شجوننا، لنمضي في دروب الفرفشة والتسلية بلعب الدومينة وزهر النرد والشطرنج أو بعض الألعاب الأخرى كالبياردو والورق. رغم لقاءاتنا كانت تتم بين فترات متباعدة من أسبوع لأسبوع مستغلين أوقات الفراغ في نهاية الأسبوع، إلا أنها كانت تجدد الدماء والألفة فيما تعمق الصداقة بيننا..

كما تعرفت من خلاله على البعض من ذوات محبي جلسات السهر والخمر والسمر، والتي تختلف في تفكيرها عن الشلّة الأولى في كيفية طرد شبح الخمول والوحدة عن النفس، بحيث تسورت علاقاتي بثقافات مختلفة كنت غائب عنها، رغم حاجتي الملحة لتلك العلاقات المتشعبة، لتعريفني بخفايا المجتمع وتقريبي من هموم الناس وعقدهم.

لقد أقمّني عمر بين تلك المجموعات من الثقافات المختلفة، كأنه زرع نبتة غريبة في وسط غريب، أسقاني من نبع تلك الثقافات لتأقلم بذاتي مع تلك المجموعات، لأكون واحدا منهم في الفكر والنية والرغبة والضحكة والجدل؛ بذلك وجدت نفسي قد تغيرت كثيرا وصارت تنظر للمحيط والمستقبل بعين ثاقبة، اندمجت في صرة المجتمع دون أن أجد تكلفة في ذلك بعد أن وجدت نفسي ترتوي من منهل التجمع الراحة والتجديد، والفضل يعود لصديقي عمر وللصيدلية التي عملت بها، بحيث أنقلب كياني وتغير مزاجي وتبدل سلوكي راسا على عقب.

بفضله أضحت الحياة سهلة، متشعبة، واسعة، لها قيمة وبعد ذهني، بعد أن لمست فيها لغزها وسحرها والسعادة الكامنة في طبيعة الألوان والألفة والصحة التي رافقتها. فمن خلالها توسعت تطلعاتي وبت أصبح في فيض التغيير والتأهيل والترويض التي غيرت الكثير من عاداتي وتقاليدي، خاصة كنت قد تعودت على جلسات المقاهي ولعبة الدومينو التي واضبت عليها لما فيها شيء من التنفيس عن الذات.

بتلك السلوة الممتعة التي وجدتها ضرورة من حاجات النفس، تقي الفرد شر الوحدة والتوحد، تزكي الذات، أعيد بنائها، أغنيها بالأخبار والتغيرات الدائرة في المجتمع، حيث الفرد لا يمكن أن يستغني عن الرفقة والمجتمع طالما يعيش ضمن دائرة الأجواء المتقلبة الدائرة حوله...

مثلما قيدني بطوق الصحة وبالتغيير الحاصل في أجواء منهج الحياة الاجتماعية، والتي بت أتوق لها وأمضي خلفها وأحسبها

من أسس بناء كيان الفرد نفسيا وصحيا، لديمومة بهجة الحياة وتوسيع مرافقها؛ كذلك أحيا في أعماقي الحلم ببذر الرغبة في طرق الغزل، تلك التي كنت قد أوصدت أبوابي بوجهها، بعد أن وشللت طاقتي وبيست أغصاني بفعل قسوة الحصار ومرارة ظرفه اللازب، وطالما بقيت تلك الغمامة تمطر علينا سقما وهوانا وموتا بطيئا تنسينا أحلامنا وأسامينا...

بدخول عمر لعالمي؛ توسعت مداركي وتغير مزاجي، بحيث بت لا استطيع مفارقتة لما له من تأثير إيجابي واضح على رقد أفكارى بسلسة خيوط المعرفة، وأسناد ذاتي الخامدة بثقة التجديد والحيوية، وبتشعب العلاقات مع المجتمع.

أضحت التسلية جزء من إرهاصات الرغبة في ممارسة الألعاب المسلية مع عناصر الشلة الضالة، هكذا كنت أسميها لتضييع أوقاتها في دروب التيه بحثا عن لغز سعادتها، وكان من حقها أن تسلك ذلك المسلك بعد أن أغلق المحتل كل منافذ الحياة بوجهها. هكذا كنت أراها وكنا نعمل سوية لتغليف الظرف بطابع امزجتنا المرحية. قلة منهم من يستسيغ لعبة الشطرنج لما فيها من تفكير وهدوء وجمود وتكتم للأنفاس التواقة للفرشة، لم أجد فيهم من يشاطرنى تلك الرغبة، وكثر منهم لم يمارسوها في حياتهم، وبالذات عامر زوج شقيقتى مريم الذي صحبته معى وعرفته على عناصر الشلة ليزداد عددا..

مع اندماجي بأفراد الشلة؛ انخرطت أهوائى تدريجيا في أجواء الدخان المغرية، زاد ولعى وتشبثى بشوشة وقرقرة النارجيلة

التي بت أدخنها واستسيغها أحياناً، كنت أشعر بذاتي قد تجاوزت حاجزاً نفسياً شائكاً بتدخينها وفي واقع الحال كنت انزلق في هوة العقد دون أن أدرك لما فيها من قرف الدخان الذي يغشي الرئة بالأمراض العديدة.

كنت أتجنب الدخان بأشكاله، بل كنت أكره المدخنين والتدخين بشكل عام، إلا أنني مع المجموعة دخلت في حالة التصاهر والتسامي حتى صرت واحداً منهم، بل تحولت في بعض السلوكيات لأبن الشارع والمقهى أكثر منهم، أخذت منهم طباعهم السيئة دون أن يتأثروا بجميل طباعي. لكني كنت أنظر للحالة كمرحلة مؤقتة، كبضاعة أتاخر بها لأربح منها سعادة آنية افتقدتها. جعلتها كطابع اجتماعي أو مشاركة لا أكثر، أكثر من كونها طابع وفلسفة وتدخين اشغل بالي بها، لم أراع الذوق العام والأضرار بالصحة التي يترقبها البعض لضيق الفرص.

فالنارجيلة بذاتها تحرق الذوات بشرر جمرها؛ تضيف على المدخن شعوراً بالرفعة والأبهة، تنقله لصيغة الإغواء والاسترسال والنشوة، لسفر في عالم الخيال، على الرغم من قرف وعطن وشناعة دخانها وسمومها، حيث أحيانا تأثيرها نفسي يفوق قرفها، لذا تجد الأقبال عليها.

بدخولي في أجواء الزمرة، كأني انتقلت من فج لفج، من مرحلة لأخرى، من زمن داج لزمن ترفع وأضواء. تأثر السلوك بتعربي على فلسفة الحياة الجديدة؛ كأني دخلت على خطوط الطول والعرض الواسعة لخريطة الحياة الجديدة

بارتياد النوادي وأجواء السهر والتبجح والتخور والتخيم خارج شخصيتي الحقيقة، لأبجح لعالمي البائس قناعة العالم الآخر، المكنون في مخزونه ثروة وإثارة من مآثر الحياة التي لا أعرفها ولم أجربها، أو لم أتعرف عليها فيما سبق، أو تجنبتها من باب الكرامة وعزة النفس أو من باب قلة العلاقات والمادة. كتلك التي تشتت دخانها من مداخنها لتُكوّن هالة تدمر وصخب دائمة في أفكارنا، لتتقلني بذلك الفزع لأجواء التيه والخيال وتأمل الغد والتخاطر بالمواقف المحذورة وتجريب السنة نيرانها مع نسيان حقيقة الذات التي أركبها. هكذا دخلت أجواء الشلة لتتقلني لزمن تشطيب الفكر والقلب من درجات الوحدة اللعينة وعقد الماضي التي تكبلت بها بانعزالي والتي كنت أعاني منها. والحقيقة تلك ليست أفضل خياراتي ولكنها كانت متاحة أمامي فسايرتها.

كما أن الألفة الحسنة بين تلك الشلة قد أذابت شحوم العزلة والوحدة من على الذهن، قتلت دودة الكآبة التي كانت تهرش المخ والقلب وتآزم الذات بطبع الخمول والكسل، جزلت تلك الأجواء المنحدرة بنا نحو المجهول مثلما جدلت المآرب وأسرت الهواجس بالرغبات المعقولة..

ما كنت أدنو من الغواية أبدا، لولا إلحاح عمر الذي لوى رغباتي وصيرها في واد ظنه دون أن يفرض نفسه ورأيه من حيث المبدأ، حيث كان لأسلوبه السلس وسلطان شخصيته ومرحه الدائب الدور في قرص أذني وفرض ذاته عليّ. كان له أثرا كبيرا بترويضى واندماجي بالشلة التي يصاحبها.

فعلا كان قد أخرجني من قمقم الزجاجاة، من قوقعة الروتين
لعالم الفرشاة والتجديد والتأقلم مع تلك الشلة، أزاح عن كاهلي
وشاح الجفوة والخواء والعناء، انتشلني من التيه الذي ما عدت
أطيق زعيق صوته وأنا قابع بسكينة دون أن استطيع تغيير
واقعي المريض لواقع أرفع. هجست به كيحسوب أمتص
رحيق فكري وشغف قلبي دون أن استطيع مواجهته، جزل
عني كل ما كان يرهق فكري، جعلني أتوقع بكعوب الظن
والحيرة المنهكة خلفه.

5- أقبس الشلة

رغم أن تلك الفترة التي تميزت بصعوبة ظروفها وقصر زمنها، إلا أنها كانت قد مرقت على ذاتي كحلم عابر بحيث ولعي وألقتي مع الشلة ارتقت حلاوتها وتشعبت منابتها، امتزجت في شؤونها وشجونها، أودعت في نفسي السرور والمتعة، نقلتني من واقع الخمول والجمود لواقع آخر متغير أكثر جاذبية، أشبه تلك الفترة بعمل الحمامة، بحيث بارتباطي بهم كأنما تمكنت من إخراج الدم الفاسد وقيح الكآبة المرة من تفكيري وهوان كياني المنغصة بالوحدة لمصافي التحسس والتأمل والرفعة. تلك الشلة نقلتني لواقع الحركة والتظاهر مع المحيط الذي انقطع عنه فترة طويلة من الزمن.

كانت الشلة تتكون من مجموعة طيبة من الرفاق - سالم وفهد وعامر وعماد وعمر وحسن وجواد وأكرم ورضا وليث- على الرغم من أن تلك الألفة لم تدم طويلا بقدوم المحتل، حيث تشتت وجاشت تبحث عن ذاتها في خواء الأزقة ومنافذ النجاة، ارهقت بتدبير أمرها، أنزوت خلف الأهوال تبحث عن الأمان والرجاء وصفاء الذهن، حيث كان المحتل قد دمر كل شيء، دمر ما في النفس من عزة وكبرياء وفي البلد من حصون وقلاع وطاقات وصروح والفة. كان قد حشَّ الرؤوس اليانعة، جَزَّ مرافق الحياة على حين غفلة، بث حالة الذعر والذل والهوان في أرجاء المجتمع. يؤسفني بأن تلك العقدة كان قد أشترك بها بعض الخونة من الداخل والخارج نزولا لرغبة أمريكا والمصلحة الشخصية.

ما أن أحتل العراق حتى أصفرت الوجوه، ماتت البسمة على الشفاه، فرضت الشتات على الأسر، وعلى الذوات والنفوس الراقية. ماجت صبيغة الغل والذل في الميادين العامة والخاصة، بحيث لم تترك تلك الآفة بقعة هادئة إلا عاثت فيها فسادا. لم ينجو من سطوة المحتل وأعوانه من الخونة إلا من ظفر بروحه وتجاوز أسيرة ذاته والوطن، لينزوي خارج حدود الواقع المرير الذي فرض على الشعب العراقي. أو من باع ذاته ودمته وأنتى لفصائل الجرم التي جاشت في البلاد بدعم لوجستي أجنبي.

المصيبة التي حلت بالوطن؛ جلبت إلينا شتى أنواع المتاعب، بحيث أصبحت جزءا من الواقع لا يمكن التخلص منها إلا بمعاقبة ذواتنا بها. لقد خرت عقولنا، أضحينا كالطيور الفارة من أعشاشها نبحث عن ركن يأوينا، لا ندري إلى أين تذهب بنا الالهواء وأين تتجه، صار الكرب يتبعنا والفرع يغزنا ويزاورنا ويهز سرائرنا أينما نكون.

رغم كل ذلك؛ كانت فترة ارتباطي بالصحة المذكورة واندماجي بها تعتبر شيئا مغايرا لما يدور حولي، معاكسا لجريان الحالة العقيمة التي مررنا بها، كانت لتلك العلاقة الحميمة وقع إيجابي على شخصي وشخصيتي وحياتي الخاصة، بحيث بت التمس تبدل طباعي وسلوكي وشكل قيافتي في عيون أصحابي.

بعد أن تحطم زير الوطن وتبدى مائه، أصبنا بالظماً، لم نستطع العودة لكراسي السهر من جديد لمزاولة لقاءاتنا وتنعيم

ذواتنا التي تخشبت أضلعها بفعل الانزواء والخوف المزروع في دواخلنا وفي الطرق والشوارع التي صارت أشبه بجبهة حرب مع عدو مجهول يتبع ظلنا.

كان الاحتلال قد دمر كل شيء في البلد، قتل الفرفشة والضحكة والمرح في النفوس، بحيث أنتشر الوجل بشكل مريب، تشظى في الأنفس والعقول قبل الساحات والشوارع والأزقة، يكاد الموت يكون شاخصا أمامك دون أن تدركه أو تراه! كأعمدة النور المزروعة في الطرق وفي الأماكن العامة! يتربص بنا من حيث لا ندري كالقمامة المنتشرة في أرجاء المدن والتي تفشى ننتها في الأنوف، بات يتبع الانفس البريئة، لا بل صار يدخل البيوتات دون أستاذان، يهفو إلينا من الشبابيك والأبواب على حين غفلة من أمرنا...

لم نستطع إعادة جمع شملنا من جديد، حيث لم تكن حينذاك هواتف النقالة منتشرة بين الناس، ولا توجد شبكة نت قوية في البلد، حيث كانت تغذيتنا تأتي عبر الاردن وتركيا وإيران مقابل أموال باهضة، كما توقفت خطوط الهواتف الأرضية وانقطعت الكهرباء عن مصادرها نتيجة حرق محطاتها الرئيسية. أي كنا نعيش عيشة العصور الوسطى.

كان النظام السابق قد منع عنا كل جديد في ما يخص تطور الاتصالات، مثل الساتلايت واطباق الصحون (الدش) لمشاهدة تلفزة الدول الأخرى، كما أن الحصار منع عنا دخول الموبايل والأجهزة الحديثة. لقد أضر بالبلد كثيرا، فلم تدخل إلينا التقنية إلا بعد سقوط الانظام واحتلال العراق. في تلك الفترة التي بها

أصابنا الجمود؛ كان العالم قد تقدم من الناحية التقنية والعلمية تكنولوجيا بشكل مذهل وسريع بما يعادل ما حصل من تطور خلال قرن من الزمن!.

سرعة التطور الحاصل في مجالات الحياة وبالذات بما يخص تكنولوجيا الاتصالات وشبكات الأنترنت كان مذهلاً، وبالذات عالم الكمبيوتر والموبايل والكامرة، بحيث نقلت الحياة من واد معقد لواد سلس ينعم بالبساطة. خلال عشرة سنوات الأخيرة من الألفية الجديدة كان قد صغر حجم العالم كثيراً، بحيث أصبحت الكرة الأرضية في نظر الفرد بمثابة قرية صغيرة يتجول بها الفرد وهو جالس في بيته، أصبح بإمكان الشخص أن يتصل بالآخر خلال ثوانٍ فقط، عبر برامج سوشيال ميديا (Socialmedia) مثل الفيس بوك وتويتر وسناب جات والواتس آب. والكثير من برامج التواصل التي لا تُعد ولا تُحصى....

لقد جاء الاحتلال بكل الكوارث والدمار، ولم نلتصم من قدومه حسنة سوى إدخاله شبكات النت والموبايل في أفق حياتنا بعد ان حبست عنا بسبب الحصار.

وفي ليلة من ليالي الصيف الجميلة بعد تخرجي من الجامعة وقبل قدوم المحتل الغاصب بأشهر، كنا مجتمعين في سهرة من سهراتنا اللامعة في مقهى الليالي الجميلة في باب المعظم، حينها فاجأني جواد بقرار كان قد أتخذهُ بذاته، كانت المجموعة قد علمت به مسبقاً إلا أنا، حينها قال:....

- أكبر مصيبة يا صلاح ههههههه، والمشكلة صاحبها لا يعرف بأنه قد تورط في مصيبة... ههههههههههه.... ثم أردف قائلاً:....نتيجة تمارديه وتسكعه المزمّن في دروب السهر والأماكن المشبوهة، قد تم القبض عليه متلبساً، وغدا سيدخل السجن المؤبد يا صلاح... هههههههه.
- ماذا تقصد يا عمر؛ أفصح؟
- يوم غد سيدخل القفص الذهبي، وسيحاسبه سجانه عن كل هفوة يرتكبها أو أذا ما عاود تسكعه وتمارديه في خروجه وسهره.... تكلم بذلك حسن..
- أيه يا أخي خبرنا من الأول... ألف مبروك هههههههه. تصورت قد تورط بجناية أو ورطة ما جنت عليه النفس الامارة بالسوء.. هههههههه.
- غشيم؛ ترك مسرحنا الباسم الأمين وفضل القفص اللعين. لقد غدر بنا ابن الأوادم. هههههههههههه...قال ذلك حسن.
- لا تلوموني يا جواد أن كنت لا أعرف بخبر زواجك، في الظاهر لازلت لم أرتقي بعلاقتي معكم لدرجة الثقة، لازلت أتمعن إليكم من خارج السور، ربما أحتاج لزمن أطول لتترسخ الثقة وأكون عضواً حقيقياً في المجموعة! لذلك لم يخبرني أحداً بزواجك، حتى أنت لم تتجراً بذلك... هههههههههههه...
- هؤلاء الحثالة لم يخبرونني وكأنني لست عضواً في شلتهم التعبانة، ههههه، على كل سامحني... الف

مبروووووك وبالرفاء والبنين مقدما-- لا ألومهم وإنما
ألومك أنت يا رأس الثعبان (مشيرا بيدي إلى عمر)...
يا أخي خبرني أنت يا جواد على الأقل تخسرني هدية
زواجك. ههههه.

- يجب أن تكون حاضرا يا صلاح، أنا آسف لم أخبرك،
لأنني أعتد على الشلة الفاسدة، فلا تفكر إلا في
بطونها-- فعلا أنها فاسدة هههههههههه.
- بأذنه تعالى سأحضر بالوقت المناسب، أنا وهذه
الشوكة (مؤشرا بسبابتي على عمر).

إذا كنا قد فقدنا عنصرا نشطا، مرحا، من عناصر الشلة الرائفة، تلك هيَّ سنة الحياة، لابد من أن نطرق دروبا جديدة ننقصها أو نتقصدا بين الحين والآخر، تسلطنا من قبضة الزمن وقبضة بعضنا البعض كالشعرة، سواء كان ذلك بإرادتنا أو بغيرها. قد تكون للحياة دروب عمل جديدة ترتقي بنا كالزواج أو النقل الوظيفي أو السفر أو ما شابه ذلك...الخ.

كما أن للبيت قدسية يجب مراعاة حوائجه ومداواة مشاعر الزوجة، فلا داعي للتبجيل بكثرة السهر المتكرر، ولا للتلهيل في بذخ الأموال والمغالاة بالصحة على حساب سعادة البيت، سواء كان ذلك في النوادي أو في المقاهي، نسحق بها مشاعرنا وذواتنا على دكة الطيش البلهاء دون تخطيط.

كأنَّ جواد في زواجه قد فتح صنبور الهم على رأسي، بزواجه قد تخطى حاجز أرق ذاته ولا يمكن التراجع عنه. كما انه

ترك عقدة لوعته وحسرات خلفه، كتلك التي جثمت على
فؤادي.

بزواجه كان قد كحل عينيه بمرود السعادة، فيما كحل عينيَّ
وعين مَنْ تبقى منا عازبا بمرود الحسرة والتأمل، وأن لم يبدو
ذلك سويا على سلوكنا. ترك في اشدقنا جفوة ومرارة تلغ في
الذاكرة، أعاد لي وشاح العزلة لجادة الوحدة..

كأنه بزواجه قد أزاح عن جدران القلب أوراق أغلفة قديمة
مهلهلة من ورق العذاب، ليجدها بأوراق مهفهفة فرحة من
ورق سيليفون السعادة. ولعدم مقدرتي على تصنع السعادة
والفرح كما يفعل البعض، أهجس بأن عمر قد جس لهبة
الجمرة والحسرة التي استشظت في حذقي وحقق حسن
وأمير، والتي جزلت عني هدوئي، أو التي بت أتسس
حرارتها وهي تلغ في فاهي بعد أن طرأ أثرها على محياي،
لتفسد شيئا من مزاجي.... حينها أستعاد جأشه وغير مجرى
الحديث، فتحول من فرح الزواج إلى ضرورة التجمع والتهيؤ
لمشاركة زميلنا فرحه، لنكون في مقدمة مهنايه أمام الناس في
مساء الخميس القادم.

كان عليَّ أن أخطو خطوات جواد لتصنيع ذات جديدة توائم
عمري ورغبتني، تجعلني أشعر بلذة الحيوانات دون الحاجة
للغوص في بطون السهر والعريضة، كان عليَّ أن أجازف
وأتنازل قليلا عن سقف رغباتي، لأزيح ركم الهم من فوق
صدري الذي ما عاد يحتمل ثقل عزوبيتي، ولا أتقبل علامة
فشل أخرى تعمق جراحاتي القديمة التي لم أتطرق لها.

لذا بقيت أتأمل في استعادة ثقتي ورغبتني وحلمي من مخالب الزمن بصمت، داعما فؤادي بعماد الصبر الذي بات يشف ماءه. لم يعد كما كان كصبر البداوة بتحمل الأناة. ليس حسدا ولا غيرة، أنما تشفيا بذاتي المريضة، بذلك النقص الذي عانيت منه والتمست برودة ظله، أشعر به متغلغل في أعماقي، معشعش في شعيرات جسدي كالبكتريا الضارة، لا يأبى أن ينفك عني.....

ربما ذلك النقص طفح من هيافة الظرف، ربما شظ وتكور من شوائب وركم العقد المتراكمة في شخصيتي، لذا أشعر به مكفول برهق يرهقني، أو بخلل في سعرات الثقة تحيل شكوكي لدبابيس تشك قديمي، تعيق سعبي. تجليني إلى التوصل عن الظرف والحظ المهموز بين الحلم والواقع.

دائما ما كنت أحاول أن أبحث لذاتي عن ذريعة أو عن دواء ناجع في عيون الآخرين، محاولا أن استخلص طرق من واقع تجاربهم لعضد تجاربي بلحاء تجاربهم، لأفرش بساط يُمّن يُلهم أفكارني ويُنعش أحلامي.

قبل جواد كان قد ترك الشلة رافداً؛ الذي ودعنا هو الآخر ليلتحق بالخدمة العسكرية بعد أن استدعي لخدمة الاحتياط للمرة الثانية، ليرابط على حدود البصرة أشهرا، أو ربما سنينا حسب مزاج القيادة والظرف. هكذا بدأت تتفتت سلسلة الشلة دون تخطيط.

ولكن لتوالي العقد التي نبرمها بأيدينا أو التي تبرم حولينا، لم يعد للزمن مقياس معروف نفك بها تلك العقد. ما أن يندمل جرح قديم؛ حتى يلهينا جرح آخر اشد فتكا، ينبثق من رحم العناء، يحقن القلب بالوجس، ثم ينتبذ بحق في الذهن كفكرة، قبل أن يبرز وينفجر على شكل دماغ تشوه وجوهنا...

هكذا نصنع الفكرة بأيدينا، نتوقعها بشكوكنا، وما هي إلا فترة وشيكة لتشذ من بين أياديها إلى الملاء كحقيقة، لا تولد بشكل من الأشكال الغير مألوفة من الرحم العقد كواقع نتقبل غيظه.

توقعنا حربا مع الجارة إيران بعد المشادات والشتائم بين قادة البلدين، بعد فترة وجيزة صدقت توقعاتنا. وما أن أنفضت معمعة الثمان سنوات العجاف، وما أن بتنا ننفض غبار عصف الحرب عن أحلامنا؛ حتى غصت أقدامنا في مستنقع الكويت بعد مخطط فخ وضعه الأمريكان بغل بعد تحرشات الكويت بسيادة العراق. هكذا تلبست إرادة الشعب بالمعوقات فسلبت وتقهقرت الإرادة دون رادع، انتهكت مقدراتنا وحقوقنا وأراضينا، سلبت خيراتنا وتراثنا، فأنحدرت بنا القيم والأخلاق والاقتصاد مع انحدار العملة نحو الهاوية دجاً، من قمة الرقي لحضيض السقوط والانتكاسة.

انتكست قامتنا، قضينا نصف أعمارنا ونحن ننتحب من الجراح والتوجس من قدوم الغد، بتنا نشعر بغله وإجافه قبل أن يحل، بسبب سوء التخطيط والتفرد بالقرار والتكبر. الوجل والخوف والمهابة غرزت في دواخلنا، رافقتنا في ظل

الاحتلال، كأنَّ الزمن قد ضمّر لنا المفاجآت لتدوي في دروبنا بالتتابع.

والحقيقة مأسأتنا تولدت بسبب تخطّطات الكراسي ببعضها، حيث لن يتزحزح رئيسا عن كرسيه إلا بانقلاب أو بثورة أو باحتلال غاشم!! المشكلة ليس في الشعب المغلوب على أمره، أنما في العقد التي تبطن نفسية حكامنا.. المشكلة الحقيقية هو أن القادم من الرؤساء لن يرعوي من سلفه، يركب ذات السروج والحمير بذات الأخطاء والشعارات المزيفة دون تغيير، فيمضي بنا كالأعمى على سراط سلفه إلى الهاوية. لقد عشنا حياة تخلف وتشرد وامتعاض وتخدير وترهيب وتهجير، حتى بتنا نستنتج حال الغد من نتن حال اليوم...

الأمس الذي تَوَارَى في سكرة الخَمرة؛ اِشار لنا بالبنان لما نحن عليه من سخط وتخطّط. هكذا يبرز الظلم والقسوة والتشردم والانفلات وسوء التقدير والإهمال وقلة المعرفة وقلة الخبرة والتراخي والنوم في أحضان الدول الكبيرة، وعدم مراعاة قيمنا وأخلاقنا وتقاليدينا وأصول وقيم ديننا الحنيف، عدم التمسك بشرع الله أودى بنا إلى ما نحن عليه اليوم من تخلف وتأخير.

في حياتي الروتينية، وفي مراجعاتي اليومية، دائما ما كنت أعود لكرسي الدراسة بشيء من الحسرة والندم، لأنفحص صفحات الذاكرة، أداعبها بذكريات تركت أثرا في النفس،

ألتمسها بشيء من الندم، أتأوه على ما فات وما فقد منها،
أحاسب نفسي على رعونة سلوكي وشططي وعدم
مبالأتي... الخ... هكذا أعاتب ذاتي المريضة التي ما أنصفت
نفسي وغايتي بما تعينها على الاستقرار والتأمل....

آه لو عملت هكذا... لأنتهي بي المطاف لكذا وكذا... بت
أخسر وأفتقد دفء الشمس وأنا في أمس الحاجة لها. آه
لو.. لو.. الخ. لكنك ولكنك.... الخ.. حتى أهجس كأني أقع
عيون الغد البصيرة بسهام الشك، مستندا بمُهن على معاناتي
المحرجة، وكأنني بها أخذش جلد الألم بأظافر ذاتي
المضطربة، فأثير في أعماقي وجعي وآهاتي.

دائما ما كنت أقلب صفحات أيام الخوالي خلال وحدتي،
أبحث فيها عن قشور تلك الأيام وعن ما بقي منها من لمعة
في الذاكرة تذكرني بالجواهر التي افتقدتها، دائما ما استذكر
لحظات الهيام التي لم أستشعر بها في حينها إلا بعد أن فقدت
حينها. أو التي أهملتها بقصد أو بسبب كبريائي وعزة نفسي.
لا ادري ما كان يصيبني حينها وما كان يجعلني أن أتجاوز
فتنتها، لذا أشعر بحزن حين أستذكر كل ما ضاع مني في
لحظة غفلة أو تجني.

وها أنا الآن أبحث عن مصوغات تلك الفترة التي لم أكن
متزنا فيها بظني، عن لحظات التوحد التي مررت بها،
أحاسب الذات عن لحظة الجبن التي كبلتني وطالت قدرتي،
عن الخمول الذي طوى غايتي، عن الإهمال أو الخجل الذي
عبث بأسفاري.

كنت أجد في ذلك شيء من تأنيب الضمير أسلي به نفسي، في الوقت الذي به أعاتب حظي على كل الخسارات التي طالتني.... لكن حين أنظر لتلك الفترة من النظرة الصوفية أو السلفية؛ أقول أنه قدر مكتوب وعليّ تقبل الحالة على ما هيّ عليه مع كل المنغصات التي المت بي. هكذا أشطف الحزن من الوجه، لأعيد رسم البسمة في مساراتها الصحيحة.... لأن الله يحدثنا في كتابه الكريم بصيغة الماضي حيث يقول سبحانه " أتى أمر الله فلا تستعجلوه" وكيف نستعجل أمرا مضى؟ وهذا يعني بأن كل مستقبل عند البشر هو ماضي عند الله كان قد تحقق، وما نحن سوى أدوات نتحرك دون أن نشعر بذلك. هكذا يفهم المسلم حياته، وهكذا وددت أن أجزل مخلفات أمسي، وكذا وددت تجريد عقلي من حالة الغفلة والإخفاق التي مررت بها دون وعي، لأتمسك بفتنة هبة.

دائما ما أعاتب ذاتي على هواني وسر تأخري عن الركب العام، وبالذات عن الشلة التي صحبتها، أهجس بالنقص حيال ذاتي إذا ما قارنتها بهم، هكذا أجد الفترة كحالة مبهمة غرست في تركيب ذاتي، تكاللت بصيغة ما في مخي، ثم انزوت بأعماقي، فحالت لصيغة تخاطر مع شجوني لا أعرف تفسيراً لها. ما أن اذكرها تجعلني أشعر بإحساس تصغير لقامتني أمام الآخرين، على الرغم من أن ذلك الإحساس هو مجرد وهم يشطر إحساسي على ما صرت عليه من وحدة وتوحد لا يشعر به أحد سواي أنا، حيث كل شخص له غصة في حياته ولا يريد أن يظهرها على الملأ..

أقول لو أني تحركت عن موضعي قدر الإشارة التي التمعت أمامي بتلك الفرص التي أتاحت لي؛ لتغيرت صورة حياتي بدرجة أو بدرجات قياسا لذاتي وقدري الحالي. لتبدلت نظرة الناس إليّ، لتغير شكل الزمن ولونه أمام متطلباتي ونظرتي المستقبلية. لتغيرت مجمل عناصر حياتي وصفاتها وتعبيرها لتتوافق مع شكلي ولساني وصيغ تفكري بشيء من النرجسية والفوقية... لربما كنت الآن أسبح في سعادة تطير فوق السحاب، أو أبحر في قدر يساير الركب. فأنا بطبعي لا أحب القنوط والتوقع في مكان ثابت، لا أود أن ألصق بحالة الجمود كحجر الصوان، لا أريد أن أستنشق دخان الفشل... بصراحة؛ أني لا ألتمس عذرا لذاتي في تسييب وإهمال رغباتي أمام الفرص التي أتاحت لي في أوانها. أشعر بأنني قد أضعت مرحلة الشباب دون متعة، فلم أطرق أبواب متطلباتي ورغباتي، ولم أطرق إلى الرغبة الحية من باب رجائي إلا متأخرة جدا، إلا في الفرصة الأخيرة من الوقت الضائع. وكأنني كنت نائما في سبات عميق، فلم أصحى إلا بعد أن لسعت قامتي شمس الظهيرة، إلا بعد أن جرفت السنين التربة من تحت القدم بظهور فتاة الكاظمية في ذلك النزق.

أه منك يا سلمى! كم كنت أنيقة ورقيقة وجميلة تنهرين الجميع في أناقتك وطلتك... كم كانت تعجبني سيقانها المبرمة المسحوبة بدقة كقالب ثلج من الورك حتى الكاحل بذات الأناقة والجاذبية واللعة. بمفاتنتها خَضَبَتْ الأهات في صدور العشاق حين تتمخطر في مشيها داخل رحاب الجامعة، تهجس بها كطائر الطاوس المعجب بكبريائه، الكل ينظر لها بعين

العجب. حيث دائما ما كانت ترتدي تنورة قصيرة فوق
الركب، كأنها تستعرض فتنتها كملكات الرقص جيئة وذهابا،
كانت جريئة في لبسها وفي تحرشها بقلوب الشباب مع
احتفاظها بكبريائها. على ما أظن أنها كانت تتقصدني في
اختيارات لبسها، لمعرفة الأكيذة بحسن وسحر سيقانها،
وأظنها تعرف جيدا مقدار الفتنة والجمال الذي يركبها، لذا
كانت تبرز تلك المفاتن للملأ لتغزبها الآخرين ولتغرز الأثارة
في عيون متتبعيها الشبهة. وأكيد هي تدرك بأن أكثر ما يجذب
الرجل بعد ملامح الوجه سيقان المرأة، ولن أنسى صديقي أبو
مرادي الذي قال لي يوما:....

- المرأة عالم عجيب !

فقلت له :....

- ماذا تقصد يا أبو مرادي؟...

قال:....

- لا توجد امرأة في الدنيا ليست جميلة، لابد أن تجد
فيها عضو ما يشدك إليه بشكل جنوني.. شيء ما في
وجهها أو طولها أو لون بشرتها أو تركيب سيقانها أو
فتنة عجزها أو صدرها وتكور ثديها.. الخ، وأن كانت
تفتقد كل ذلك تجدها في ذاتها حلاوة النفس ولسان
رطب وملاحة وخفة تجبرك على الاهتمام بها.
- وأنت ماذا يعجبك في المرأة؟

أحيانا بشكل لا أراذي كنت أسير خلف سلمى، أطاردها دون شعور ودون أن أقرب من الخط الأحمر الفاصل بيننا، أتلذذ بتلك السيقان والتي كنت أتمنى مواصفتها معي في دفتر الذاكرة لأتصفح سلاستها بأحلامي الساذجة، وبالذات حين أضع رأسي على الوسادة فأغرق بتفاصيل أنوثتها، أتمسها بخواطري، أذهب معها بعيدا لوهدة الجنون، حتى أغرق بحالة الإستماءة بخيلاء طافش؛ على رغم من أنها لم تكن من ذوات البشرة السمراوات، لكنها افتنتني.

كانت ترهف فكري وتنعش فؤادي فيأخذني هيامي بها إلى حالة من عدم الاستقرار تدفعني نحوها، في محاولة لكسر حاجز الخجل الذي يمنعني من الوصول إليها....

هكذا كنت أستعد لها، أشد ذاتي لليوم التالي، حيث أقرر كسر ذلك الطوق الذي يحيلني عنها، أهيم بمصارحتها...في اليوم التالي حين تقترب اللحظة؛ أصاب بحالة الجبن. أجب، أراجع عن سعبي، حيث أشعر بذاتي مقيدة لا تتجرأ أن تخطو خطواتها التالية. حينها أدرك باب الظن فأقف بمحاربه كصنم عارض، لا أتجرأ طرق بابها، فأعود خائبا إلى واقعي، إلى حيث تخوري وشرودي.

لقد خذلتني روحي، خذلتني ثقتي بالنفس في مواضع عدة، لم أستطيع كسر قيدي وتجاوز وحدتي، تلك هي النقطة السوداء التي بقيت معشقة في مسيرة حياتي، تلك هي الحقيقة التي لم استطع أتجاوزها والتي لم ترتقي إليها خواطري.. ذاك هو السجن الذي آواني وجردني من متعة الحياة، صارت النتيجة

بقوامها تجلد الرغبة في مشاوير حياتي الباقية باستمرار... تلك هي المعضلة التي كنت أشكو منها، والتي أعاققت سعيي في مشاويري، أضحت الحالة واضحة تماماً لزملائي، الذين شخصوا نقاط الضعف والقوة في شخصيتي، وفسروا نوعية سلوكي وجرين طبعي في المواقف المحرجة..

في إحدى المرات نبهني الأستاذ الذي هو الآخر كان قد قرأ صفحتي المفتوحة بشكل مفصل، حين نبهني على وضعي الجانح خارج سرب الطلبة حيث قال لي:.....

- أنتبه يا صلاح؛ يجب أن تخرج من دائرة الوحدة الضيقة، أن تكسر الطوق الذي يقيد ذاتك، ذلك القيد الذي يجردك من تحقيق أهدافك المستقبلية، ذلك الخجل الراسخ في طبعك هو سيف يحز رقبتك، أني أخاف أن يمضي معك طويلاً حين لا تجد مرفأً ينقذك، يجب أن تتحرر من قيد الخجل بأسرع وقت، فإذا ما أستمع معك سيجردك من لدانة الحياة ومن شخصيتك وطيبك. إذا ما نضجت الفكرة المعاكسة في رأسك، ستتحرف وتشذ عن القاعدة، ستلوم نفسك وقد تلام من قبل الجميع، فلن تجد حينها من يؤازرك. هذه الفترة هي فترتك لتكون فارساً في عين من تتأملها وتتأملك، فأن خسرتها قد لا تجد المرأة فيك غايتها..

أحذر من أن تنضج الفكرة في رأسك دون إرادة أو بإرادة مشلولة يطوقها الخجل، ربما تأتيك حالة الحب في حياتك مرة أو مرتين، وقد تأتي متأخرة في زمن

لا يلائم عمرك، حينها ستشعر بالضعف والهوان،
سيدفعك ذلك الشعور إلى البحث عن الغاية في جوف
المستحيل ولن تصل إليها، ستندفع بشدة نحو المأزق
فيحتاج محيطك العجز كسيل جارف نحو ما تحيط بك
من كواعب وفائنات...

هذا ما سينعكس عليك بالسلب وبسوء السلوك
والتصرف، حينها ستكنى بالعاشق او المجنون،
ستصنف بالشاذ في نظر المحيطين بك والمقربين منك.

عليك أن تلين طباعك من الآن، لتتجراً في طرح
نفسك أمام من تحب بسلاسة، يجب أن تتحلى بالجرأة
والشياكة، أدخل لنوادي الجامعة، أصحاب الفتيات،
شارك في المناقشات والمحادثات العابرة والمخصصة
أو المعدة مسبقاً، أندمج مع زملائك، خالط زميلاتك،
أرفع عن وجهك خمار الخجل، أنشرح، ستجد ذاتك
تتفوق على نفسك البائسة وعلى الآخرين من زملائك.

على ضوء تلك النصيحة صرت أحاسب ذاتي مع نفسي
باستمرار، حتى قبل تشخيص الأستاذ لحقيقة معاناتي، كنت
أفكر بكيفية إخراج ذاتي من هذه القوقعة؟ كيف أكسر هذا
الطوق الصلب؟ كيف أبدأ المشوار ومع من أبتدى؟.... هكذا
كنت أعيش يومي مهووس بالمعاناة، وكأنَّ الأستاذ كان على
حق حين وضع النقط على الحروف. حيث كانت وجهة نظره
دقيقة فأصاب الهدف، فأنا الذي لم أستطيع تشخيص الحالة
بشكل جيد، أنا الذي لا أعرف كيف أتصرف في لحظات
المواجهة، أو لا أستطيع تعريف نفسي بتعابير العصر المرنة

للآخرين، كنت أحسد زملائي بالكيفية المطلقة التي يتصرفون بها....

حينها قررت أن أبدأ من حيث أن أنتهى الأستاذ، وذلك بالبحث عن الوصفة الناجعة لتجاوز أزمتي، أن أزيد من شعب علاقاتي، أن أندمج بزملائي وزميلاتي، أشتبك في النوادي وخاصة الثقافية والرياضية منها، لأنها فعلا تفتح المجال الذهني والبدني على أوسع نطاق وبذلك أتمكن من كسر طوق الخجل الذي يلازمني....

أحيانا يكون لصديق سوء منفعة في تكملة ما لا تدركه إرادتك، فيشرع بتلوين واجهة طبعك بالألوان التي تتأملها كل فتاة، والتي تشعرك بسعادة ما حتى لو كانت أنية. وإذا ما تجاوز في سلوكه الحد العام، يمكنك تجنبه وتجنب أضراره...

يجب أن تكون الحياة أشبه بقوس قزح من العلاقات، لنستمتع بكل الثواني العابرة في محور العمر، وكنت في يقيني قد قررت أن أجعل صورتني في عيون الآخرين تحمل صفة طيف الشمس، لتنعكس سلوكياتي على صفحاتهم وفي عيون الجنس اللطيف بالذات بذات الكيفية التي هم يرغبوها، وإلا فلن أجد من تعشق لوني الرمادي الشاذ الذي أتوقع فيه.

لذا كنت اهجس بفريد دائما ما يحاول أن يحتك بي، لا أعرف غايته أن كانت بحسن نية أو بنية الخبث أو محاولة تحدي ذاتي وتغيير مسلك سلوكي...الخ. ولكن هو صديق السوء، الذي يسبب لك ضرراً حقيقياً عن قصدٍ أو دون قصد، وقيل في

رفيق السوء هو من يدل رفيقه على الفعل السيء ويقوده إليه، ثم اني لا أصدق حديثه حتى لو صدق، أهجس به صديق مصلحة وغاية... كان دائما ما يمازحني في أمور لا أحبها، كأن يحاول أن يجعلني أحتك بفتاة غير متزنة، لعوب، ليست من طقمي، وليست ضمن رغباتي، وهكذا... لكنه تمكن من فتح جانب من أبواب نفسيتي المغلقة، المتوقعة على ذاتها، فجعلني أتنفس الصعداء والتمس ذوائب التغيير مع الآخرين.

وفي إحدى المرات طلب مني أن نحتسي خمرًا، حيث قال لي:....

- دعنا نذهب للبار لنحتسي كأس من الخمر، نغير به مزاجنا ومن واقع الشجن الذي يعتلي هواجسنا، دعنا نغير من روتين الأيام الكئيبة، دع الفرشة تبخر في عالمنا تحت وقع السكر..

قلت له بحزم وغضب:....

- لا يا فريد إلا الموبقات لا تقربني منها، ممكن أرافقك وأسأيرك، ولكني لن أوافقك على تجاوز الحد، دع الله يرفأ بنا، ثم ذلك المبلغ الذي نصرفه على الخمر أنا بحاجة له..

فمنذ ذاك اليوم صار يبتعد عني ولا يسأيرني، كأنني كفرت في مبادئه، ربما فسر تصرفي من باب البخل دون أن يراعي ديني وتوجهي، ولا انسى أنه كان يقدم لي السجائر باستمرار، وقد عرفت متأخرا أنه يدخن الحشيش الذي بات ينتشر بين

ذوات الطباع السيئة. تلك السلوكيات لا يمكن أن أجعلها سلماً لعلاقاتي ومنهجاً لحياتي، صرت أخاف من ذاك السيل المزعوم والذي حتماً سيحتاج قلاعي في آخر المطاف إذا ما استمررت معه، حينها أكون أضحوكة في عيون الوشاة والمعرضين والعابثين، وفي عيون الغزلان من الجنس اللطيف اللاتي اتأملهن، حينها لن ألوم إلا نفسي.

على كل تركني وذهب وغير أسف على رحيله.

آخر مرة رأيت بها سلمى في يوم التخرج، رأيتها تودع زميلاتهن، شعرت بها كأنها لامتنى على تصرفاتي الخجولة، من خلال تلك النظرة الخاطفة التي رمقتني بها وفي وجهها ألف علامة استفهام. أبداً لم تكن نظرة عابرة، أنها خرجت من محيطها الدماغ كالسهم المعنى، كسرت بها مرآة ظني الخائب. شعرت بها بأنها لم تكن ساذجة مثلما كنت أنظر لها، بل كانت على دراية تامة بكل سلوكياتها وسلوكياتي.

أحياناً كنت أوهم نفسي بتلك النظرة، أحسبها عابرة وغير مقصودة، أو أحسبها نظرة أعجاب أنية أغشت حدقات عينيها، أو تصنع ما عبثت بها في زحمة حساباتي أو... الخ.. ولكن بعد نضوج فكري صرت أفسر الحالة بإيجاب، وبدقة، عكس تفسيري الأنف - ولكن بعد أن مرقت الفرص وفات الأوان... أبصم باليقين بأنها لم تكن نظرات عابرة ولم تتصرف الفتاة بساذجة أبداً، كانت تتأمل ردة فعل إيجابية معاكسة من قبلي، ولكن دون أن أحرك ساكناً؛ حتى دب اليأس في ذهنها

وقلبها.... كنت قد شعرت بتلك المعاناة الثقيلة مرارا، مثلما شخصها الأستاذ تماما.

مع مرور الأيام صرت أخاف من هذا الحاجز الذي زاد سماكة في قدري، صار يفصل بيني وبين الفاتنات بشكل جدي، خوفا أن لا أستطع تخطيه مستقبلا.. كأني خلقت هكذا ناقص ثقة ويقين، أرى براءتي وعاطفتي تذبح أمام عيني دون أن استطيع معالجة الأمر، أهجس بذاتي صارت ضحية انغزالي وخجلي، قزمت أمام سنين العمر التي عبرت بي تلك المفازة، وكأنّ حالتي أصابها هشاشة أمام شدة طموحاتي ورغباتي..

كثيرا ما كنت أحسد البعض على طول باعهم في محفل العلاقات وصحبة تلك الفاتنات. أم هن اللاتي تبعن ذوات السلوك الغض وذوات بشاشة الوجه. لا أدري تلك الحالة أن كانت حظوظا تطفح في حياتهم هكذا؛ أم سلوكا وضب ذلك لهم؟ ربما خليط من هذا وذاك.. فأنا لا ينقصني سوى بعض السلوك الملون المعطر بالبشاشة.. لا أدري كم من تلك الألوان والزيوت والعطور أحتاج لإدهن وجهي بها كي أتمكن من كشف الغطاء عن وجه الحظ ونشاشة السلوك لأستلذ بفاتنة القلب وما أهوى.

.. على الرغم من تلك السنين فأني لم أنسى قط فتنة سيقان سلمى، كأنها نحتٌ من حجر، كسيقان ملكات الرومان، لما لهنّ من سحر مشع ينبعث من لدانة الأنوثة. كنت أشعر بالكعب يغص بطراوة شحم كرشة الساق المحجلة بلمعة

ساحرة من ضياء الشمس.. حين دخلت متحف لييبا بعد زيارة خاطفة لعاصمتها، تذكرت سلمى حين رأيت تمثالا لأحدى ملكات الرومان موضوع في جانب من المتحف، نعم تلك السيقان الرومانية أدهشتني، كأنَّ الرومان دشنوا سيقان سلمى بسيقان الملكة فينوس، هؤلاء العباقرة فنانون العصور الوسطى تمكنوا من تصوير ذلك الشبه لتخليد سلمى في ذاتي وتأنيبي. كما أبدعوا في تجسيد جسدها بتلك الصورة البديعة التي رأيتها، كأنها هي بكيانها كانت قد خلقت في ذاك العصر وحضرت أمامي بعد آلاف السنين لتعزيبي... كان التمثال لفتاة ساحرة تشبه سلمى في تفاصيل الوجه والجسد والسيقان والجادبية، حينها لمت ذاتي على العجز الذي أغشاني، فلو تجاوزت أزمتي لكنت قد ارتبطت بملكة من ملكات الرومان، حيث التمثال جعلني أتخيل جسد وأنوثة سلمى.

بعدما تخرجت من الجامعة كنت قد تعينت في مشفى النعمان في الأعظمية كطبيب صيدلاني، مع استمرار عملي المسائي في صيدلية المنارة في محلة السفينة في منطقة الأعظمية كما اسلفت. محتفظا بعلاقة حميمة مع السيد عمر كسند لي ومرجع وألفة في ذات الوقت، يكاد يكون الصديق الوحيد الذي اندمجت وشائجي بوشائجه وتلاقت أمواج أفكاره بشواطئ أفكاره.

وبعد احتلال الأمريكي البريطاني للعراق توقفت الحياة في مرافقها تماما عن الحركة، بحيث أغلقت المحال التجارية أبوابها وكان من ضمنها صيدليتنا التي أغلقت أبوابها لمدة

سنة أشهر تقريبا، قضيتها في العكوف بين أروقة البيت
والمشفى وقراءة الكتب. وبعد تلك القطيعة أتصل بي عمر في
زيارة خاطفة لمعاودة العمل وإعادة الروح للصيدلية بفترات
زمنية مختصرة لا تتجاوز مدة ساعتين إلى ثلاثة ساعات
يومية، لشحة الأمان، وشيوع الخوف والفوضى المشاعة في
الطرق إلى جانب قلة الأدوية.

عمر شخصية ودودة، لطيفة، أنيسة، نديمة، سائغة، كريمة،
دمثة، على الرغم من تشعب علاقاته وحسن مجاملاته
وخاصة النسائية منها، إلا أنه كان حريصا جدا على حدود
الأسرة والألفة التي تجمعهم بشريكة حياته. لن يتخلف عن
قائمة متطلبات البيت ولن يهمل بندا من بنود رغباتها حتى لو
كانت صغيرة، كل الأمور تهون أمام صفاء أجواء الأسرة
وسلامة البيت.

كثيرة هي الأوقات التي كان يصرفها بين أجواء الأسرة، دائما
ما يسعى في محاولاته أن ينسلت من باقة شلتنا بوقت مبكر،
قبل أن تميد سهراتنا المكوكية في غيها، وخاصة أضحت
السهرات تحيطها رتابة لرتم الظرف الحساس، بسبب ضيق
المحيط وتنافر أعضاء الشلة، إضافة لضعف الناحية الأمنية
والمادية.

على مضي السنوات الأزفة استفدت كثيرا من وارد الصيدلية،
والذي عديته نيمير جارٍ يصب بركته في بُرك الحاجة، بحيث
يغطي على مصاريف نزواتي الخارجية ويقحمني بغرينه
المادي والمعنوي بما اقتضي، إضافة لسف بعضه في مجرى

الصحبة الجميلة التي تعودت على دفئها، والتي كانت تزريح
عن فكري قشور الهم وظلال الوحدة.

تلك صحبة عمقت في أذهاننا وأفندتنا وشائج الألفة والأخوة،
غدت المحور الذي تستند عليه خيمة أهواننا اليومية، تلك التي
جمعتنا على طاولة الضحكة والرفقة لترميم واقع الذات
بالفرشة، شعرت من خلالها قد تمكنت من ترميم بنيان
شخصيتي التي أهملتها في غارب النسيان وهي هامدة، مكللة
بويلاتها.

ومن خلال عمر توسعت مداركي وزادوا معارفي، بحيث بت
أستطلع العالم الخارجي بعيون الغير؛ غير تلك التي كنت
أنظر بها بعيني. وبفكر الغير غير الذي كنت افكر فيه. غدوت
أخذ من تجارب الآخرين العبر، واستخلص من شجون الغير
الفكر والموعظة..

كل ذلك من خلال المناقشات التي توسعت وسادت في عالمي،
بعد أن تغير منهج حياتي، وخاصة بعد فاصل الاحتلال
البغيض للوطن، تلك التي كنت أفنقر لصنوفها وفنونها
وألغازها.

بصراحة انفرجت مداركي للعالم الخارجي أكثر وأكثر، بحيث
تشعبت علاقاتي، وتحسنت صوري المزرية، على الأقل من
وجهة نظري الخاصة، بحيث صرت أشعر بالتغيير وأعجب
بالحالة الجديدة التي لحقتني وذلك من خلال الثقة التي نمت

وتوسعت في أعماقي. هذا التأثير الجيد الذي اضافته إلى شخصيتي الجديدة ذلك الصديق الجيد.

تلك الثقة صرت أقيسها من خلال قياساتي ومداركي الحسية، معتمدا على قدراتي وإمكاناتي المحدودة التي أعرفها والتي تربيت عليها وأبرمت خيوط نسيجها من خلال الاحتكاك الذي تدربت عليه، من عزف الشجاعة على تخطي حاجز الضعف. إضافة للثقافة التي رفدتني بالمعرفة والتقليد والأدب الذي كنت قد اطلعت عليها....الخ.

ومن تلك الأمور التي بقيتُ منزوياً تحت ظلها بانطوائي، هي أنني لم اتغير أبداً، بقيت أحمل قبس الطفولة وعنفوان الكبرياء في صدري، لم أقدم على علاقات مزيفة على مدى عمري الذي قارب الثلاثين، لم أخضع لظرف قط؛ إلا لحقن تدخلات عمر الذي تعمد على تغيير بعض سلوكياتي وخريطة حياتي، وخاصة عملية الأبحار في العلاقات النسائية، والتي هي اساس معاناتي بسبب تربيتي وفقّر تجاربي في عالمهن، كنت أشعر بثقل الغمام دون أن أنعم برذاذ المطر وهو يربت ثرى وجهي.

أحيانا كنت أشرب نخب كأسّي المر كمدام ضمن لحظات الشجن والخيبة، بحيث ما أن تنفك عقدة من ركبي حتى أنكب بأخرى أغلظ وأعن من صاحبته، بت أتهادى وأتراخى بين لفائف تلك الخيارات على قدر جمر الصبر، كأني مزكوم أو مخمور بعواقب العقد التي باتت لا تنفك عني حتى في أحلام الكرى.

لم أكن أقدفه طبيعة حالتي الخلجة إلا بعد فوات الأوان، حيث كان الخوف يقطع دابر السعي قبل كل محاولة، صنع الحواجز المنبوعة بيني وبينهنّ، وبالذات مع كل جميلة كنت أصادفها في حياتي. كأنّ عقدة النقص تلك التي لازمتني وتماهت في أفق ظني وخيالي هيّ من صنيعة ذاتي أنا، أو بالأحرى من واقع التربية التي تعرضت لها والتي استنبطتها من محيطي ومن الوازع الديني وقيود المجتمع التي تأقلمت عليها قبل ان يشتد عودي. تلك القيم حفظتني من الانزلاق في الوقت الذي به كانت قد ذرتني بين شعب الهوان دون أن أستطع لملمة أجزائي والتنصل عن قوس الفشل في مجال علاقتي العاطفية.

ومع امتداد العمر امتدت خيوط العقدة لحوافر الظن، ألبستني خبب الزمن وأسماله. عقد جمة كنت في غنى عنها، أنا الذي ابتدعتها ولمعتها وأزرتها بتجيب، نقشتها كأزرار ملونة على ثياب شخصيتي. عقد سائلة وأخرى دفيئة، لا أعرف حلا لطلاسمها كنت قد تلبست بها، تمثلت في بنيان شخصيتي، جعلتني أشعر كأنني بلا هوية حقيقية، منبوذ من قبل ذاتي قبل زملائي، وخاصة في مرحلة الجامعة. على الرغم من أنني لا تنقصني وسامة أو ثقافة عامة، ولا يوجد خلل في قوام جسدي الرشيق.. لكنه كان مجرد إحساس داخلي ووهم مكبوت في أعماقي، كان يرهقني، يهزمني في كل محفل أقحم فيه نفسي- وهم بني على ضعف تقديرات ذاتي وقلة حيلتي وثقتي بنفسي وقلة تجاربي واختلاطاتي بالمجتمع..

ولد هذا النقص مع نمط التربية التي خضعت لها، ربما غرس في حقلي جراثيم الخوف والترهيب الذي تعرضت له من قبل الوالدين في الصغر، أو بسبب قلة اطلاعي الثقافي حسب تقديرات ذاتي، كل شيء كان يدخل في باب التحريم، فلم أعش طفولة حرة لأستكشف ما بها ذاتي من قدرات وأعماق ومهارة، لم احتك احتكاكا مباشرا بفئات المجتمع بعد أن عزلت نفسي.

في مراحل الجامعة وخاصة الأخيرة منها بعد أن نضج الفكر وتشعبت العلاقات، لمست بأن الفتيات يقتربنّ مني بحجة السؤال أو المذاكرة، يحاولنّ ملاطفتي ومعاكستي!... لكنني لم أصمد أمام هدير أمواجهنّ، كنت أنفر منهنّ بحجة أو بدون حجة، حتى كرهتُ ذاتي بذاتي. أتهرب من المواجهة، فأجعلهنّ يتحسسنّ نفوري من ذوات أنفسهنّ، فينطبع في أذهانهنّ مواقف خصومة اتجاهاً.. وبمعنى أوضح: الانطوائية التي ارتدنتني، أو أنا الذي ارتديتها من خلال انعزالي، كانت بمثابة السقف المانع لبث خواطري، والسيف النافق لكل علاقة وليدة.

رنا ابنة ديالي، كانت وحيدة والديها بعد أن هاجر أخوها خالد لفرنسا جراء رعنات الحروب التي حرقت حقول الوطن.. لم تجد فسحة في زمني الرتيب لتسرح بها، لم تجد شماعة ود تعلق عليها حقائبها، هجستُ بها كسمكة وجدت منسوب عاطفتي غير مؤهل للعوام بها، وكأنّه قد وشل مائها، فتراخت على الرغم من محاولتها ملاطفتي مرارا. لم تستطع أن

تحيلني لنمر أفترس جمالها السوسني، ولا حتى لأرنب أشم
أزاهيرها الخمرية، فتخلت عن المحاولة بعد أن كلت من
ترويض.

المقاييس لم تتناغم، على الرغم من أني في داخلي كنت أتمنى
أن أصل شاطئها برواء، وأرتع في حوض فتنتها الغريني
برجاء. كانت أكثر جرأة مني، وأكثر لباقة وهيافة وفرفشة--
حينها شعرت بتكبل ساقِي، لم أبرح مكاني قط، كان حاجز
الخل منيعا يصد رغباتي أمام زرقة عينيها.

في الحقيقة كانت رنا هي أفضل فرصة سانحة لأطرد بها
هوس الوحدة وأكسر بها رتابة الخل، وأجزم الحزن من
واقع ليالي الطويل.... لكن.... لا ينفع الندم، بل زاد من كيل
العقد حبه. لم أشعر بتلك الندامة إلا بعد أن تزوجت من فيصل
زميل الدراسة.

وفي واقعة أخرى من زمن الرتابة وبالذات في الوقت الذي
بهرتُ بفتنة نوال كونها كانت من ذوات البشرة السمراء من
تلك التي أذوب في قطران ريقها ورونق بشرتها بحرارة الود؛
كانت سلوى ترهق ذاتها وتسعى خلفي بذات اللهفة التي اسعى
بها خلف نوال، تسعر ظننها في تأملاتها العرجاء في فضاء
سمائي الدانية، تطير في أجوائي صمتي دون أن أشعر بها،
دون أن ألمح شبح طيرانها في أفقي ولو مرة واحدة.. مرارا
ودث أن تحيل قدري لقمر في سواد ليلها الأدهم ولم تغلج،
دائما ما كانت تعترضها أغبرة طيشي خلف نوال وغيوم
ناشزة من رقة سلمى.... بقيت اترنج بين أفخاذ سلمى وبشرة

نوال حتى طفئت شمعة سلوى في ذلك العصف، فلا تمسكت
بقطوف جمر نوال، ولا ابتهجت بصبح سيقان سلمى ولا
قطفت زهرة سلوى..

لقد خسرت قدر الجميع معا، لم تفتح نوال أبوابها لي، تركتني
أحتضر على محرابها، ولم أتجرأ أن أقتحم ربوع سلمى ولا
أسرفت في تليين الفرص أمام رغبة سلوى، حتى تداخلت
خطوط والأهواء في بعضها، فعجزت عن إرضاء ذاتي
وذواتهن معا...

كانت قد تقرحت الرغبة واستكانت في بقعها، خلت أن أسعى
خلف تلبية رغبة مجنونة تحت شمس نوال لما لها من وجه
بشوش وأسنان عاجية وسمرة شاطئية ناعمة جذابة كرمل
البحر، كأنها استلهمت تلك السمرة الملعونة من صرة
الغروب... في الوقت الذي به تعرت تأملات الصبح في جسد
سلمى، فباتت شحنات الهيام تحرق بعضها البعض حتى
اسودت تأملاتهن في أعماقهن مثلما اسودت الرغبة في
أعماقي.

في تلك اللحظات كنت أهجس بقلبي لم يكن بمعيتي، وحين
تخطيت حواجز اليأس أخذ الفكر يتشتت ويفلت من قبضة
يدي، صرت أبحث عن ذاتي في متاهات الشوق هنا وهناك
كالمجنون دون أن أجد ركيزة لي. وحين غربت الشمس لم
أعد أعثر على مسرب ينجيني، عندها أدركت بأن قلبي قد تاه
مني في دروب الظن والنوى، صار يزحف في واطئة
الاستحالة خلف المستحيل.

في كل المحاولات التي سعت خلفها كانت الرغبة في داخلي
تعاكس واقع حظي، أهجس بها تأن من الوحدة في دروب
الشوق، تود أن تنفض غبار الزمن عن وجهها. ذلك الذي
أضحى لغزا من طلاسـم الحظ. تلك الرغبة ودت أن تكون
لامعة كأحرف الحب الملتصقة بالكلمة، لتعبر عن ذاتي
بصدق أمام الفاتنات، افتقدت خواصها. ودت أن أتوق
صحبتهن، لكنها تكبلت بقوة خفية غير مرئية بالنسبة لي.

لقلة حيلتي كبرت المعضلة مع كبر العواقب، شيعت ذاتي
لمقبرة الوحدة اللعينة التي لازمتني منذ الصغر. لقد عشت
كولد وحيد بين أختين، الوحدة تملكنتني لاختلاف الأهواء
معهن، هذه الوحدة جزرت أحاسيسي وقضمت بنان رغباتي،
منعتني من أن أقحم عواطفي في جوف الزمن.

لم أشعر بذاتي ذئب يعسـس الليالي قط، دائما ما كنت أجدها
حملٌ ترعى في فيافي الخيال.. تلك هي مجمل أسباب اعتكافي
وانعزالي عن مجمع النساء، لم أكن سويا بما فيه الكفاية لأقنع
نفسي وأبجل رغباتي بمن تليق بي الحبيبة، ذلك أنعكس على
سلوكي وقيد رغباتي وأخر ارتباطي بهن.

في قناعة نفسي، لم يكن الخجل سوى حاجز زجاجي شفاف
حال بيني وبين رغباتي العاطفية، ولم تكن تصرفاتي سوى
سدٍ منيع أمام رغبات سلوى، وجليد سهو أمام سعي الأخريات
اللاتي لم أفسح لهنَّ أجواء قلبي. من تلك الفاتنات المعسولات،
الساحرات، اللاتي تدرجن على سلم علاقتي خلال فترة
الجامعة.

كثيرات عشقنني بصمت، وعن بعد، سرحنَّ في وجهي بسكون دون أن يفصحن لي عن رغباتهن علناً، لخلجٍ ما أو كسفٍ أظل سلوكهنَّ أو ما شابه ذلك، حيث طبعي القانط كان له دور في تحجيم عواطفهنَّ وتغيير أفكارهنَّ، بلادتي لا تسمح للأنفاس أن تخرق أغشية عواطفِي، أنها أشبه بسطح مصقول أملس، تعكس أشعة رغباتهن دون أن تخدش جوارحي تلك العواطف الملتاعة...

لقد أخطأت كثيراً وقسوت على ذاتي البريئة دون قصد، حتى أنني لم أعد أسامح نفسي على فقدان العديد من تلك الفرص التي سنحت بين يديّ، والتي بقيت متوهجة بين العين والقلب، أمثال أحلام ورناء وسلوى ونوال وسلمى دون عذر مقنع. كنت مؤمناً بأن الحب والزواج هيَّ حظوظ وقسمة، فلم تخطر ببالي أن تكون فن ولعبة وشطارة وتكتيك وتخطيط مسبق ودراية؛ حتى شعرت وأنا في آخر الركب أنتظر أن يستأنف دوري دون أن يحل.

وخلال عشريني وصداقتي لعمر، كنت قد تطرقت له عن هوس سلوى بي أثناء مرحلة الجامعة، وإهمالي لسعي رنا الدؤوب من التقرب مني دون قصد. أطرقت بأن فقدان سلوى كانت غلطة ندمت عليها، لأنها تركت فراغاً لم أستطع ملئه، حالها حال أحلام ورناء وسلمى، لمواصفاتها القريبة من تأملاتي، أشعر بها كجوهرة لن تعوض، حيث تلهفت خلف سلمى ونوال فأفسدت محاولات سلوى الحثيثة. كانت قد أدمغنتني تلك السمراء، فلم تفسح لي مجالاً بأن أحيّد عن

رشاقتها ولون بشرتها الجذابة، لم تسمح لي بأن أتنفس خارج نطاق عالمها المغنج بالسحر والجاذبية المدفونة برقعتها..

رغم أنّ سلوى كانت فتاة ناعمة رقيقة، منمقة، لا يعاب فيها ثني إلا نحافتها، ورغم أنني لم أكن أهتم بأمور الجسد قدر اهتمامي بتقاسيم الوجه ولون البشرة، ومع ذلك لم أعطف على سعيها، بالأحرى تناسيتها بعد أن انشغلت بفتنة نوال. وقبل التخرج تزوجت من الزميل صفاء الصيدلاني، وكانا قد عملا معا في صيدلية الشفاء في منطقة الصليخ (إحدى نواحي بغداد من جهة الرصافة) والصيدلية هيّ ملك سلوى.

تلك الخبرة التي تطرقت بها لعمر في وقت ما؛ أوقعتني في مطب طرفة لن أنساها مع تلك الشلة الشائكة، والتي باتت لقاءاتنا تحتضر بسبب سوء الظرف المارق بنا، باتت تنبري على السطح بين الأحايين وعلى فترات متباعدة. حيث كثرت متطلبات الزمن وزادت المشاوير الخاصة لكل منا، تحت تقلبات ظرف كالح أصبح فيه الأمان مطلب من متطلبات الحياة الضرورية التي لا يمكن التنازل عنه بعد أن كثرت التفجيرات والعجلات المفخخة وبالذات في بغداد، الكل يبحث عن الأمان في جوف الزمن..

على أية حال؛ على قلة لقاءاتنا كنا قد تجمعنا في مقهى الزهاوي الكائنة بين ساحة الميدان وجامع الحيدرخانه والتي يعود تسميتها كناية بالشاعر الكبير جميل صدقي الزهاوي.

بمجرد وصولي للمقهى سألت عن غياب رافد عن المجموعة
قالوا لي:....

- أنه قادم في الطريق.

ولم تمر سوى دقائق حتى دخل وهو يلهث مصفر الوجه وفي
نظرات عينيه شطط خوف، وكأنَّ شيء ما قد حصل له، سأله
عمر:....

- ما بك يا رافد هل أصبت بمكروه؟
- لا لا.. لست أنا، ولكن!!!... جريمة حصلت في منطقة
الصليخ..
- أين؟ في الصليخ؟
- أفصح
- أخي يقطن هناك قرب صيدلية الشفاء؟ ذهبت
لزيارته...
- أين وقعت الجريمة؟
- في الصليخ، في صيدلية الشفاء!!!... كنت سائرا هناك
فوجدت تجمعاً غير طبيعياً، فوقفت أستفسر عن سر
التجمع، وكان قد حصل الذي حصل.... سألته بلهفة..
- ماذا حصل بالله أفصح....

سألته والخوف كان قد بان على وجهي. سألته بحرقة، لأن
سلوى تعمل في تلك الصيدلية التي قصدها، كنت أتحرق
من الألم لمعرفة ما جرى لها وما أصابها من شرر.
خاصة الأوضاع لا تسر في بغداد...

- يا أخي حصلت جريمة بشعة، بشعة جدا لم تخطر على بال أحد.

شعرت باختزال في عضلات الساق التي أصيبت بارتعاش ورجفة.

- لا أرجوك؛ لا تشد أعصابنا فهي بالأساس مرهقة، هيا أخبرنا بسرعة، ماذا حصل؟... سأله بذلك عمر..

- قبل ساعتين أو أكثر من الآن كنت مارا من أمام صيدلية الشفاء في منطقة الصليخ حيث يسكن أخي.

- يا أخي تجاوز المقدمات قل ماذا حصل؟.. قال ذلك عامر وكنت قد شددت على رأيه وطلبت منه أن يختصر المقدمات..

هجست بتعب نفسي وحرقة في المعدة، وذلك بمجرد أن ذكر صيدلية الشفاء، أو صيدلية سلوى، علا صوتي نتيجة تأثر أعصابي لمعرفة أخبار سلوى، على الرغم من أنها قد تزوجت واستقرت في بيتها، إلا أنه لازال في الفؤاد شطط من الشوق يذكرني بالماضي كونها زميلة دراسة، ذكرها كزهرة تنتح عبقها، ثم أني لا أنسى بأنها كانت لها رغبة بي، ودت الارتباط بي يوم من الايام.

- أكيد انفجرت قنبلة..... قال ذلك عمر.

- يا أخي لم هذا التشاؤم؟ لم تشمت بالناس يا عمر؟ لم أعرف فيك صفة الشماتة... هكذا رددت عليه.

- لا لا ليس انفجارا، إنما أكبر من ذلك. قال ذلك رافد..

- ماذا؟ أهو اغتيال؟.. استفسر عماد

- ولا اغتيال...

حينها فقدت أعصابي فتكلمت بصوت عال أجش غقت فيه
حشرجة وحسرة وتأوه وشجن غطى على محياي وصرخت
بهم:....

- خلاص يا أخوان، بالله دعونا نفهم ماذا جرى. وأنت
يا زفت أفصح عن ما جرى ولا تتعب أعصابنا...

قال رافد...

- دخل شاب إلى الصيدلية، وطلب من الصيدلانية
حبوب مخدرة من نوع ترامادول أو الكابتجون.

رافد ملتفتا إلى عمر يسأله:...

- بالله يا عمر ما نوع هذه الحبوب؟

- مثلما أنت قلت، أنها حبوب مخدرة.

- عماد: وماذا كان رد الصيدلانية يا رافد؟ أكيد رفضت
أن تعطيه الحبوب فأخرج مسدسا وقتلها.

ألتفت عليه والغضب أعتلا جبينني المقتضب، أجبت به بعصبية
ونرفزة، وكأنه غريب عني.

- ألا تكرمنا بسكوتك وفألك السيء! دعنا نفقه حديثه.

لحظة توبيخي لعماد التفت للخلف، كأنه أخفى بذلك ابتسامة لا يود أن يشيعها ولا يود أن لاحظها، لكني كنت مشدود الأعصاب متبع استرسال رافد للحدث، فرجوته قائلاً.

- بالله أكمل يا رافد وماذا بعد؟
- فعلاً الصيدلانية رفضت إعطائه الحبوب، قالت له هذه الأدوية ممنوع صرفها إلا بوصفة طبية، أعطني رويضة الطبيب كي أساعدك.... لكن الشاب كان في حالة هستيرية غير طبيعية، ألح عليها متوسلاً بها دون فائدة، وبعد جدلٍ طويلٍ رفضت الانصياع لرغبته... عندها همت بطرده خارج الصيدلية؛ لكن الشاب أخرج من جيبه (سرنجة) إبرة حقن مملوءة بالبنزين أو الكيروسين، ثم هجم عليها وغرز الإبرة في عنقها.
- ماذا؟ أيا كلب. كيف تجرأ بضرب سلوى؟- خرجت العبارة من فمي دون إرادة فأنتبه عليها رافد وعماد ورضا وعمر وحسن وعامر على تفوهي باسمها، فسألوني عنها:....
- هل أنت تعرفها؟

أومات لهم برأسي، زممت شفتي حتى كدت أدميها، دمة تحجرت على أبواب الحلق، رسمت لوحة الخجل على محياي، كادت تنهمر لولا ملامتي لذاتي وخجلي واستحيائي من رفاقي....

- نعم أعرفها أنها زميلة الدراسة، وهي بنت طيبة وراقية. وماذا حصل لها هل عرفت شيء عن صحتها؟
- البنزين من المواد الحارقة والمسرطنة. كما أنه وقود النابالم، أكيد بعد أن غرزها استسلمت وماتت. صرح بذلك حسن
- لا لا تقول ذلك فهي إنسانة طيبة ومؤمنة، أدعو لها بالخير. قلت له ذلك.

قال رافد:....

- : لا لا لم تمت، بعد أن غرزها بالإبرة في عنقها؛ هرعت تصرخ وتركض في الشارع حافية القدمين والناس تركض خلفها تود مساعدتها، والإبرة معلقة في رقبتها. لقد كانت تجري بسرعة كبيرة جداً، لسرعة جريها لم يستطع أحدا اللحاق بها أو الإمساك بها لمساعدتها.
- أكيد تكون أسرع من الآخرين، من الظاهر أنها تشبعت بالبنزين، والنتيجة أين ذهبت؟ تكلم بذلك عماد.
- فجأة توقفت في وسط الشارع وتجمع الناس حولها!
- أكيد وصل البنزين للقلب، ومن ثم توقفت عن الحركة وماتت. قال ذلك رضا.

نظرت إليه بعين حانقة وفكري منصب على فم رافد، ثم قلت:..

الفصل الثالث

1- دور عمر في علاقاتي

لصفة الألفة والصدقة والعمل المشترك في الصيدلية التي تجمعنا والألفة المشتركة مع شلة الأصدقاء التي حوتنا، كانت قد توطدت علاقة عمر بي أكثر من أعضاء الشلة الباقية، كان قد فهم وضعي وتطلع بشكل جيد على نزاھتي واستقامتي وأدرك غايتي ورغباتي واختياراتي العامة. لتلك اللمة الزاھية التي باتت تبرق في الجبين والتي ربطت أهوائنا برابط المحبة الصادقة بعيدا عن المصلحة الذاتية؛ لتلك الهالة الذائبة في النفس والنعمة الجميلة في الروح، صار يقرأ سلوكي العام وما تغیظني من أمور ومنغصات في الحياة قبل أن أتطرق بها إليه.

بتلك الفراسة كان قد لمح عمر صفة التغير الحاصلة في سلوكي والطارئة على محياي، التغير الذي طرأ على اعتدالي، نتيجة انشغالي وتركيزي في سياق العمل، وانكفاء الذات على الصمت الذي كور حقيقة طبعي. كل تلك الأمور كانت واضحة له، مما حدا به أن يمازحني بهداوة وبفكاهته المعهودة، فغنى لي أغنية (الحب كده) للسيدة أم كلثوم رغم بحة صوته الأجش. كنت أبتسم وأضحك على أدائه الهزيل؛ حتى بانث نواجذي، حتى اصطفى الحياء في ملامح وجهي يعن من لاعج الهوى، فاستسمحته عذرا، فزمت الشفاء باستيحاء وعفة. فقال لي:....

- ما بك يا صلاح، فضفض لأخيك عسى أن اساعدك.

حينها صرحت له بالحقيقة، فقلت له:....

- لا أخفيك سرا يا عمر، أنت أعز الناس إلى قلبي والمقرب من اعضاء الشلة، أني تائه ومنشغل بفتاة أحلامي، وهي جارة لنا، لكنها لا تعلم بهوسي وتعلقي بها، لا تعلم بمدى انحدار عاطفتي نحو فسحة هواها، بحيثت بت أشعر بذاتي قد أدركت درجة الصياغة، تائه في أزقة العذاب، ولي رغبة ملحة بالاقتران بها!

قال عمر ناصحا ومعينا....

- ههههه، أيا صايع، كل هذا وأنا لا أعلم، أنت الذي تبدو لي نيبا بين الناس، أضحيت صائعا في دروب الهوى، لن أصدق أبدا يا أخي!
- هذه هي الحقيقة التي لا اصدقها أنا بنفسي.
- طيب يا أخي، أردم جدار الصمت الحائل بينك وبينها، لا تبقي عقصة ترهقُ فكرك ولا طريق تضل سعيك، لا تدع لوائح الأحلام معلقة على جدار القلب فتهبت لونها بفعل حرارة شمس الحب دون أن تدرك، لا تجعل الصمت يغشيك فتنسى ذاتك، ما عاد الزمن يجدي تأخيرا، فهو كفيل بأن يذهب بريقها ولونها إن لم تتحرك.... لا تدع الأمور الملحة مهلهلة ومهملة، فأنت لا تأمن غدر الزمن، أنه كفيل بتفسخ الأمور وتعفنها، فإن طالبت المدة ستذوى المحبة، ولن يعبق ننتها سوى أنفك..
- ماذا أفعل؟

- جدد العزم، أعهد لنفسك بأن تكون واضحا أمام جبروتها، كن كما هي الشمس ساطعا في دروبا، ستكون لك قمرا تنير ليلك المظلم... البنت تود أن يكون ارتباطها واضحا، لأنها في طبعها ضعيفة لا تقوى على فك ألغاز الزمن ولا تحتمل أصفاده وأغلاله ولا تأمن الغوص في ترترة الاحتمالات الغير مؤكدة. تود الحبيب يكون على قدر الثقة، لتأمن مفاجأة الغد، لأنها تخاف من لسعة ثعابين الظلام وعقارب الغفلة.

تكلم معي بمنطق حنوٍ وسلس، حفز خلايا فكري النائمة على الحركة، أزاح عن عيني غشاوة الوسن، زرع اليقظة في موضع الرقاد، حرّض الود على التأمل والجرأة على التحرش والمبادرة. جعل لسنا بل الأحاسيس رعشة في وهدة السكون، جعلها تتراقص في داخلي، منتفضة ضد الغثاثة والهوان. بـ منطقي السلس كان حث الروح على المواجهة والتحدي، بكلامه المعسول المنمق شرشر بقايا خلجي على غارب الزمن، جزل طرق السعي التي كنت أفكر بها بخط مستقيم واحد للمواجهة، قطع حبل الشك بسيف اليقين، هذبني، وقاني من شر نفسي، قادني لجادة الصواب.

كان عمر واقعيًا جدا في طرجه، نصوحا في عزمه، لا تكتنف غايته سوى مساعدتي وانتشالي من غيبي، تكلم بكلّ ثؤدةٍ ورويةٍ، حفزني على تجديد خلايا الفكر والجسد الميتة، فرش طرق سعبي بالود والورد. دب نشاط زهري في بدني. جعلني أنتفض عن المقعد الذي خشّ بحرارة عيزي الكامنة في

مخمله لطول سكوني وكسلي.... كان كمن أضاء مسرب
حياتي بفيض الفطنة، كمن حرّض الرغبة في أعماقي على
الحركة لأتزعزع عن موضع سكوني، لأنقل من وهدة
الأحلام الوردية والخيلاء لحدود الغاية والرجاء، ود أن أصل
بالفعل لنهاية المطاف دون وجل ودون عناء وعذاب وتجيب.

بكلامه شجعتني على كسر طوق الروتين الذي أوطد الجمود
في ملامح وجهي، جعلني أنظر لغدي بمرآة جديدة، أستعجل
بها أمري، أفكر ملياً وجلياً بأسباب عجزتي، قبل أن يقص
الزمن خيوط الترابط والتأمل ما بيني وبينها، قبل أن تفلت
زمام الأمور وينفرط عقد الوصل بيننا... جعلني استلهم أمري
وأدرك ذاتي قبل أن تُكسر الجرة ويتبدى مياهاها، قبل أن أندم
وأغشى في غوطة سبات جديدة.

نبهني أن أستعجل أمري قبل أن تقطف الزهرة من قبل من هو
أكثر حنكة وجرأة وبصيرة مني، حينها سألني أندب حظي بين
جدران الوهن إذا ما خسرت فرصتي الأخيرة؛ حينها تصبح
جارية سيدها، وتبقى في الذاكرة صورة جدارية تأن بصبا
حزين.

لا زال القرار ماكث بين يديّ، ولا زالت الورقة ناصعة البياض
لا يخالطها سواد القلم...

إذا خلال المرحلة القادمة لابد من عمل ما أقوم به اثبت لها
عزمي ورغبتي بها، لن أدع كروان الشوق يشدو وحيدا في
رواق الصبر، لن أسمح للطيور الجارحة أن تخدش جلدها، أن

لم أترك أثرا على جدران فنتتها؛ لن تنتبه على رغبتى
ووجودي قط! لن تهتم بي مطلقا، فلا بد من خدش ينبئها،
يؤلمها، لتعني بي، وتعين الرغبة على تجاوز أزمته.

هي أغنية عاطفية، جميلة، رومانسية، كلماتها ترهف أوتار
الشوق المبنية على جسدها؛ تهدأ النفوس، تبيح الصمت في
لطف سكونها.. الكل ينصت لمقامات حسننها، يرهف خلف
سماع تهدياتها، يطرب على بشاشة وجهها وتناسق معانيها،
فهى بين النساء كالجذوة تجذب الانظار.

لذا تحركت من واقع سكوني لسكون واقعها كشحنة كهربائية
انتقلت من مجال لمجال، وددت أن أكهرب مشاعرها
وأحاسيسها بذات الود الذي أغشتني به، أن أطرق فؤادها
بطرق الحث أو التناص أو العبث، بالتصادم والتلامس
والتهامس، وادا حقن جوارحها بالقشعريرة التي تسري
بجسدي، لتستشعر مستشعراتها بما يرهقني، ولأستشعر بردة
فعلها تجاهي..

"أضحيت، بطبيعة الحال، مشتتاً؛ أشبه بملف كهرومغناطيسي
ممغنط، لا يلبث أن يضطرب قلبي حين تقترب كموجة من
شاطئي، فتنقض أيوناته مجاوبةً اهتزازات قلبها في رقصة
خفية في فضاء الحنين. بمشيتها المتبخثرة كمشية الحمام، تثير
دوامة من الحث المغناطيسي، فتنقل عواطفى عبر موجات
غير مرئية، تتغلغل في أركان حواسها، ترسم الفكرة في
ذهنها، تبعث النبضة في فؤادها، كما لو أن قلبي يعزف على
أوتار إحساسها في سيمفونية لا تنتهى."

كنت أود أن تكون ذاتي لعوبة، مراوغة، كسمكة الكهرب، ما أن تمر بأجوارى حتى تتكهرب بأهوائي، أخل ذهنها من لمحة، من كلمة، من قُبلة أشل نبض فوادها، كمن يَنْغز الصمت بسم الشوك ليتفرقع في حضنها، لتنتفض عن مكمنها مبهورة بفعل شُهب الود المتساقط فوق فلافي جحرها، هكذا حاولت أن أدخل عالمها المعتم برضاها أو دون ذلك، حتى تتحرر الرغبة المقيدة بين جوانحنا..

استغلّيت فرصة عطلة نهاية الأسبوع المعتادة، فذهبت قبل فترة الغداء لدار شقيقتي مريم برغبة ملتهبة، وبطاقة متجددة من الشحنة التي غزني بها عمر، هممت نحو دعم القرار وإزالة عوائق الصد بيننا بعزم كبر في ظني، لترفأ بيقيني، وودتُ أن أجلي غبار الصدا عن أركان النية، قاصدا شقيقتي وحبيبتي مريم برجاء تعرف قدره، عسى أن تُلّين عروة الغرور المدفونة في ذات هبه بدهان الرغبة المجدولة والمجنونة في ذاتي من جهة وبحسن الجيرة من جهة أخرى.

مضيت بخطوات تكاد تصطدم ببعضها البعض، احف الطرق الملتوية في الأزقة القديمة حتى أدركت دار مريم مجهدا تحت لهيب الشمس، موحى للملاحظ بأنني في عجلة من أمري لأمر هام وملح يشغلني.

روائح عَطنة تنضح من فجوات المجاري، تلوك بنتنها الفضاء، تمخر الأنوف، تتعشق بالشعور والثياب، تسفر عن قرف وضجر في الذات، لتكاسل البلدية التي أهملت شؤون

البلدة بعد الاحتلال، لصفة الانحلال الدبقة التي تعشقت بها
النفوس، أضفت على الأجواء العامة صفة عدم الاستقرار.

لكن الناس لا تبالي، كأنها قد تعودت على تلك القذارة،
تعاقبت حكومات والحال لم يتغير وضعه، الكل غض الطرف
عن شؤون الناس ولم يهتموا سوى بتعميد الكراسي وبث
الشعارات الزائفة الرنانة، اهتموا بسرقة المخزون العام دون
أن يصلحوا جانباً يهم المجتمع، فالمياه الآسنة طافحة في
المجاري وفوق الأرصفة والمعنيون نائمون في سبات
الميتين.

كنت مزهوا وأنا ماض بخطوات نحو سقاية زهرة السوسن،
تلك التي اسميها قبلة الحياة قبل أن يحل المساء وتذبل وريقات
الشوق الملتصقة بها. عندها كنت مبعثر الشؤون، ذاوي في
سعيي كالمجنون، شارد الذهن، لا أمسك بخيط يقين يوصلني
لبر الامان، ومع ذلك كنت أمشي في سكرة من النشوى، أتبع
تأملاتي الهائمة ببحر الشوق برغبة جامحة، لا أحتمل الهوان
والبهتان والفشل.

نشوة مسرجة فوق ظهري، تود أن تنطلق لعالم الحرية على
صهوة يقين أتوقعها، أتوق نيلها كما أملتني شقيقتي مريم. لا
أرغب بأن تكون الفكرة مجرد نظرة ظن، أو شفقة بهتان أو
سيان من واقع القدر، وددت أن تتقبلني برجاء ورضا.. مشيت
خلف سعيي بخط مستقيم كما أشار لي عمر، في صدري
يختلج هم أجوف، خوفاً من الإخفاق نتيجة رفضها الزواج من

كوكبة ذات مكانة كما أخبرتني مريم، مضيت بهذه الروحية حتى أدركت دار مريم بعد حين.

طرقت باب الدار الخشبي بسقاطته النحاسية، تلك الكتلة المعلقة في صدر الأبواب القديمة المصنوعة من خشب الصاج أو الصندل، والمخصصة للطرق والتنبيه. كانت مريم وحيدة في الدار حيث لزال زوجها عامر لم ينهي عمله في إعطاء دروس التقوية الخصوصية لبعض التلاميذ. كانت وحيدة الدار وهي تشقى في بسط دارها بيجامتها المكفوفة فوق رُكبها، وفي يدها تمسك خرطوم الماء، وفي الأخرى تمسك مقشاة من أوراق خصف سعف النخل، تجلي بها الأرض المصبوبة بالإسمنت المحجر... رغم نظافة البيت؛ إلا أنها كانت تزيده لمعة وبهجة، إرضاءً وحبا لحبيبها وزوجها، لينعم بالراحة ورضا النفس حين يعود من عمله.

بالطبع لم أحسدها على اهتمامها فهي أختي الصغيرة وأتمنى لها كل خير، لكنني لمت نفسي الخائبة على تأخرها عن ميدان العاطفة، والتي لم تنتبه على قطار الزمن وهو يهدر بصوته الجهوري مجتازا محطات العمر الماضية بسرعة جري السنين، لقد خسرت الكثير دون أن ألتفت لأحلامي التي تركت ندب أثارها على جدران القلب، حيث الزمن لا يضرب بالسوط، إنما يطعن بنصل الندم والقسوة..

نعم يا صلاح؛ تريث قليلا، دَع قطار العابرين يمضي، لا تنتظر حلول الفرج أن تحل من السماء، عليك أن تسعى، أن تعيد حساباتك مع الزمن دون المكوث مكانك، أن ترفع

الأشواك عن قارعة الطرق، أن تجعل لهذا التريث قدرٌ يليق بك. لا تجعل قدرك يدور حول عنقك كحبل المشنقة، لازال الوقت في يدك لم يُتَبَرَّ ولم يُبْتَرَّ أو يدبر، لازال فيه رشفة أمل.

هكذا كنت أحاسب نفسي وأنا أتأمل أن تنجلي الغمة عن صدري، لأعيش بكرامة كما هيَّ الناس تصرف أيامها.

حين دخلت البيت تفاجأت مريم بقدومي في هذا الوقت، لم تتعود أن أطرق بابها في وقت الغداء، كانت الساعة تشير إلى الثانية والنصف تقريبا، دائما ما كنت أزورها في أوقات المساء المتأخرة بزيارات عابره على قدر السؤال، كنت أصطحب زوجها الذي أضحى أحد أعضاء شلتنا بعد أن عرفته عليها، رغم ضعف اندماجه بيننا لارتباطه بالتزامات الدروس الخصوصية وبالذات في أيام العطل.

زواجها من عامر ليس غريبا، فهو ابن خالتي، مدرس اللغة الإنجليزية، ويكاد يكون ونيسي في أوقات الفراغ وخاصة بعد أن اجتاحتنا الغزو ودمر ما دمر من حياتنا، بعد أن بات الخوف يكثر في الطرق والأزقة، والرصاص الطائش يتلصص أرواح الناس.. لذا كنا نقضي أوقاتٍ مسلية في لعبة طاولة النرد أو الدومينة معا، لننسى الهم القابع خارج الدار والقائط في أنفسنا.

زاد ولعي وتعلقي به بعد زواجه من مريم، رغم أنه كان يسايرني وهو مكبلا بعجز لإرضائي بالزواج مِنْ مَنْ أجد فيها نفحة من رغباتي، ليخفف عني سقم الوحدة؛ إلا أنه كان

كالوغف الذي أجلي به بعض همومي، فلا شيء يرضيني الا هوسي.

كانت الشلة قد تفرقت بفعل الظرف، شنت أعضائها، فلم يبق منهم بصحبتني سوى عمر. كانت صحبة جميلة حين كنا نسلي أنفسنا بممارسة تلك الألعاب في المقاهي وتداول شؤوننا، والتي لها وقعها ونكهتها مع الهيصنة والزعيق الدائر والطرائف المبعثرة التي تنفلت من فاه هذا وذاك بعفوية. البعض يمتلك من الخبرة والرياضة الفكرية بحيث له قدرة على تغيير الأجواء بكلمة، والتعبير بما يزيح الملل والكلل عن الأبدان، فتجذبك الألفة إليها برغبة..

على أية حال، رحبت بي أشد ترحاب، وهي مستندة بكتفها على آجر قرميد لجدار الدار الداخلي، دعنتني أجلس في صالة الضيافة لبرهة حتى تكمل شطف الأمتار القليلة الباقية من ركم أرضية حوش البيت، جلست أترقبها وهي تلهم التعب بنشاط وعفوية، تهم بشغف في عملها، مشغولة في ترتيب وتنظيم بيتها، مسرورة في تنظيفه وتلميعه وكأنها نحلة لا تسترح إلا وعملها مخضوب بالتمام والكمال بالرضا.

مثلما رايتها تأملت أن تكون هبة زوجتي تنتظر عودتي في البيت بذات الروح والنشاط، أن تكون ببشاشتها ورتمها وألقها، بذات البهجة والمحبة والرجاء.

أسعفتني بقرارورة بببسي وقطعة كيك من صنع يدها، كشت بهما شطف الحر المتدفق في نواحي الجسد، فأوقفت ترقرق

العرق في نزق المسامات، كشتت الغشاوة التي أرهق أعيان
البصر. حملتني على أعتاق السكينة، بعد أن زقت جلدي
المسجى بحنو رقنها وخضل حنائها، حيث دائما ما يستعر جو
العراق حتى تتسلق الحرارة قمم الدرجات في أيام الصيف.
كانت الحرارة حينها قرابة 35 درجة في منتصف شهر
مايس، مع ضعف وانقطاع شبه دائم للتيار الكهربائي، أضحي
انقطاعه روتيني بعد الاحتلال.

شرحت لها نزق رغبتى الجامعة وغايتى الاكيد فى الارتباط
بهبة، لم تعترض أو تمنع طبعاً، بل تهلل وجهها فرحاً
وسروراً بذلك، حيث قالت:...

- الآن قد بلغت رشذك، كنت أتمنى أن تهزك ريحها قبل
الأوان، أن تفكر بها بنهم، أنها شمعة وضاءة تستحق
الاهتمام. أحياناً أود أن أذهب لأكلهما بخصوصك،
لكنى أترجع لأنك لم تمنحني الضوء الأخضر، لم
التمس فيك رغبة في تكملة نصف دينك.
- بصراحة: كنت قد تناسيتها، فلم تخطر في بالي إلا
متأخراً، أنى الآن متلهف لها بشوق عارم..
- هل تعلم بأنى لم أحظى بلقائها منذ يوم زواجي، مضت
سبعة أشهر على فراقها، لا ادري إن انقطعت عني أو
أنا التي انقطعت عنها طوال تلك الفترة... ياه... يا
للزمن الكسيف الذي يفرق بين الأحباب، يفلت من
أيدينا بجريه السريع دون أن ندرك، يستبيح الأفدة

بالعذاب... أين كنت كل هذه المدة؟... لِمَ لم تفكر بها قبل سنة أو سنتين؟

- يا أختي تعلمين الظرف قاس والموت دائر في الشوارع، ها هي الطائفة بدأت تنفشي، المصاعب جعلتنا ننسى أنفسنا ومشاكلنا، بل مشاكلنا أصبحت مشاكل المجتمع، جم من العقد والتفجيرات التي لا نستطيع احصائها خلال اليوم الواحد، الحالة النفسية مكبلة بالتعب والإرهاق، كلها اجتمعت علينا مرة واحدة دون أن نستطيع علاجها. أضحي الإنسان هيكمل عظمي دون أحاسيس ومشاعر تعينه على الاستقرار والنضوج، الظرف القاسي سرق منا الروحية والحيوية، أودعنا مظالم سجنه، أنتصر علينا، جردنا من أحلامنا.. ثم أنك تعلمين نحن نسكن في أطراف مدينة الحرية، وعلمي في مدينة الأعظمية في ظل القسوة والطائفة، على الرغم من أن المسافة ليست بالبعيدة، إلا أنها شائكة.. أنا في كل يوم أقرأ على روعي الشهادة خوفا من تفجير ما يلوح بدني أو رصاصة عابثة تختارني، فالجندي الأمريكي الذي لا يتوانى من قتل كل من يشتبه به نتيجة الفرع المخزون في داخله والحنق الذي يركب بدنه، دائما ما يكون حاضرا أمامي وفي خيالي. أحيانا أخاف أن أذهب ضحية المقاومين الذين لهم بؤر في كل مكان وخاصة في الأعظمية.

بالغت في الإطراء لكريمتي، كونها أُنبت رجل تقّي معروف بسيرته للقاصي والداني، وبصفة جارة لنا نعرف عنها ما خفي وما بطن، إضافة لحسن معانيها وبلاغة جمالها وطرارة لسانها، وفوق كل ذلك؛ هي صديقة مريم.

بذلك قلت لها:...

- 177

مزحت معي وكل وجهها ينبض فرحا وغبطة، جعلتني أتأكد من أن المهمة يسيرة.

كلفتها بالمهمة كي تلتصق صدق نيتي، مثلما قال عمر، الوضوح يعزز الثقة. وكونها صديقة طفولتها وسليمة ذاكرتها فأني شعرت بالمهمة سهلة أمامي. قد يكون لمريم تأثير سحري على فكرها وقلبها الزهري، كتأثير الشمس على صبغة الألوان. وقد تكون هبة هائمة في رسم أهدافا بعيدة عن غايتي وأفكاري، علينا أن نبدأ ونضع النقط على الحروف.

قد تستخدم ذات الألوان التي أحبذ استخدامها، وقد تكون بعيدة جدا عن واقع ظني وفكري ومرامي، بعيدة عن هيافة خواطري التي نقلتني لضفاف قدرها في لحظة غفلة.

الم تقول مريم أنها رفضت قافلة من العرسان، قد تكون ماضية بتيار غير تياري، وقد تُغرق مراكب أحلامي وأمنياتي في موج بحرها دون أن تعير أهمية لي.... حينها قالت مريم:..

- كنت أدرك شغفك بها، كنت أود أن أعرض عليك ذلك منذ زمن، ولكن فضلتك أن تبادر بالخطوة الأولى كي التمس قناعتك.

- فعلا يا أختي أنا شغوف بها شغف قيس بليلي، مكبلا بقيدها كتكبل جميل ببثينة، عازم على إرضائها كحنو الأحنف على فوز.. لا أعرف كيف أبدأ الخطوة الأولى ومن أين أبتدى؟ لذا سعت إليك يا أختي، وددت أن

تزهـر الـخطوة الأولى على يديـك، وعلى طريـق مريم
سعيد النجار، وعسى أن تتحقق أحلامي.

- إذا عليك أن تبقى هنا لنتغدى معا، وفي المساء أنشاء
الله نشن هجوما مباغتاً على دارها، وعسى أن نحقق
أهدافنا سريعاً.

- إذا فلنتوكل على بركة الله، الغداء ببلاش، والعروسة
قاب قوسين أو أدنى، لثقتي الكبيرة بك على نقل
مشاعري إليها وأقناعها، حتماً أنها ستأتي مكلفة بكرة
عينيك السمحة.

بقيتُ في دارها لساعة بعد الغداء، ثم استأذنت منها ومن
زوجها متوجهاً لسوق الكاظمية لشراء بعض المستلزمات،
على أن أعود للبيت قبل فترة الغروب بساعة زمن.

2- محاولة مريم

بعد فترة الغداء شعرت بحالة من القلق وبشيء من الاضطراب النفسي، نتيجة انفعالات لا إرادية أخذت تشتت في داخلي مع عصف القلق المثار في الذهن من احتمالية فشل المهمة وما إلى ذلك من أمور لاحقة تتبعها نتيجة عدم تيقني من جزم موافقتها، كوني لم أصارحها بشكل مباشر بنيتي. لذا احتمالية الرفض واردة جدا من قبلها. تلك الحالة بدأت تأخذ صدا مفعولها وتتوسع مع مرور الوقت بسبب رفضها لعمرسان كثير. مما باتت تنعكس الإشارة على محياي بالسلب، في محاولة تجنب تسليط الأضواء عليّ من قبل مريم وزوجها، وتجيب مطرقة الفشل التي لا أود تجريب مضماره، لأنني لازلت لم أتأكد من مشاعر هبة نحوي...

ذلك ما كنت اشعر به وأخشاه في واقع نفسي الداخلي، ولكي أغشي ذاتي بهالة من الصمت والراحة؛ كان عليّ الانزواء من المشهد حتى ساعة الصفر، لذا قررت أن أنسلت من حالة الضغط المستثارة في البيت والمستأثرة في داخلي؛ لذا استأذنت من مريم وزوجها بالخروج للتنزه في أسواق الكاظمية، على أن أعود إليهم قبل فترة الغروب بساعة زمن.

خرجت من البيت بروح مفعمة بالأمل، أتجول في أسواق الكاظمية كطير أنشد أُملي في الوقت الذي به تركت مريم تنظم ذهنها في إدارة المقابلة مع هبة والتي هي أهم حدث أكلفها به بالنسبة لي.

خرجتُ وأنا كاظمًا الغيظ والقلق في صدري من احتمالية
الفشل، وكلي ثقة بذاتي وبما ستقوم به مريم من خدمة تجاهي
وتجاه هبه على احسن وجه، كأنها في عملها القادم ستلعب
لعبة الأحجية لتضع كل صورة في محلها المناسب؛ حتى
تكتمل بانوراما اللوحة، لتبرق الأضواء بفيض الابتهاج بها.

هكذا خيل إليَّ عمل مريم، وهكذا اعتقدت سهولة الأمر، ولكن
ما كان يقلقني هو رفضها لطابور من العرسان كما قالت لي
سابقا، فبت أسأل نفسي: يا ترى؛ لِمَ ترفض الزواج؟ ثم أنا بمِ
أتميز عن كل هؤلاء لترضى بي بعد أن رفضت الطبيب
والمهندس والمحامي و... الخ من الذين سبقوني بخطبتها!..

ذلك ما كان يقلقني ويغشيني.

مع ذلك، ورغم ساعات القلق كنت مبتهجا بتجريب حظي.
كنت هوائيا، مهوسا بالحلم الذي أضحى قاب قوسين أو أدنى
من المنال. هائما في بحر خيال تلك المحبة التي اغوتني وأنا
أجوب أروقة الكاظمية متبعا طيفها في الأسواق، متأملا منها
نظرة ترويني؛ أضحت الآن بين يدي!!!... وأنا أجوب سوق
الذهب بذات الكيفية التي شاهدها أول مرة، بت أطرُق
الأماكن التي مررت بها، أمضي خلف طيف تلك الحورية
دون إرادة، أهجس بها تشعر بما أشعر.

بخروجي من البيت كأني حطمتُ قضبان القفص الذي سجن
نفسي به، صرت أصارح خيالها وأنا أمضي خلف طيفها
كعاشق مجنون، خلتها تسمعي، تحاورني وأنا مشغول بها،

بدأت أخلق حكايات المحاورة على ما أهوى وأظن، وبشيء من السعادة والقلق بذات الوقت.

كنت قد صرحتُ لمريم بحقيقة مشاعري تجاه هبة والتي حتما ستنقلها مريم لها بحذافيرها، عندها شعرت بتحرر نفسي من القيد والخوف بعد أن رفعت الضغط عن نفسي، لأضع العقد وحلولها بين أيدي مريم. ما أن رفعت العناء عن كاهلي سلمت مريم راية الحلم، لتنقلها بدورها لهبة بأمانة وصدق.

تجولت في الشوارع والأسواق حتى دب التعب في أوصالي، حينها أخذت قسطاً من الراحة في مقهى الكاظمية، حيث بقيت أتتبع خيط الخيال في صور تلك الفتاة التي شدهت ذهني فيما سبق وهي تتجول في سوق الذهب كطائر الطاووس.

خالني الشوق بأن تلك الفتاة بكيانها وسطوتها ولباسها لا تختلف عن كيان وسطوة هبة في الإطلالة والتميز قيد شعرة، بل يقينا هي بذاتها هبة، بلحمها وشحمها. ذلك للتطابق المقرن بمواصفات الفتاتين لا يمكن أن تكون نسخة شبيهة عن الأصل أبداً.. لكنني لا أستطيع أن أجزم بذلك لأنني أعرف هبة وعمق تاريخها وتاريخ والدها بشكل جيد.. وبذلك تركت الحيرة تسرح في فيافي الظن بين يقين يطرق عقلي وشك لا بد في قلبي، سارحا في خيالي، كلغز يعوم في مفاتن الفتاتين، بين أن تكون فتاة الكاظمية هبة بذاتها أم شبيهة لها؟. تركت الذات تتأمل أروقة المستقبل القادم من الأيام، بحثاً عن الحقيقة الغائرة والسعادة المرجوة في أحضان هبة.

بذلك الخيال تطوفت في بعد زمن عميق، بحثاً عن بؤرة القوس الذي تلتقي بها الأهواء على الخير والبركة، متأملاً أن أجلي عن فكري خطوط الشك الحمراء والتهمة التي تراودني لأنعم براحة بال مع صور هبة.

من خلال خيوط الوصل الممتدة بيني وبينها المحسوبة بعمق سنين والمعرفة التي جمعتها كجيرة؛ حاولت ترميم صرح البناء بيننا في مواقف عدة، بعد أن وثقت بخطوة إقدامي وعرفت مبتغى اتجاهي. ذلك ما جعلني انسى متاعبي المزمنة مع زئير النساء الذي ما شربت منه قط، معتمداً على الثقة المفرطة بالنفس وجذور العلاقة بيني وبين هبة. في الحقيقة لم أنظر إلى القلب ونبضه، وإلى ما تشتهي النفس وترغب، تجردت من الفكرة تماماً، نظرت إلى الشرف والعفة والعلاقة الزوجية.

خلال تجوالي في الأسواق كنت قد تبضعت بعض الحلويات من نقل وبرازق وكعك وحلقوم لمريم وزوجها، حيث كنت واثقا من نجاح مهمة مريم في إدارة الأزمة التي أتأمل فيها فك طلاس هبة. لعمق العلاقة المتينة التي تجمعها بها كرفيقة طفولة، وللصراحة التي يشتركن بها منذ صغر سنهن، كل منهن تعرف عمق زميلتها بكل حيثياتها وتفاصيلها، وتكل لصاحبيتها جلّ الاحترام والتقدير، كما تنظران لي بذات النظرة والتؤدة منذ أن كنت أحل لها المسائل المستعصية، وحين أرافقهن لمقعد الدراسة في ذهابهن وإيابهن من المدرسة...

بعد أن صرفت الوقت في الأسواق؛ عدت لدار أختي قبل المساء بساعتين، كانت قد هيات مريم نفسها وتخطت حواجز الفرقة التي فرضها الزمن ومعاكسات الظرف المقيت عليها؛ فمئذ واقعة زواجها لم تلتقي بها، انقطعت خطوط السبل بحكم الظرف وبعد مسكنها عن حيناً.

كانت هبة بحد ذاتها قد انقطعت عن زيارتنا منذ أن غصت في ثوب الحجاب استجابة لأوامر والدها الذي فرض عليها الحجاب وسجن البيت مع بداية مشوار دراستها التأسيسية.

بعد تلك القطيعة الطويلة نسبياً أعددتُ لها حلقات الشوق لتصاهر صاحبته، بعد أن جعلتها تسعى خلف جلجلة سعي المرهونة بقلب هبة، تركتها تعد ذاتها وهي تحمل بين كفيها طبق جواهر رغبتي، لتضعها بين يدي هبة بشكل من أشكال المحبة والتقدير، عسى أن توقد شمعة الأمل في الطريق لتضيء صفحة غدنا الآتي.

كانت مريم قد أبدت رغبة صادقة بلقائها وإعادة تلك الصحبة المنسية لجادتها، ذهبت بأناقة الشوق وبوجه باسم وبرغبة جامحة وهي تحمل في رحاب صدرها باقة ورد من الود القديم لها. كانت قد تأبطت ذكريات الطفولة ومشاكساتي لهن بين جوانح فكرها، لتضع صرة الحنين واللهفة بين يديها، متألمة منها أن تنثر الوان الفرح في أروقة الألفة، لتقترن السعادة برضا هبة.

خريطة المنطقة تضع داري ودار مريم ودار هبة في وحدة واحدة، يكاد يفصل بيننا بعض الأزقة والخطوط، ولو صورت المنازل الثلاثة من الفضاء لوجدتها تمثل رؤوس مثلث قائم الزاوية في دارنا، بينما الوتر يمثل المسافة بين دار مريم ودار هبة.

أسرعت مريم بخطاها نحو أحياء غاييتي وقصري، حاولت أن تجد ركيزة لما أبغي، كما حاولتُ جاهدا أن أزيدها حيوية وثباتا وإقدام. لقد تحزمت بالود والثقة آملا بنجاح مهمتها، فمن الناحية الواقعية ستبذل ما في وسعها لإنجاح المهمة، فهي أقرب من حبل الوريد لهبة... ومن الناحية النفسية شحنت ذاتها برغبة جامحة في زواجي من هبة محبة بذلك، خاصة مريم تصغرني سنا وقد جربت سحر القفص الذهبي قبلي، إضافة لرغبتها بأن تكون هبة قريبة أبدية منها، لذا شدها الحب والحنين لتجهيز ذات القفص لأخيها وصديقتها.

لذلك عدتُ نفسها كأيقونة محبة ووله ستكون تحت المجهر من قبلي ومن قبل هبة ومن قبل ذاتها الخفية التي تسيرها، ذلك ما جعلها تحمل الآمال العريضة في جعبتها وهي ماضية لدار هبة بأبهى طلة ورجاء..

ذهبت لدارهم قبل أفول الشمس بساعة زمن تقريبا، تركتني حبيس البيت، ملما بجوارحي التي صارت تصطلي بنار الجوى ونار الانتظار، شاعرا كأني في حرب ضروس مع الزمن البغيض، مبهم الحالة، مهووس بالغد، مواجهها كدر

العذاب بطي ذكريات أمس المرة، متأملاً فسخ عقد العزوبية من واقع الحياة.

حاول عامر أن يشاغلني بلعبة النرد، إلا أنني جاملته وسأيرته دون تركيز، كون الفكرة تذبذبت في ركنها، أضحت كنور يجهد في مسراه لحلكة الحالة، لعلي كنت أسرح خارج اللعبة، لذا تنحيت بعيداً عن مجريات اللعبة، بت انقلب جمر الصمت متأملاً خبراً يفرحني. لذا تمكن عامر من الفوز عليّ بكل سهولة، على الرغم من أنني قد علمته فن اللعبة والتباري، وذلك بعد أن دونت أسمه في سجل الشلة. حينها وجد الفرصة متاحة أمامه ليظفر بفوز معنوي عليّ ولأول مرة، حيث كان يدرك مقدار تيهي وضعف تركيزي.. عندها اكتفيت وقلت له:...

- غداً لنا جولة أخرى، والآن لا تستغل فرصة شرود ذهني وهواني.

على ضوء ذكر الشلة، طرأ ذكر فهد الذي استشهد جراء انفجار كبير أمام مقهى السلام في وسط الكرادة، أخبرت بذلك عامر الذي لا يعلم بأخبار الشلة:..

- من أخبرك باستشهاده؟
- سمعت ذلك من عمر، فهو يعتبر المحور الذي تجتمع عليه الشلة، وكان المرحوم دائماً ما يتواجد في الكرادة وفي أسواقها، هكذا خسرنا واحداً من خيرة أصدقائنا.

الله يرحمه ويدخله فسيح جناته، ابتلينا بالاحتلال والفوضى.

- متى كان ذلك.
- في الانفجار الثلاثاء الأخير الذي حدث قبل أسبوعين.
- من الظاهر الأمور ستتعدد يوما بعد يوم، كلما تأملنا انفراجا، تجتاحنا عاصفة تذر بأفكارنا في مهب الريح.
- الله يستر من الغد، دعنا لا نشغل بالنا كثيرا في أمور السياسة التي ذبحت الوطن من الوريد، وإلا لن ننفك من العقد.

خلال فترة مكوثها في بيت هبه، أشرفت على سيناريوهات عديدة خطرت في بالي، قسم منها حملت سنا بلها حبوب التفاؤل، وأخرى كانت هفافة معبئة بغل الهم.. لكني في قرارة نفسي لم أكن واثقا كل الثقة من رضاها، لعدم احتكاكي بها سابقا. كان يجب أن أكلمها وأؤكد من مشاعرها تجاهي.. ذلك الشعور كان يعتريني لعدم تمكني من الوصول لأي إشارة رضا توحى لي بميل رغبتها لرغبتني، كرسالة أو رنة هاتف أو نظرة أو كلمة أو أي شيء تدهن به رغبتني، لم تجمعنا سوى نظرات عابرة غير مترجمة، لا تفي بالغرض....

ثم أني دائما ما أربط بينها وبين فتاة سوق الكاظمية في واقع فكري دون أن أكون متأكدا من مصداقية ظني، كاتما ذلك السر في داخل نفسي بشيء من الألم. كنت أفاضل بين تلك وهاتيك من المواقف، حيث أميل لجهة ثم أعود بميزان مقياسي لأميل للجهة الأخرى دون أن أصدق الظن أو أرفق

بيقين، لا اعتبارات عدة أخلاقية وأدبية ودينية ونظرية وجدلية وفلسفية وسحرية.. الخ.

أكاد أكون مطلع على اعتباراتها الأخلاقية والأدبية بحكم الجيرة، أما النظرية والفلسفية والواقعية التي لم ألم بها وأتبع سرها بمحض الجد للفترة الزمنية التي فرقت بيننا، فلم اقترب من شاطئها منذ أن شطت عن عيني وذهني بعد تحجبها؛ فلم أهتم بها لصغر سنها. فتلك هي التي تربك ذاتي وتشغل تفكيري، فالحالة تميل إلى منح هبة شهادة ثقة تبعتها عن واقعة سوق الذهب، لمكانة والدها وحسن تربيتها التي أنا متأكد منها، لذا بقيت أتنطنط على واقع تقلباتي الفكرية، حيث المسألة لجديتها لا تحتمل الإسفاف والتجني، كون العلاقة بين العائلتين جذرية وعميقة، يكتنفها الود والاحترام والألفة والصداقة، وكوني أصبحت متيم في هواها- أما ما كان مخفي ضمن تقلبات الظرف والانزواء الذي حصل لي ولها، فذاك ما كان يشغل ذهني ويزيغ فكري عن واقعي.

في فترة غياب مريم والتي لم تغب سوى ساعتين زمن تقريبا، أحسست بأني أعيش في عالم مهلهل، في مطرح مكشوف يقبع على حافة جرف هار، لا أعرف متى يسف بي القدر وينهار ذلك السقف.

أهجس بذاتي تقف في نقطة اللاعودة، في فراغ بسعة الكون، فارغ حصين بلتعة الغد، متلفع بخمار الشك، عائم فوق موج القدر. عالمٌ أجرد تكتنف أفاقه جفوة، لا طيرا يصدح بسمائه ليسليني ولا نجمة تسهد ليلي لتغريني. كنت اشعر بذاتي هزيما

في داخلي الذي يكتنفه صمت مدوش، لا أنا واثق من نجاح مريم في مهمتها ولا يائس من رفض هبة.

أهجس بغريزة الحب في داخلي منتبذة عن قلب كلوم متورم كورم سرطان، عناصر الشك تنغز به، تهرش العقل، لا أدري كيف أفض مخزون ذلك الشبق الذي أضحي يتعفن صديده في مهجي... رغم سعة الحياة إلا أنني أشعر بها ضيقة جداً، لا تحتمل حمل حلم شع في صدري.

مر عليّ ذلك الوقت ببطء شديد جداً، كأنّ حبل الشك والفأل السيء ألتف على عنقي، صار يحز رقبتني ويخنق أنفاسي، وكأن مريم قد تكلمت برفض هبة، حيث بقي الصمت يمتد بيننا، فلا خبر منها هل، ولا مهاتفة شرحت الحالة ودلت على نجاح المهمة.

كنت أبرر لها الجفاء الطارئ، ربما لم تجد فرصة سانحة تريخ بها أعصابي برسالة sms. لكنني أيقنت بأن النية التي ذهبت بها، قد تعثرت في مسراها، ارتدت برقع السواد. لأن الفرحة المأمولة لا تصبر على الصمت والسكوت في مثل هذه المواقف.

بقيت أعاني على مضض حتى كلت نفسي ساعات الانتظار. بقيت شريد البؤس والقلق، لا أجزء أن أغادر حدود الصمت وخيلاء التشاؤم، شعرت بسيل اليأس دنى من قدمي، جرف الاحلام لوهدة الرحيل، جزل الصبر في انفاق الشك. ما عدت اثق بنجاح المهمة قط.

حاولت أن أسلي نفسي بشيء من العبث لأبعد سوء الظن عن فكري، كي لا يؤرقني رنين القلق. دخلت المطبخ بحثت عن فاكهة ما أو طبخة أسلي بها نفسي، فبعد محيص واستنفار استقرت ذوايب الروح على برتقالة ريانة، مضيت إلهي نفسي في تقشيرها ومضغها على رواق، فأحسست بتبدل بسيط في غشاء النفس والذهن.

بت أشعر بالجوع وكثرة التبول، لقد أخذ القلق يتصاعد وتيره في شرايين الجسد، بحيث صرت كل عشرة دقائق أدخل للمرافق لأتبول، حتى كرهت ذاتي بسبب دندنة القلق الذي ركب مركب الوجدان والحلم. حيث عندما يشعر الشخص بالقلق أو التوتر، ينشط الجهاز العصبي اللاإرادي، فيطلق الدماغ استجابة عند مواجهة موقف محفوف بالتوتر تؤدي إلى إفراز هرمونات التوتر مثل الأدرينالين والكورتيزول يؤدي إلى التبول ورفع ضغط الدم...

دخل عامر معي المطبخ، ساعيا مساعدتي...

- لا بد أنك بحاجة للشاي..
- فعلا الشاي يزيح القلق.
- إذا سنشرب الشاي المهيل..
- وهو كذلك، جنّت في وقتك..

قال ذلك وهو يصب الماء في أبريق الشاي (القوري) من صنبور الحنفية، وصار يضع ملاعق من الشاي الأسود مضيفا إليه بعض حبات الهال.. وبعد دقائق خدر الشاي؛ ثم

صب منه استكانين (اقداح الشاي)، كما أضاف في صينية الشاي صحن من البرازق والحلقوم الذي كنت قد جلبته معي من سوق الكاظمية.

ارتشفنا الشاي المهيل على رواق رغم أنني لم أكن على مرام، للقلق الذي نغص ذاتي ونفض غباره في حضني بسبب تأخر مريم. الحالة أخرجتني عن كياستي، اطبقت على فاهي بصمغ السكوت. اهجس بالظن السيء عصف بفسطاط فكري.

بعد العنا برحت أبحث عن طابع آخر يجردني من قيد هوسي، فضغطت على زر التلفاز لأغوص في بحور برامجه، عسى أن ألتمس ما يزيح عن ذهني لون القلق والهم، فأزفت بمشاهدة أفلام كارتون توم جيرري، لأنني كنت بحاجة إلى مادة مسلية تشغلني، تسرقني من واقعي، تنتشلني من كآبتي، تجردني من التفكير الشره، شيء ما أتصفحه بهاجس النظر لا بالفكر؛ حيث الفكر ما عاد يحتمل ضغطاً إضافياً، ما عاد جديراً بتقبل الأشياء وتفسيرها.

فعلا شغلني التلفاز؛ فأراق شيئاً من قلقي وأزاح حملاً من سقمي وهوسي وعذابي، فأوطد هالات البسمة على الشفاه، فارتخت عضلات الوجه المشدودة قليلاً عما كانت عليه.

عادت مريم بعد أن ماد بها الزمن لما بعد فترة العُتمة، عادت تجر أذيال الخيبة، منزوية تحت دهمة عباءتها وظلال الغسق، عادت بصمت، مكبلة بقيد الفشل الذي سرق منها ذاتها وفرفشتها. عادت برتم خطوات متكسرة، كأنها تجر صرة من

اليأس خلفها. عادت بجعب خاوية، إلا من قافلة أطرقت بها رأسي، أدمغت بها صمتي، شتتت المقل. كانت قد عادت بعد ساعة من غروب الشمس بوجه جهم، وبصرة من العلل.

حين عادت كأنها استوحت لون وجهها من عتمة الظلمة وكرابها، من عقم اللقاء وشقائه، من فيض العناء ولغظه. بدت خطواتها دميمة لمن يترقبها عن بعد، كأنها بذلك تلوم ذاتها التي أوقعتها بوهدة الزلل. هجست بها وجلّة، مشدودة العصب.. ليتني ما أسرت لها مأربي، ليتها ما سجرت الفؤاد بنار الفشل.

وجدتها ليست على ما يرام، فعن بعد كنت قد قرأت رسالتها وأحكمت على تفاصيل اللقاء من المشهد. وحين دنت لم أسمع منها غير ملامة أسف لامت بها تلك الألفة التي ذهب طرائها بمهب الريح.

كانت منتكسة على ذاتها، مشغولة الفكر، شاردة الذهن، لم تتوقع ردة فعل هبة تجاه طلبها، ولم تقرأ جيدا أضواء فكرها، فلم تتمكن من الدفاع عن نفسها أمام عصف ذلك الجمود الذي تمثلت بها هبة..

لم تكن خيبتها بسبب فشل مهمتها في أول مهمة أكلفها بها، إنما كان تأثرها بسبب جفاء اللقاء وتهرب هبة من قيد صداقتها. فلولا خيط رابط الصداقة القديم الذي يجمعهم؛ ربما ما استقبلتها بذاتها، ربما ما كانت تخض تلك التجربة المذلة،

وما ولد في داخلها ذلك الدافع الذي حثها على خوض
المبادرة.

تلك المَعَزَّة التي كانت تكلها لكينا هي التي حملتها على
خوض التجربة، فتحملت أوزارنا في سبيل غاية تجلها. لكنها
فشلت التجربة، عادت بريية وانتكاسة، كانت قد أغرت بلوحة
البهجة التي رسمتها لها، فركبت موج البحر إكراما لصقل
رغبتي والاعتناء بمشاعري..

عرفت نتيجة المحاولة من جهم وجهها، كنت أهجس بها خلال
عودتها وهي تمشي مشية السرطان الذي يعق في مشيه،
تخفق الساق بالساق. حيث قالت لي بعد أن استقبلتها بباب
الدار:..

- أنسى الموضوع؛ أتركها! لا تفكر بها!.... رفضت
فكرة الزواج جملة وتفصيلا... لقد تغيرت طباعها
كثيرا عما أعرفها، ليست هبة التي أعرفها بذات
الطيبة والفرفشة، كأنها ارتدت جلباب فضٍ لا يليق
بها. وجدتها غريبة الأطوار، عقيمة، بليدة، كأنها لا
تعرفني من قبل، لقد نست الرفقة والصدقة التي
جمعتنا، أهجس بها مكبله بأمر ما يفوق طاقتها، تهجس
بها تعيش خريف حياتها رغم أنها في أوج ربيعها.
كل شيء تغير فيها، سمتها، طبعها، لياقتها، لباقته،
سريرتها... لم أشعر بأني قابلت قرينتي وصديقتي قط.
لقد كان اللقاء لقاءً عابرا، لم يبلل رمق جفني لشدة
جفائه. كان أشبه بلقاء الغرباء، كشخصين ألتقيا على

هامش الزمن. لقد تبدى ذلك الشوق وخبأ نوره، ولم
يعد للود ماض يؤطره.

أمسى حديثها يكتنفه هذيان وغموض ولغط ممزوج بقيح غير
مفهوم.. لم أفهم منها سبب الرفض أن كانت جانحة بفكرها
لغاية ما، أم معلقة بأمل ما، أو مرتبطة بعلاقة جدلية.... لم أزد
من الإلحاح في لكاك الصحن، كون الرغبة مشلولة عند هبة،
فخرجت من الدار دون أن أعرف أصل نواياها المعقوفة،
حيث مريم بذاتها لم تصل إلى شواطئ قلب هبة.

ومن جانبي؛ فأنا أيضا عقلت الأمر، فلم أزد من إلحاحي
المذل، وقررت أبعادها نهائيا عن دائرة الفكر والرغبة، كونها
لم تتماشى بخط مواز مع سكة رغبتني، إضافة لأنها جعلت
أفكاري تضطرب كأمواج البحر دون هواده...

اضحى الذهن مغيب تماما عن الواقع وعن مخططات
المستقبل، لقد أثرت كثيرا في انحراف سلوكي وتصرفاتي،
بحيث بت أشعر بها كعشبة مخدرة أدمنت عليها ولا بد من أن
أتخلص منها.

حينها أرفقتها بفتاة الكاظمية، لصقتها بفتاة سوق الذهب، بل
أحكمت عليها بأنها هي ذات الفتاة. لقد شغلتنني عن وظيفتي
والمطالعة والتخاطر مع الآخرين، وأخرى نفسية كبلتنني بها،
كما عزلتنني عن متابعة الفتيات الأخريات. فخلال تلك الفترة
من المتابعة زدت أعياء وفضاظة وأنا كنت في غنى عنه..

وكوني قد قرفت الحالة وكى لا أزيد من الطين بله، ولا أفرض نفسي ورأى على كائن من يكون، جردت نفسي من متابعتها، وهذا الطبع أختزل معاناتي وزادها في نفس الوقت، أختزلها حين بت لا أفكر بها أبدا، فيما زادها اسفاً للأسف على خسارتها وهدر أوقاتي بمتابعتها، كوني تأملت كجوهرة نادرة في بحر الشوق والهيام فودت أن احتفظ بها وأحتمي بحشمتها وكرامتها أمام عصف الزمن..

صرت أعيد لروحي هيكله الذات، وتجديد آفاق النفس في مجالات أخرى، لذا فضلت تعويضها بأخرى أن أمكن ذلك. اعتبرت كمزنة صيف لم تبلل سوى ذوائب الروح. كما اعتبرت تلك الفترة فترة لهو ونزوة عصفت بأشعة أفكارى.

في الوقت ذاته تركت المسجد وصلاة الجمعة في مسجد أبوها، ولم أعد أتابع خطبه ومسايرته كما كنت.. بل بت أحاول تجنب ملاقاته في الطرق لألا تهجس هبة بأني اتبع خطواتها عن طريق متابعة والدها...

كثيراً ما الحت كريمتي مريم على أن تخطب لي إحدى صديقاتها، كأنها تود ترميم جدار الصدا الذي آل للسقوط... إلا أنني لم أجدا دافعا حقيقيا في أعماقي لاقتراحاتها، لم أقتنع بزواج مكبول بالفشل، الزواج من امرأة لا أعرف مداها ولا صداها ولا عمقها، ولا أعرف عنها شيء سوى أنها قالب أنثى مدجنة بارهاصات غريزة أنثوية، تبحث عن أعضاء ذكورية تتعشق بها. لا أدري أن كانت تلك هي عقدة تحذرنى من غدي أم ميزة صاحبت تفكيرى.

كنت واثق من أن حظي كورق المناديل، شفاف، يتمزق من لهفة، يحترق بلهبة، كالحظات الغبش، سرعان ما تشف تحت وقع أشعة الشمس اللاهبة. أهجس به لن يتخلى عن صفة الخذلان الملتصقة بي، ولا يتخطى مجال التيه في أزقة النساء، لقد جربت ذلك الحظ كثيرا، كانت اختياراته دائما ما تعاكس رغباتي وآمالي، أنه أشبه بالظليل في خضم المحن، مقرون بالجن والخلج، متوشح بسواد الليل، كمتهم هارب من العدالة. أعرفه جيدا، ينطبق عليه وصف الشاعر السوداني المجنون أدريس جماع الذي قال:.....

أن حظي كدقيق بين أشواك نثروه

وقالوا لحفاة يوم ريح أجمعه

لا أود أن أكون حقل تجارب تزيدني مرارة وتعقيدا.. يكفي أنني أعاني من نقص لا أدرك ثناياه، كأن ذاتي خليط من فسيولوجية العقد التي تكورت وترسخت وتجذرت في شخصيتي بفعل قسوة الظروف. هكذا أراها ولم أعرف درجة رؤى الآخرين لها في تكويني الفكري والبدني والديني.

لذا كان قراري قرارا قطعيا، يعبر برجاء عن حالة التآني والتروي، والتريث والتمهل وغلق منافذ المحاولة والتشبث بالصبر في مسرى حياتي.

فقلت لكريمتي:.....

- صبرا يا أختاه؛ دعي الحظ يبحث عن نفسه بين ثنايا
الأشواك، عسى أن يجد جوهرة مكنونة في فلاته،
دعيه يتدحرج على سفح العمر، حتما سيلتقي بالقسمة
المكتوبة له في موطئ ما، فهي مكتوبة باسمي ولن
تكون لغيري أبدا.

3- السهرة التي قلبت موازين العاطفة

أسدلت الستار عن هبة وأدركتُ بأن القسمة أضحت بعيدة المنال، فالرغبة لم ترتقي الغاية، وأن الحظ لم يكن في يومه فتعثر في مسراه، وأن الفشل عاد وركب سنام الحظ فحال بيني وبين من أرغب بذات الكيفية والصمت.

لم أعد أحتمل هاجس البؤس، لم أجد في جعبة هبة مرونة تعين ذاكرة الود وتقبل ارهاصات عاشق!. تألمت كثيرا في داخل نفسي وأنا أجاري عالمها دون جدوى. أوحى إليّ إحساسي إلى افتقادي ثقتي بنفسي وافتقادي فرص أمل حقيقية توافق ظني لأواكب مجرى الحياة بهدوء كباقي الأنام.

حتما هناك فرص قادمة، لكنها ضئيلة، لن تكون أفضل من سابقتها وقد لا ترتقي بمقبوليتي درجة القناعة التامة، وحتما لن تكون قريبة وملموسة على مدى الفكر والنظر، ربما ستأخذ مني أشهرا أو سنينا أخرى حتى يخضب عود الفكرة ويزهو من جديد، ذلك متى ما استقر الفكر وهدأت النفس وازاحت العقد من على صدري.

أکید ستأتي القسمة المناسبة يوم ما خلال دورة الحياة التي باتت تتجدد نفسها كل سنتين أو ثلاثة بذات الكيفية، وأرجوا أن لا تطويل مدتها كثيرا في المرة القادمة قبل أن أعبر عتبة الثلاثين من العمر، وإذا ما حلت؛ حتما ستجلي غمام عن وجه السعد.

{ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } [البقرة: 216].
صدق الله العظيم.

لقد جعلتُ أمور القسمة في نصاب القدر، لم أسعى في البحث عنها، كونها في تقديري مرسومة وجاهزة من قبل الإله، ولن ينبثق ضوئها إلا في وقتها؛ فالزواج والموت هي أقدار مكتوبة (الخبثات للخبثين والخبثون للخبثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات) سورة النور (صدق الله العزيز).

فأنا أشعر بذاتي الطيبة لبيبة، محاطة بنور إلهي يحفظها من الزلق والعوق، لا أخاف عليها من هاجس المصير القادم، فلم تعلق بها النفس الأماراة بالسوء قط؛ لأنه لن تستطيع النفس الغنية من أن تحتل العبث الفقير بأشكاله المتقلبة، لذا؛ لن أجزع عليها من المصير أبدا، فرحمة الله واسعة وقانطة في الأفق.

من جانب آخر عشت صراعا مع الذات بين نفسي التواقعة لهبة والنار المضرمة في الحشا، حيث الرغبة مجروحة في خصرها.. ففي نفسي النجيبة رغبة جامحة أن أرتبط بامرأة صالحة، جميلة، تخاف الله ك هبة. لكنَّ الفرصة تماهت بلحظة غفلة في غياهب الجب، أهجس بها كسمكة انسلتت من قبضة يدي بسبب ما، بت أشعر بجفاء، بعناء، بمعرفة اسباب الرفض، علي أعالج أمري مع سواها، فهي لم تتح لي فكرة التنظير والمجادلة، وكما أن الرغبة في داخلي هيَّ رغبة النفس، لن تكمها قاعدة أو صلة. كما أنها لم تدع لفكري

ولنظري مجالا للتبجح في أوراقها السرية لأتمسك بها حتى
تحل عقدها، ولم تدع رغبتني أن تفلت من لواعجها، كانت قد
أوثقت غايتي بها تماما، وكأن سرف عجلاتها لم تعد تحتل
مشاق البحث والطريق.

كوني قسوت على ذاتي حين جنبتها المغامرات، حين
حرمت عنها اللهو واللعب والمجازفات واللامبالاة بالفرص
السانحة؛ أهجس بها قيدت بالعقد، لم تعد تجاري نيأتي
وغاياتي، كأني بها قد عاقبتها على رزانتها وطيبتها بالكرات
الأحمر والحرمان، فارتدت جلاباب الكياسة والخل.

كان لصفة الخجل التي تفوقت بها دور بحسم عزمي ونزف
هيامي، دور في نفوق رغباتي على شواطئ صمتي. كما كان
للظرف الاقتصادي المزكوم بالتقشف دور في صهر قدراتي
ونزف طاقاتي وأوقاتي في العمل.

بحكم الظرف القاسي؛ صار الشخص يبحث عن مصيره بين
دهاليز الفاقة، ضمن قرارات حكم الزمن، دون القناعة بصيغة
القرارات المتخذة، لذا سايث الظرف لإراحة الضمير، متأملا
سعادة آنية، وأن كانت غائرة في جوف العدم.

من طبيعة الذات أنها تتمرد على الواقع، حتى لو طابق الظن
فرضيته. ذلك ما يجعلها تجدد تكوينها ونظرتها للحياة...
بصراحة الحرب والحصار ثم الاحتلال فترات نخرت عقولنا،
أفسدت نفوسنا، عقصت غاياتنا، بتنا نجوب الرواق كسكاري،
لا نعرف كيف نجنب انفسنا موجات الزلوق، بسبب سوء

التخطيط والعنجهية الزائدة في نفوس القادة، إضافة إلى طمع الدول الناقمة والحاكمة بخيراتنا وتدخلاتها المستمرة في شؤوننا؛ حتى وشلّت طاقاتنا، بحيث لم يعد لنا شأن في إصلاح ذواتنا قدر معالجة جروح الوطن.

وبالأحرى خلال فترة الجامعة؛ كنت قد أغرمت بواحدة أو باثنتين من الزميلات بشكل جدي، ولكن كان حبا أبترا، أعرجا، يمشي بقدم واحدة. يتغذى على شمع الظن، حتى تسيح منه لهبة مجنة تحرق أعمدة الصبر... حيث الحب من طرفٍ واحدٍ يكون ذا لهب أزرق دون دخان، يكوي صاحبه. لا هسيس له ولا همس يواكب زفير آهات الفؤاد، ولا نظرة تسام في محجر العين.

هكذا كان يولد الحب ميتا في مهده، يدفن في مقبرة الصدر إلى يوم البعث. لم ينتبه إليه أحد، لم يدرك ظله وسناه غير شاعره المجنون الذي سكن فيضه جوف اللسان. هكذا يُهرس حنو القلب ولُب الفكر؛ حتى تسود جذوره وتتساقط أوراقه، عندها تغدو تعابير رغبته سطحية، باهتة، لا رونق فيها أمام المقابل.

ذات مرة سألني عمر:.....

- لم لم تتزوج وقد قارب عمرك الثلاثين؟ ثم لأن
لطرفي يغني لي أغنية ياس خضر - عمر وتعدى
الثلاثين ولك لا يفلان -

أي بعد الثلاثين ينكسر ظل الشخص فيميل نحو فيء العجز، لذا على الشباب أن يسعى بأدراك ذاته قبل فترة الثلاثين من العمر، عليه أن يستغل فترة العشرينات بتجديد حيويته ومصيره وتخطيطه لمستقبله العاطفي باستمرار، عندها يكون قد نضجت وتفتحت أزاهيره أمام الفراشات الطائرة في أجواء صبحه. ولكن من يعيش في العراق أو يمر بظرفه يتعرض لضغوطات جمة، فتختلط عليه الأعباء، فتتسلت من قبضته الفرص والسنين دون حساب، فيضيع في تيه أزماته.

خلال فترة عشرينات العمر تكون خلايا الجسد قد أدركت ذروة نشاطها وهياجها وألقها، حينها تشرع بالبحث عن حاجتها النفسية والجسدية في مرفأ الجسد المقابل، لتتكامل فسيولوجيا وشعوريا ونفسيا، ليخمد بركانها وتستقر هياج نارها المتأججة... فترة يجدُ بها الشخص أنه بحاجة لشريكة حياة لـ فض مخزون قلبه وفكره وألقه من المشاعر والأحاسيس والغرائز الجنسية. أنها الطبيعة.... لذا على الشاب إذا ما توفرت له الفرصة عليه أستغلالها استغلالا مبرمجا، لأن الفرص لن تكرر ذاتها. كي لا يسقط مهزوما في مستنقع الندم لا يستطيع تغيير مجرى واقعه.

قلت له:....

- لم أجد من تتطابق أهوائها وعزفها مع إرهابات أوتار عودي، تلك النغمة التي لا أستطع أن أحيدها عنها، لم أجد الفتاة التي يرف قلبي على وقع خطوات قدميها. التي رسمت لها جدارية على جدران الفكر، تلك التي

أحلم بها منذ الصغر، كنت قد كلمتك عنها سابقا، والتي تخيلتها وردا لأصيص قلبي. لقد حاولت معها قبل أشهر، لكنني لم أفلح بمحاولتي. لم تعد كما كنت أتخيلها، تغير مزاجها، تبدلت رغبتها، شط فكرها، لا أعرف ماذا تبغي من الحياة.... حين كانت تزورنا لغرض الدراسة برفقة كريمتي وهي لازالت برعم، تأملتها مليا، لكنها كانت صغيرة. حين كبرت، نضجت، أبهرت العيون من حولها، حركت زغب المشاعر عن سكونها.. لقد حاولت معها؛ لكنها لم تستجب لإشارات الفؤاد، عندها شعرت بالانكسار والفشل.

سألني بخبرة الأستاذ؛....

- لم فشلت؟
- لا أعرف.. إنها رفضتني وحسب. بصراحة صرت أتجنبهن، أخاف من المجازفة وتكرار التجربة، خوفا من تكرار الفشل. لا أعرف ماذا ينقصني بالذات، وماذا يبيغين النساء من الرجل؟ وماهي المثالية التي يبحثن عنه وغير موجودة فيّ.
- هل كلمتها قبل أن تحاول خطبتها؟.. أعتقد أنك لم تحاول بشكل جدي، لم تخطط للزواج بشكل مدروس... أسمع يا أبني (قالها من باب المزح والاستهزاء)... التخاطر بالأفكار، والجادبية البراقة، والهيئة المنمقة، والنظرات المتبادلة، واللباقة بالحديث،

والقليل من الطرافة، والبسيط من الهداية، والاحترام المتبادل، وتقبل رأي الآخر، والإطراء، والصراحة، والصدق، هي مفاتيح القبول والرفض...في هذا المجال عليك الاعتماد على نفسك بالذات، كي تحس بك وتحس بها. هذه المسائل حساسة جدا تعتمد على الشخص المعني، يجب أن لا تعلق مصيرك وفشلك برقاب الآخرين، فالعلاقة تعتمد على إبراز الهوية الشخصية وأثبتاتها...شخصية الإنسان هي مفتاح نجاحه في كل الميادين، دونها لن تكون هناك توافقات بين الرجل والمرأة... فالنجاح هو حاصل جمع الاستعدادات، والميول، والغرائز، والدوافع، والقوى البيولوجية الموروثة، مع صفات الميول المكتسبة، من ثقافة، وشجاعة وأناة وكرم..ووو.إلخ. لذا عليك أن تفهم حقيقة نفسك وتفهمها حقيقة ما تشعر، عليك أن تعرض عليها صور شخصيتك المبهممة الغير واضحة لها.... لا تنسى أنها عرفتك وهي طفلة، لا تدرك خفايا الأمور، ولكن الآن كبرت وترعرعت، فالمفاهيم في فكرها تغيرت وتغير مفهومها للحياة، تبدلت نظرتها اتجاهك، عد وبين لها بواطن شخصيتك الخفية، عندها ستجد النتائج تصب في صالحك.

الحقيقة المزعجة التي وجدتها، أنه أدرك حقيقتي دون أن أتطرق له بها أو أسمعها جعجعتها، كان أشبه بالعراف أدرك المخفي من ما أخفيه، وأبصر بواطن عيوبي. كأنه كان يقرأ كتابا مفتوحا، تمكن من توضيح الالتباس لي دون أن أطلب

منه ذلك، أنه معجون بالخبرة.... الحقيقة هي كما قالها لي عمر:.... يجب أن أخطط بجد، وأهين نفسي، وأفرض شخصيتي قبل الأقدام والمجازفة؛ لا كتلك التي جلبت لي الخذلان والتعاسة وضيقا في الصدر وتشتتا في الفكر.

الزواج: وهو اتفاق مبني على تقارب المشاعر وتطابق المبادئ، يسبقه جاذبية ولباقة ويقين، تعزيره إرهابات صخب وقلق، تراعيه نظرات حب وعواطف متبادلة وأدعية وصلوات، تصونه لياقة سلوك ولباقة لسان وكرم وشجاعة واحترام. ومن مستلزمات الزواج الصبر والأناة والتحمل، وقد تعتري الشخص ظروف غير محسوبة على سياق الحظ فتحيل سعادته لعذاب وألم!....

أين هبة من كل ذاك؟ فهي ليست على علم بحجم محبتي لها أطلاقا، وغير مطلعة على حقيقة شخصيتي عن قرب، فلا يجمعني بها سوى بعض الذكريات أكل عليها الزمن من صحف أمس ما عادت تقي نفعا، أظنها تعفنت في خانة النسيان. نعم هي أبنة جارنا، فتاة جميلة، لطيفة، رقيقة، مهذبة، تحمل من ندى الأدب ما يزيد لها فتنة وألقا وبهجة. أهجس بأدبها كنبراس يشع وميضاً من فتن حجابها. نعم أني أعرفها وأعرف أهلها وفصلها وأصلها، منذ الصغر تطبعت على الفضيلة والنصيحة، لا شائبة في ذلك أطلاقا.

أنني أعرف كل ذلك. ولكن....

ربما الغلطة تنحصر في ذاتي أنا. لم أهيئها لمثل هذه المناسبات كي تثبت على قدميها كمسمار في لوح المصير. أهجس بها مهزوزة، تائهة، بحيث خلال المواسم المنصرمة لم أكن صيادا ماهرا قط، وفي حياتي القريبة لم اكن كذلك مع غيرها، كأني استخدمت الطُعْمُ القديم في كل تلك الفترات فنبذته الفرائس لافتقاره الجاذبية.

فقلت له:....

- في الحقيقة يا عمر لقد صدقت بكل كلامك، لم أكلمها، لم أستطع أن انفراد بها، أنها جارتنا وصديقة كريمتي وحسب، وأنها تستحرم لقاء الرجال وخاصة الغرباء.
- إذا أعد محاولتك بتخطيط محكم ودون أن تُدْخِل طرفا ثالثا بينكما، حينها ستجد نتيجة إيجابية بإذن الله.

وهو يحاول تغيير مجرى الكلام ليرفع من قدراتي النفسية ويلهم ذاتي عاطفة تحثني على المبادرة، محاولا كسر لوحة الجمود التي توقعت فيها نفسياتي، حيث قال لي وهو يدعوني لفك عُقد الذات:...

- ما رأيك يا صلاح بسهرة خاصة تنسيك همومك؟ سهرة لا تكلفك سوى الحضور والاستمتاع بالنظر وتريح الفكر والجسد، تغير بها نمط حياتك لتُقدح أفكارك بشرارة النساء وتتعلم من الدنيا ما في مغالقتها ومغالقها الغير مرئية.

في الحقيقة طرحه كان غريباً ومفاجئاً لي، أنا الغريق المراع في وحل الهزيمة، المراع من الداخل، أبحث عن من يمد لي حبل النجاة لينتشلني من واقعي المزري. حينها كنت تائها، أود أن أنتشل ذاتي من معمة الفشل التي لاكت نفسي، كنت أود أن أهرب من سرطان التفكير الذي بات ينهش مخي وجسدي. كأنه شَعَرَ بي كغريق أتخبط في وحل أقداري. فلم أشعر إلا بيد منجد مُدت إليّ، فتمسكت بها تمسك الضرير بعصاه، أستضلني، آواني؛ فتنبت خطاه لأصل لمبتدأ حياتي من جديد.

في خاطري كنت أبحث عن فرصة مثل تلك التي عرضها عليّ؛ لتنتشلني من أجواء الخريف المحيطة بي. عندها وجدت ذاتي ترسخ لإرادته دون جدل، حيث أنني لم أركن لراحة بال منذ أن رفضت هبة رجاء رغبتني، لذا كان ردي عليه سريعاً بحيث لم أدع الذهن أن ينشغل بصمت التفكير، أو يشرع بالجدل والتفسير، لم أدعه يفتأ عين رغبتة ورؤيا الغاية. فقلت له ومن دون تردد:....

- ماذا قلت؟ أعد علي عرضك...
- ما بك؟ سهرة مع صديق عزيز تغير بها اجواء فكرك.
- إذا سمحت كررها مرة أخرى لأفقه...
- لا خلاص، لم أقل شيئاً....
- هل تدرك بأنك تقرأ أفكارني أكثر مني؟
- أفهم من كلامك أنت موافق.
- أكيد... لكن ممكن أن تفصح لي عن المغزى قليلاً.

على رغم من أن تلك الجلسات ومن وجهة نظري تعد من الموبقات التي كنت أتجنبها وأتلافها، لكن هذه المرة دفعني الفضول لأستكشف حيثياتها، دفعني أن أدخل في ميدان التجربة لأستطلع شكل المجهول ونوع المنهج المراق فيه، لأستمتع بالغرابة التي لم ألفها من قبل ولم أجربها، رغم الوضع الدائر في الشوارع هو وضع مضطرب وغير عادي، تكتنفه جرائم قتل وتنكيل، حيث همرات الاحتلال تتجول في الشوارع، تقتنص كل من تريد قتله حسب أهواء الجندي الأمريكي. ومع ذلك هناك من لا تهمة مشاكل الناس والشارع، يبحث عن راحته بين الانقاض وتحت المفرقات، وكأنه لا يعيش في تلك المعمة.

قال لي:....

- إذا نحسب لك حساب؟
- أكيد موافق، بل جاهز، دعني أجرب ما لم أجربه يا صديقي، كأنّ عرضك هو فتنة جديدة أكحل به عيني.. شكرًا لك، هنا تنصّحي، وهنا تعلمني مبدأ عملي، وهنا ترفع من شأنني وتجيل الضغوطات عن فكري وتزيح وشاح الحزن عني وتعطف على حالي باغيا تسليني... ماذا أبتليت بي؟؟؟... شكرًا لك فأنت نعم الصديق الوفي، فأنت أصبحت بلسم جراحي ودوائي الناجع..
- ماذا نفعل لقد ابتلينا بأصحاب العوق النفسي، هههههه.

- فعلا ابتليت بي، ولا أخفيك سرا؛ فأني لم أجرب السهرات من قبل إطلاقا، وفضولي يدفعني لتجريبها....
- إذا عليك أن تجهز نفسك.
- أية سهرات يا عمر والوضع مضطرب وهمرات المارينز تتصيد الأرانب في الشوارع؟
- العيد على الابواب وبعض الناس لا تفكر كما تفكر أنت، تستغل الفرص لتبقى تعيش حياة زهرية، كما هناك أماكن خاصة نذهب إليها وسهراتنا لا تطول كأيام زمان أنها لن تتجاوز حدود الثامنة مساء في أقصى حالاتها، وستبدأ بحدود الرابعة أو الخامسة عصرا.
- حسنا يا عمر؛ أنا متشوق لذلك... شاكرا لسعيك ودأبك على إسعادي. سأكون جاهزا متى شئت... لكن ماذا تقصد بسهرة خاصة؟ ممكن توضح لي أولويات منهج السهرة.
- في الحقيقة أنا مدعو لسهرة من قبل صديق، سهرة خمر وفرفشة ورقص بنات، أن كانت تروق لك أن ترافقني وتغير من أجوائك الغائمة، فأنا لا مانع لدي. أودك أن تغير من نمط أسلوبك والروتين القانط والمتخم بالعقد، وفي ذات الوقت أعرفك على صديقي الدكتور فريد... أودك أن تجرب مجالا يشجعك على كسر حاجز الخوف والخجل من النساء، أن تخترق حاجز الأنثى، أن تفتح أبواب سلاطينها المغلقة بنفسك،

لتكتشف أسرارها الدفينة التي لا تعرف شيئاً عن مضامينها...

أنا أدرك طبعك البليد، كما أدرك طبيبتك المُبهرة بتوابل الصدق والخجل، لذا أرى من واجب الصداقة أن أمنحك هذه الفرصة والتي ستمنحك شهادة خبرة تعيينك على اتخاذ قراراتك الصائب والمناسب وقت الشدائد ووقت أن تشاء، وفي نفس الوقت تفسح لك مجالاً يبعدك عن روتين الحياة.

- شكراً لك يا عمر، كأنك تود أن ترفع طبق الهم والغم عن قلبي، شكراً لسعيك ومشاعرك النبيلة، فعلاً أنا بحاجة ملحة لتغيير نمط حياتي، ولكن أرجو منك أن تكتم السر أمام عناصر الشلة الباقية منها أذا كنت لازلت على اتصال بهم، لأنهم فضيحة، أنا شبه منقطع عنهم بسبب الظرف، حتى أنني افتقدت عناوين بعضهم وأرقام هواتفهم... فلم تكن لنا في السابق هواتف خاصة بنا، كما أن شبكات النت لازالت في أول عهدها، ضعيفة، خائرة..

يا عمر: لا أود أحدا منهم يعلس بنا بنية السوء أو المزح، دع صورنا زاهية بأعينهم، أن أخبرتهم سيزيفونها عن أصلها مهما كنا رفقاء، لا يمكن قراءة صفحات القلوب بالوضوح الذي نرتجيه.

- ههههههههه. أيا مسكين، إلى هذا الحد الخوف يقرصك! هم كلهم خائرين في هذه الدروب العفنة. لا تخف وأنا أيضاً افتقدت عناوينهم، فأمرير وحسن هاجرا

خارج البلد، وليث أستشهد بعد رافد بأشهر، كما أختفى
عماد في سجون الاحتلال. لولا الصيدلية التي تجمعنا
ما كنا نبقى على اتصال ببعضنا، لكان حالنا لا يختلف
عن أحوالهم، لا تخف فلم يبق مني منهم من يشمت بك
سوى عامر.

- إلى رحمة الله، لم نحضر جنازهم، ولم ندرك أخبارهم
الا بعد حين. كانت أيام جميلة، رغم الظرف التعيس.
هذه حال الدنيا لا تعتني بأحد، تدور وترمي بنا في
المهالك.

ها هو العيد قادم وأنا لم أجد في من أحب عيداً، كأنَّ الليالي هي
ذاتها، لا فيها وصلٌ ولا تجديدٌ.

ها هو العيد يمرُّ بلا أثر

يُعيد الشجنَ بلا تغييرٍ أو عبر

يأتي والليلُ يعانقُ ظلاله

لا بُشرى فيه، لا فرحٌ يُنتظر

وفي غياهبه أبقى ساهداً

أرقبُ وجهَ الحبيبِ في السحر

أراه في ثوبِ العيدِ متألقاً

بينما وحدثني تقديني بالوَجَر.

4- دار الدكتور فريد

حدد لي موعد السهرة المزعمة والتي صادفت مساء الخميس الأخير من شهر أيلول، حينها كنت قد دخلت التاسع والعشرين من العمر، أي أنني لم استطع أن أنهى مشوار العزوبية، هذا يعني قد أدرجت اسمي ضمن قائمة المطرب ياس خضر (عمر وتعدى الثلاثين ولك لا يفلان) تلك الكلمات التي كتبها الشاعر مظفر النواب كانت تزيدني قلقا وجزعا، لما لمفرداتها من وقع نفسي سيء على فكر وقلب الشاب، تحذيره من مطب الثلاثين، بحيث تضع الفرد في مواجهة صراع دائم. الكلمات تشعرك إذا ما تجاوزت الثلاثين كأنك اضعت فترة الشباب فلا تحسب عليها..

أخبرني عمر إلى ضرورة التواجد في موقع الصيدلية الكائنة في محلة السفينة في الأعظمية قبل الخامسة، لننطلق من هناك إلى دار الدكتور فريد، تجنبنا للمفاجئات الغير سارة التي لا يأمن أحدنا خطورتها، وخاصة فوضى الطائفية صار لها شعب وجذور في المجتمع، امتدت على أرجاء الوطن ولا زالت لم تخدم.

دار الدكتور فؤاد تقع في حي الأعظمية قرب المدينة الطبية، والدكتور فؤاد هو طبيب تجميلي من أصدقاء عمر، كان قد هجر زوجته أو هي التي هجرته حسب توقعي، لتمامه في سكره ونزواته المبالغ بها.. على أية حال أنه يعيش حالة عزوبية دائمة منذ سنتين حسب ما أخبرني به عمر.

أنفقنا على موعد اللقاء والذهاب لداره بسيارة عمر الخاصة
نوع فولكس فاكن القديمة.

بصراحه تامه هناك أناس لا أعرف كيف أوصفهم، لا اهتمامهم
بنزواتهم الخاصة في أوقات أعتبرها ميتة ومقلقة وعصيبة،
تشعر بهم لا يكثرثون لما يدور حولهم من أحداث، كأنهم
نزلوا من كوكب آخر نرجسي. تهجس تركبهم حالة شذوذ
وأبهة، تجيلهم إلى أفعالهم دون خوف أو أن يفكروا بالعقد
التي تحيط بهم، ربما تلك العقد هي التي تمدهم بالقوة
والعزيمة التي تدفعهم للمجازفة ومخالفة الشرع والبشر لينسوا
لحظات العسر التي تجردهم عن إنسانيتهم في قوقعتهم. هكذا
تجدهم يمنحون أنفسهم المنحلة فرصة تجديد الذات دون النظر
إلى تلك الأحداث الجسيمة والمريبة. تهاونهم بمحيطهم كأنه
مقصود، وما يجري من تقلبات في المجتمع يضعهم في زاوية
هجيبة، لا تمتد بصلة للوطنية إطلاقا والتي من المفروض
يتحلون بها في العلن.

من جهة أخرى أشعر بهؤلاء متميزون، مترفعون عن العناء،
يعيشون حياتهم المفروضة كيفما يشاؤون. أهجس بهم عباقرة،
يتمتعون باللحظات المراقبة في اسوء الظروف التي تمرق
عليهم، فالحياة هي مجاز محدود بعرفه، تبدأ من نقطة أ
وتنتهي بنقطة ب، لا يمكن تمديدها...لذا على الإنسان أن
يعيشها كيفما تروق نفسه وتشاء، يوظب قدراته بالكيفية التي
يراها مناسبة لإسعاد ذاته، وعليه يتجاوز هذه المفازة شاء أم
أبى. لذا أجد هؤلاء يمتلكون حس مغاير وطاقة فكرية نادرة،

وصبرا وجلدا وهدوء أعصاب تكاد تكون خارج حدود المنطق.... أحيانا أصفهم بأوطأ الناس خسة ونذالة وسفاهة، حيث تختزل شخصياتهم بالتفاهة. وأحيانا أنظر لهم نظرة رقي ونبل وعبقريّة، وأكثر الناس بعدا عن العقد وأمراض المجتمع وتفكيراً بشؤونهم الخاصة..

من جانب آخر انظر للمسائلة بمنظار آخر؛ في الحقيقة وضعتنا حكوماتنا المتعاقبة في قالب محدود ثابت، مليء بالتناقضات والعقد، لقد عودونا على الأزمات التي لا تنتهي، فالإنسان يجب أن يعيش حياة طبيعية، وإلا سينتهي مشواره وهو في مقتبل العمر دون أن يشعر بجمال الدنيا. كما ان للحياة صيغ متنوعة من سفر وترحال وأفراح ولعب وفرفشة وزينة وود وأمان، كلّ يود ان يمارس تلك الطقوس حسب وجهة نظره وأهوائه وانسيابه بعيدا عن الجانب المظلم الآخر. إلا أننا وبحكم الظرف كنا قد حددنا سلوكنا وتصرفاتنا بروتين وشرائع وبكم من الأزمات التي شرعت تتفاعل مع مشاعرنا وتفرض الأحكام علينا، بحيث ما أن تنتهي أزمة حتى تبدأ أخرى بذات الشاكلة وربما أخس وأذل منها.

حينها كان الجو مترديا بين الطوائف والصراع مستمر على المناصب بين السنة والشيعة من جهة، وبين سياسيو الكراسي من جهة أخرى... كانت الأزمة الطائفية قد ارتفع منسوبها بعد تفجير مرقد الإمامين الحسن العسكري وعلي الهادي في سامراء في 12\02\2006 من قبل فئة باغية، في الوقت الذي به أشد ظرف الفقر والعناء على الناس قاطبة والذي بات

ينهش جسد المجتمع بغضا وغلا بسبب قلة فرص العمل ضمن أمان مفقود. كان القتل والتعسف الجائر قد أمتد زحفه إلى الأحياء والشوارع المكتظة، سفكت الدماء هنا وهناك دون شرع وقانون، جاش الظلم مع الغدر بين الطوائف بكم وافر من الجثث المجهولة مرمية على الطرقات.

تلك الحالة أصبحت منهجا من يوميات البلد. تكلمت في النفوس بالعلل، تمادت الأقدار بين تجاذبات الأحزاب وغاياتها، الحكومة مهلهلة، عاجزة على ضبط الأمن وضبط نفسها. بسلوكياتها المتعجرفة أودت إلى تفاقم العقد وإهمال الأمن. لذا زادت حدة المشاكل وتأزمت الطائفية ولم تخف حدثها إلا بعد سنة 2009..

ومع كل تلك العقد والمشاكل، هؤلاء الذين أحتار بوصفهم من أمثال الدكتور فؤاد اللذين يتبعون أهواء غرائزهم وغاياتهم الخاصة؛ لا تنطبق على وصفهم كلمة تفي بالغرض، في ظني هم تعساء يلبسون جلباب السعادة. متشبثين بالحياة بأظافرهم، زاحفين خلف الموبقات بكل صلافة، لا تعنيهم مشاكلهم الخاصة ولا مشاكل البلد والأزمات الدائرة حولهم، لا يفكرون بما يجري في الشارع من أحداث مريبة، ربما هم غير معنيين بالوطن ولا مهتمين بالأرواح المتطايرة. أشعر بهم يعيشون يومهم على هامش الفكرة الساذجة، وقلوبهم خالية من المشاعر، تفكيرهم محصور بين افخاذهم..

ماذا لو أصابتهم مصيبة؟ ماذا لو ركبهم الموت؟ لا أدري ماذا سيقولون لربهم في تلك اللحظة، وأني لأعجب بأمر هؤلاء

الموتى الأحياء... فعلا لا أدري كيف أصفهم، حيث ينطبق عليهم وصف الموتى أكثر من وصف الأحياء؛ لأنهم غائبون عن المجتمع، أو مغيبون في دهاليز غرائزهم المريضة كما أراها أنا. وأحيانا أرى وصف الأحياء يتوافق مع فكرهم وحالتهم، لأنهم الوحيدون الذين يعيشون حياة مترفة فيها فرفشة وكما يريدون في زمن مليء بالعقد. حيث لا تعنيهم الأزمات، رابضون في ظل بهرجة يرونها جنة توافق غاياتهم، تغري أنفسهم. فهم يبحثون عن ديدن الحياه بين ركم الموتى..

ثمة عالمٌ يتكئ على حافة الإدراك، يهمس بأسراره لمن يعبر حدوده. لم يكن الانتماء لتلك الشلة هو الغاية، بل البحث عن صدى يعيد تشكيل الفراغ في داخلي، عن ظلٍ يمتد لملامسة النقص الذي يثقل على الروح قدرية المتابعة. كانت الأيام وهي تتسلق أدراج العمر؛ تستدرج الغياب والحرمان والعزلة والوحدة من الزمن، لتتغلغل المشقة في الزوايا المهملة؛ حتى باتت المسافات المرجوة أكثر قسوةً من الاحتمال الرائج، حيث يموه بين أمتار الطريق يأس لابد في الذاكرة. أما الآخرون أهجس بهم قابعون خارج عالمنا الافتراضي، في محض شفافية تتخللها الألغاز. من خلالهم قد أعثر على بوصلة توجه التيه نحو اليقين، عن شذرات ضوءٍ قد تروي عتمة التردد. في النهاية، كان لا بد من كسر الطوق، لا فرارا، بل سعياً لملامسة الحقيقة التي تختبئ خلف أسوار ذلك العالم.

أني في حقيقة الأمر لم أرافقهم، ولم أذهب لتجمعاتهم إلا لاستبيان خلفية ذلك العالم المجهول بالنسبة لي، عليّ أجد بين منحنيات الفسحة قدر ما يرضي النفس!. ما دفعني لخوض التجربة هو دافع الفشل المرفق بارتباطي بصفة الحرمان، واليأس الذي بات ينفذ من ثلم العقد، وددت أكتشف أسرار هؤلاء الشلة، لأخفف العناء على الذات وانتشالها من قيد اليأس المحيط بها. وددت أن أكسر الطوق الغموض الذي حرّ عنقي.

أهم شيء وددت أن اكتشف حقيقة عالم الدكتور فريد، والذي لا أعرف عن أسرار شيء يذكر. كما أنني لا ألوم الدكتور على سلوكه، ربما تصرفه هذا ولد من رحم تلك الازمات التي لا تنتهي، نتيجة قرفه الحالة السائدة من خذلان ووجوم وجور وعناء وحزن عبر عقدين من الزمن.

حين يطول الليل يضعف البصر، يزداد الكبت، يمتد الجور والظلم لرحاب النفس. حيث لا كهرباء، لا سينمات، لا تلفزيون، لا نوادي ليلية، لا متنزهات وحدائق آمنة وعامرة، لا سفر يخفف عن الفرد والمجتمع قرف الحالة المتقدمة في الوسط، لا أمان سائد يعين الإنسان على ازماته ولا حقوق متاحة.

أضحى الفرد مقيد، دون حرية عمل وتنقل بين خطوط المباحج، فقر عام يغطي كل شيء، لا مادة ميسرة تعوض ذلك النقص ولا فكر مطرق يخالف تلك العقد. كأنما أغلقت أبواب الانشراح والبشاشة والحبور والسرور أمام الناس منذ أن

شرعت الدول البغيضة تطبيق الحصار على العراق، زادت العقد وأصبحت كإخبطوط تلتف على كل مجالات الحياة وخاصة بعد الاحتلال البغيض- أي منذ أكثر من ثلاثين سنة ونحن نتخبط في ظلام دامس دون يقين حتى نفذ الصبر، وشل العقل، هذا ما جرى في الوطن وما انعكس تأثيره على المواطن. وهذا ما جعل الدكتور فريد وامثاله أن يشذوا بسلوكياتهم عن سلوك المجتمع.

في اعتقادي لم ينحرفوا عن المنهج العام إلا لطول فترة المأساة العاصفة بالمجتمع، إلا لطول فترة السبات والحضانة المذلة، ذاك ما دفعهم أن يسيروا عكس التيار، يسيروا خلف رغباتهم النفسية والغريزية الشعواء كي ينسوا مأساتهم ومأساة الوطن.

وأني لأجد من الطبيعي أن يسلك البعض سلوكاً أرعن، نسميه في عرف الرؤيا الاجتماعية انحرافاً، بسبب قسوة الزمن ودعكه لمراحل العمر دون هوادة، وخاصة لتوالي العقد في دائرة الحياة القصيرة.

أحياناً يُبْهَت الإنسان من عصف سعادة طارئة تجلجل فكره، تنعش ذاته كزخات مطر الصف، سرعان ما يشف تأثيرها لارتباطها بمجتمع مزكوم بالعقد. وأحياناً يتبع الأهواء نتيجة الكبت الدائم، فينحرف وينجرف خلف الموبقات أشبه بالمريض المرغم على شف دوائه، وذلك لتغيير أجواء حياته الرتيبة، فينتشل ذاته من روتين العقد الدائر في محيطه والهم المشاع، فيهيم في مساءات الشك الحزينة خلف تلك الفرص

المتدحرجة أمامه، يقرع باب ظنه بمطرقة من الصمت، ينعم بمجاديف جديدة يجدها أجدى، فيمضي مجازفا في قارب خلف صوت الغريزة، متحملا رعدة النكد والخوف والخواء إلى حيث يلتمس راحة آنية تجدد دماء حياته..

كنت قد هيئت ذاتي على هيئة هؤلاء الشواذ لأكتشف أسرارهم. هيئت نفسي ليوم التتويج، وهو يوم كرنفال بالنسبة لي، يوم كسر طوق الروتين الكابد على أنفاسي، أخرج عن طوق شخصيتي المعتادة، المظلمة، المهزوزة، المتقرحة، البائسة، الفاقدة لرونق الحياة، لأرتدي شخصية شيطانية قد لا توائم ذاتي. في الحقيقة التجربة غرتني كثيرا، وددت أن أنتقل بها من منهج الشرائع والعقد والروتين الممل لصيغة المغامر، لمنهج عبثي أني لم أجربها من قبل، لألتمس الفارق الغوغائي الذي أغواني.

لذا فضلت أن أحرق شعرة الشيطان في جسدي، فحلقت رأسي، كشطت ذوائب لحيتي، أضفيت على قيافتي لمسة المساء من تغيير بسيط وأناقة وتصفيف شعري ولمعة جذابة. كنت أعاني من لحيتي الغير متناسقة في منابتها، حيث تشتد في منطقة الذقن والفودين فيما تخف وتشح في المناطق الأخرى من مساحة الوجه، أشبه بزرع مبعر في أرض بور دون تنسيق. سرحت شعري الكثيف بقليل من الجل، كي لا يهدل جذله على الجبين. كان ذاك بعد أن تحممت وارتديت بدلة رسمية سوداء مع قميص رمادي يشع بهجة وبهاء وربطة عنق زرقاء. تجملت وتأنقت بأفخم ما أملك مع رشة

عطر فواح من شذى طيب العود الممزوج باللافندر، ثم اتجهت لمكان اللقاء الموعود بالموعد المحدد، لأرفه بالتغيير الذي استأثرت، حيث حضرنا في الموعد المناسب.

حين رآني عمر على شاكلتي الجديدة قال لي...

- لا لا لا..... لقد تجاوزت الخط العام الذي أعرفك به، بل تجاوزت على قيافتي وقيافة الدكتور، هههههه، كأنك عريس هذه الليلة، ترى ماذا خطر في بالك.....
- يا عمر لا أريد أن أكون صغيرا في عين صاحبك، ثم الم تقل أنها حفلة بنات! هل تريدني أن أذهب معك بدشداشة ونعال مبهدل؟...
- لا أحسنت الفعل، وأنتك بلباسك هذا تزيني فخرا، ستتعرف على الدكتور فؤاد، دعه يأخذ نظرة جيدة عن أصدقائي.

أتجهنا إلى الدار التي تقع في قاطع من مدينة الأعظمية في جانب الرصافة من بغداد، والمرتبطة بالكاظمية من جانب الكرخ عبر جسر الأئمة، نسبة إلى الإمامين موسى الكاظم في الكاظمية، والإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان في الأعظمية.

توقفت السيارة أمام الدار بعد أن تجاوزنا سيطرة قرب دوار عنتر والتي كانت تحرسه عجلتان من نوع همر تابعة لجنود المارينز الأمريكي، حين تجاوزناهم صار عمر يسب ويلعن بهم.

- أولاد الأبالسة عبروا البحور والمحيطات من أجل أن يسرقوا نفطنا وإذلالنا وتحطيم دولتنا، شرعوا في قتلنا بسبب ودون سبب، يقتحمون بيوتات الناس الأمانه البريئة دون إذن، يكمن في نفوسهم مرض وحقد دفين لكل ما هو عربي وعراقي.
- أتدري يا عمر يوم أمس شاهدت صورة لملكة بريطانيا إزابث وهي تلقي كلمة بعيد ميلادها وخلفها يكمن بيانو الرئيس صدام حسين الذهبي! لم يبقوا شيء ذا قيمة في العراق إلا وسرقوه، أما الآثار فحدث ولا حرج..
- لقد تقاسموا خيرات الوطن مع أمريكا، نقلوا احتياطات العراق من ذهب والعملية الصعبة لبنوكهم الخاوية.
- صدقت... وهل تعلم حين قدمت توقفت قرابة ربع ساعة تقريبا في سيطرة الجسر حتى تمكنت من أن أدخل إلى الأعظمية، لا أدري بمن شكوا ربما بالسائق أو....
- لالا يا حبيبي أنهم لم يشكوا، أنما فقط يودوا أن يزرعوا الخوف والقرع والضجر والضغينة في نفوس البشر، هذا إذلال متعمد يفرضوه علينا، وإلا اغتصاب الفتاة عبير ذات الاربعة عشرة ربيعا لم يكن مصادفة، أنما كان مخطط له، هيئوا أنفسهم لها بحكمة.
- يا عمر أن أكثر ما يؤلمني ويغضني حين أرى هؤلاء المرتزقة يجوبون شوارعنا بحرية ويتأمرؤا علينا كأسياد في وطننا، ما يؤلمني أن بعض المتنفذين

والوصوليين والخونة يسندونهم في إذلالنا، يتعاونون معهم في تدمير الوطن..

- أنت قلت خونة، الكلاب تتعاقب علينا، كلب يذهب ويأتي محله أكلب منه، لقد ابتلينا بهم، كان الأجدر أن نتجنب الحروب لعدم توازن القوى كي نحافظ على وجه الوطن وقيمنا..

بعد دقائق من سيرنا أدركنا الدار، كانت الدار عبارة عن طابق واحد، يحيطها سياج من آجر القرميد الأحمر، يوسطه باب عريض ذات مصراعين، يتسم بتموج خطوطه لتشد من أزره وتزيده زينة، تعمده أعمدة حديدية جذابة، يطغي على صفائحه لون تبني، مدخل البيت يسمح بوقوف عجلتين صغيرتين خلف بعضهما البعض.

يحيط المبنى حديقة بسعة مترين من الأمام وبسعة سبعة أمتار من الجانب الأيسر، الأرضية مفروشة بالحشائش وبعض شجيرات الزينة إضافة لأخرى من ياس وورود بيئية ملونة من جورى وكادي وتوليت بألوان زهرية مفرحة، تمثل سياجا داخليا لممر يحيط بجدران الدار، الممر معبد بقوالب من رخام الإسمنت الممزوج بالرمل والكوارتز بعرض متر، فيظهر سطحه لامعا أشبه بالزجاج المحبب.. تنتشر بفضاء الحديقة بعض أشجار الفواكه الموزعة بتناسق مع السياج الخارجي للدار من رمان ونخل وتوت وتين وقطائف من الورود الجهنمية وشجيرات من الأس.

كنت قد سألت عمر ونحن في طريقنا للدار..

- قلبي يا عمر الوضع كما تراه متشنج، والناس تخاف من ظلها، والموت متوشح بالخفاء وهو يجوب الطرقات، ترى من أين يأتي الدكتور فؤاد بالمشروبات الروحية؟ هل لازالت هناك بارات تبيع الخمر؟
- يا صلاح الفنادق الكبيرة لا تخلو من المشروبات الكحولية، فما ضنك؛ هؤلاء الأوغاد الجلسين على كراسي الحكم وجنود الاحتلال هل هم أنبياء؟... فمعظم الجرائم تنفذ وهم مخمورون، كي يتجنبوا التهم المنسوبة إليهم وتخف الاحكام عليهم. كل الفنادق تبيع الخمر، ثم أن الدكتور له معارف كثر من خلال عمله، يستطيع الحصول عليها بسهولة، والمدمن لن يجد معضلة أمامه، فأن لم يجدها في الاسواق يصنعها بيده.

كنا قد دخلنا الدار وتعرفنا على الدكتور، أنه رجل بسيط أربعيني، ذا وجه سمح، متوسط الطول له صلعة خفيفة تحف رأسه من الجانبين، تميل بشرته للسمر البشوشة، بسحته العامة وبشاشته يكتنز شيئاً من الجاذبية.

كان البيت عبارة عن دار مسكونة وغير مسكونة، أو ما يسمى بيت العازب، ذلك واضح من خلال الفوضى التي تعم بكركية أثاثه. ربما تحول البيت بعد طلاق زوجته إلى وكر دعارة والتحلي بالموبقات، أو إلى ناد انتشاء الخمر والصياغة والترحال في ممارسة الرذيلة، وذلك بعد أن أغلقت النوادي وعصفت رياح التغيير بالمجتمع.

الدار غرفها شبه مهلهلة، تنم على صفة العشوائية الغالبة على تنظيمها، لذا أوحى إليّ ظني على أنها وكر أكثر من أن تكون دار سكن، كأنه عدّ وخصص لسهرات السكر والعريضة، حيث لم أرى فيها أية مظاهر تدل على أنّ للدار قدسية في عين صاحبها.... صحيح المقولة التي تقول- البيت دون امرأة قبر أظلم- وهو كذلك كان قبرا تسكنه الأشباح والشرطيين، فأزاحت النفوس عن سبل السكينة والهدايا لدروب الرذيلة.

المرأة تستطيع تحويل الوكر لجنيّة، لذا لا يمكن تعويض دورها في البيت أبداً. هي نصف المجتمع وهي النصف في كل محاور الحياة، وأحياناً تكون الكل لما لها من ثقل بسمتها وطبعها ورائحتها وجاذبيتها وحسها المرهف، وبشغفها وطبيعتها وحنانها تصنع المستحيل. فهي بكل ما خصها الله فتنة، فالمباهج تولد من ثناياها، فذوق المرأة في البيت يتفوق على ذوق الرجل لفسيفساء نظرتها للأشياء، لرقّة لمساتها السحرية، لشاعريتها وعذوبتها في صف الأشياء وترتيبها بوصف دقيق، لما تملك من دفء ونكهة وسحر وإبداع يصب في خيالها، يرفع من شأنها وقدرها، فهي كالعنصر المشع في المادة؛ تضفي بهجتها على أرجاء البيت دون إنارة كالبلورة واللؤلؤة.

وبعد حضورنا بنصف ساعة تقريباً، دخلنّ البيت فتاتين محببتين وكأنهن يعرفنّ تفاصيل خريطة البيت، فاتجهن لغرفة جانبية. حيث البيت يحتوي على غرفتي نوم أحدهما غرفة ماستر، إضافة لصالّة ومطبخ واسع مع حمامين ودرج

داخلي يفضي لسطح المنزل. دخلن لتبديل ثيابهن اللاتي تنكرن بها.

حينها كنا جالسين في الصالة ننتظر إطلالتهم. الصالة عبارة عن غرفة مستطيلة، أبعادها 5×8، فيها طقم كراسي جلدية سوداء، وكنبة كبيرة منجدة بمخمل بني مركونة بجانب نافذة عريضة مطلّة على الحديقة، تعلّوها ستائر بنية لماعة تحجب ضوء الشمس.... يوسطها طاولة زجاجية مستطيلة مغطاة بمخمل بنفسجي شفاف، موضوع عليها بعض قوارير البيرة وقارورة ويسكي ودورق ثلج مع صينية أقداح بأكعاب طويلة و صحن من تشكيل الفواكه وثلاث صحن من تشكيل النقل ومثلها من الجاجيك (مزيج الخاثر والخيار) وعلبة مناديل ورقية وعلبة سجائر نوع مالبورو على كل طاولة.

على الجدار تلتصق لوحة جميلة تمثل بانوراما الطبيعة فتبدو بألوان بهيجة تبهج السماء والبحر والغابة المحيطة بالبحيرة من جهة الشمالية، فيما تحيطها من الجنوب جبال صخرية شاهقة، فيما سقف الصالة منجد بزخرفة إسلامية جميلة تعبر عن فن راق، تنحدر من وسط السقف سلسلة حديدية، تحمل ثريا صغيرة مشبعة بالفلورانس المشع.

الفصل الرابع

1- شيماء

لم أكن أحتسي الخمرة في السابق، لم أعرف لها طعم ولا مذاق، لذا أخذني الفضول إلى أن أنحدر لعالمها المشين من باب التجربة، وددت أن أجرب كأس من الجعة لأخامر بها مرج الرغبة الملتهبة في داخلي، ليطابق مزاجي مزاج الدكتور فريد، لأرفع عن ذاتي غطاء الخجل....

كان للفضول نداءً خفيًا راود النفس، أن تخوض غمار التجربة لأول مرة، رحلة إلى عالم تتشابك فيه الرغبة بالخجل والتردد بالإغواء. لم يكن الكأس مجرد شراب أمامي، بل نافذة تنفتح على شعورٍ مختلف، يحرر الذات للحظة من قيودها المعتادة، يدفعها نحو ميدانٍ جديدٍ قبل أن تضلّها الدروب العرجاء وهي مأسورة ب قيد الخوف والخجل، رغبتُ أن أنحدر في الانسياق وراء موجة من التوهج كانت قد داهمت تطلعي، لأطلق لذاتي العنان في ميدان الوله قبل أن أدخل مرغما بتلك المتاهة العرجاء، قبل أن اتخبط في مسالك التيه، حيث تنهشني الحيرة ويغمرني الوله، كأنني عالق بين الانجذاب والضياع، في رحلة لا مرأى لها.

بطبيعتها المرنة؛ النفس تواقة للفضول والتطفل أكثر من أن تكون حيادية خلف جدلية المشهد، تود الدخول في طوق المحك بتجربة مرحلية لتجديد الحيوية في داخلي، تسعى لتندس في تيم الرغبة التواقة بعالمها المتجدد، لتمتزج الدوافع الخارجية مع الإرهاصات الداخلية في بوتقة الشيق، عسى أن تزيح عن وجهي ستائر الخمول والرهبة والخوف في لحظة

مواجهة جبروت اللبوة بقوام قدها الرشيق والأنوثة الملاحظة بالركة والفتنة، لأكون ندا لها بشيء من الثقة والحضور.

دائما ما تكون النفس بريئة وهي خارج أسوار الحدث، للضعف الذي ينحدر بها إلى أفق الغواية. هذه النفس والتي أرى فيها إضاءات مخزونة؛ لها في أعماق الأنا حسبة شك تكمن فيها هوس الجنون بخوض التجربة أول مرة، فهي في نشيجها أضحت كالسحب الماطرة، كالأهواء تسعى لزج تلك الرغبة الجامحة في جوف أنثى... لذلك وددت أن أنتشلها من ضعفها، أن أقومها وأقدمها على قدر من الرضا، لتكون بمقام يليق بها أمام الدكتور فريد.

عندما وددت شرب كأس من الجعة؛ هجست بنفسي تخفي خلف ستائر الشك رهبة ملتصقة بجدار القلب. بدت ذاتي خائنة أمام الجعة، هائمة في لون السكر، تائهة في دروب الشوق والهيفة، تتوق تجديد حيويتها وشبابها وألقها بشيء مختلف من الأناقة دون أن تُجرح كرامتها. تستهوي العذوبة والعنف والرجاء دون أن تخسر قيافتها. لتقتل ذلك الملل الذي أخذ مساحة الألق، حيث كبل عمري بسنين عجاف مليئة بالعقد والحرمان. لذا بثُ أسعى خلف الوله تحت ظرف التجربة بشيء من الرعونة والحذر.

لنزق المجاملة والحضور والتبجيل بالصدقة الجديدة هفت الروح لدخول معترك الحدث برواء، هفت لواقع التجربة برفقة صديقي عمر، كنت قد أدخلت أنفي في معترك الأجواء الغريبة التي لم أعود على رواجها وروائحها من قبل دون أن

تكون لي ثقة جازمة بالتحدي. تلك المجاملة والمكهربة بالعبث والدعابة واللهفة والصياغة والاستمتاع بالطرفة والنكتة والهيام والخواء والسكر والزنا؛ وجدتتها في طبق من الود بصور جديدة، أخذت جل طاقتي مني. لذا سعوت خلفها بكل ما للنفس من رشاقة، لأجعلها على قدر رجاء الجلسة دون أن افتقد شيء من عزتي وكرامتي. دخلت في أجواء مشبعة بالرطوبة، في جو يطغي عليه رائحة الأنثى دون تلبك وانطواء يعكر أجواء المتعة – انحدرت لذلك النزق؛ علني أكون فيها عنصرا مشعا كعنصر اليورانيوم والنبوتونيوم، مؤثرا في الوسط، مثيرا باستقطاب العلاقة، بدلا من أن أكون خاملا وعالة رتق تغيط الحاضرين. هكذا كنت أحاول أن أكف ذراعي لأكون خفيف ظل في تلك الأمسية البهية، أن أشرك ذاتي واضفي على الأجواء المشعة روح مرح وطرافة تواكب المشهد بقدر ما تفيض بها النفس..

ما أن وضعت الجعة على لساني حتى ارتعشت أوصالي، حتى شعرت بطعم مقرفٍ رائبٍ في مذاقها، عَطِنَ الفم بالنتن العالق في غرائها الأجن، لم أحتمل سقم المذاق، فلولا الخجل لتقيأت حينه، لبزقت وبصقت كل ما دخل فمي ومعدتي أمام الحضور. لم تروقن طعم الجعة قط...

لكنني أمسكت جماح نفسي خجلا من تعليق الحضور واستهزاءهم، مع علمي أنهما لاحظا تأثير الجعة على وجهي، غضا الطرف عني، شاهدا امتعاضي وقرفي من رائحتها الكريهة، بعد أن خالط تأثيرها نزق الخطوط والعقد التي

تكورت في ملامح الوجه وفوق جبينني بشكل عبثي ودون إرادة. شعرت في مذاقها يكمن العفن، لم استطع مقاومة أجنه.

كنت قد أسعفت ذاتي بحبة فراولة وقليل من النقل، وكأني في سلوكي ادعيت الخبرة والمعرفة بجلساتها، وفي الحقيقة أني تعلمتها من خلال أفلام السينما المولع بمشاهدتها عبر التلفاز أو من خلال صالات السينما. برحت أقرض حبة الفراولة أو أنجز البندق واللوز مع كل رشفة أقمعها من كأس الجعة.

لم أستطع أن أكرع سوى كأس واحدة فقط على أنغام أم كلثوم ودندنة أغنية "بعيد عنك حياتي عذاب"، لكن الدكتور قد ألح عليّ بشرب كأس ثانٍ، حينها جاملته وأخذت الكأس من يده، وضعته أمامي على الطاولة، دون أن أرشف منه شيء خوفاً من أن يكون لها تأثير مباشر على المخ، شاكراً سعيه ومضيفاه.

ما أفزعني وما أخشاني؛ هو أن تصيب أسلاك العصب عطن ماء، أن ينزوي الذهن خلف نواهي السكر، تجنبت الكأس خوفاً من أن يراق تأثيرها في توازني، أن تتحدر السكره بحيثياتها إلى الأطراف السفلية حين يختل توازني. لأنني بت أهجس بطرق خفيف من الصدع بات يربت برأسي. أهجس تأثيرها بات تدغدغ أوصالي، أرى كخيوط واه من دخان العبث والتسكع الشيطاني يشتط برأسي. مع ذلك الخيط المرعش؛ تجنبت كرع الكأس الثاني؛ كي لا يذو تأثيره في الحلق.

لازلت في ساحة الأمان خارج ميدان السكر، لازلت أقف على أسيجة الشك المنهارة أمامي، لا أود أن انحدر في غيبي أكثر من ذلك بتاتا، لأنني إذا ما انحدرت سأخسر كل ما جئت من أجله. رغبت التمس المتعة وأنا بكامل وعيي، أكتشف حيثياتها وأسرارها بنهم وشبق، تلك التي لا أعرف حقيقة لونها وسر جاذبيتها..

غير أنني بت أشعر بغراز السكر يدور فوق رأسي، ظل يتبع هيافتي، أهجس به قريب جدا مني، يخترق دائرة الصمت غصبا عني، يحيط بي من كل جانب. أراه سيل جارف يقترب من حدود ظني، قرط يرتعش بشحمة أذني. ذلك السكر هو الشيطان بعينه، جاء يتقصى الفرص ليجهش على ظني بلحظة غفلة..

حاولت أن أثبت أمام صفعات الجعة المتكررة، أن لا أسنح لها الفرصة من النيل مني، حاولت تجنب حالة الضعف والسكر قدر الإمكان، أن أمسك بعصا الحكمة من الوسط، أن أحتفظ بميزان كياستي بقبس الفطنة التي شددت ازري، هكذا جزلت نفسي حتى تمكنت قدر الإمكان أن أحافظ على كياستي من الانزلاق وعلى مكانتي من العبث والتخريط.... برحت أنتظر بشوق مضنٍ إطلالة فتنة الجسد، أنتظر أن أمرح مع الطيف والإيماءة والتموج المخضوب بفتنة الرقص، أشرئب بطراوة الوجد وهيافة الغنج على وقع الطرب الأصيل الشجي، بصوت كوكب الشرق أم كلثوم.

لم تدم مدة الانتظار طويلا حتى دخلن الصالة معا، جنن
يُعرفن بأنفسهن، وقد عرفنا الدكتور فؤاد بأسمائهن على
التوالي---

الفاتنة أحلام:....

تلك المليحة طلّت بجاذبية مشبعة بفتنة السُمرّة، بانسجام يُعيد
تشكيل معايير الجمال. جسدها يتهادى برشاقة الأيل، ممشوق
كأنما صُقل على يد عباقرة الفن، يتجاوز طوله 160 سم بقليل،
لكنه يحمل هالةً أوسع من المسافات الماثلة تحت النظر. ما أن
وقعت عليها عيني حتى تلاشت بيننا حدود الزمن، انحرفت
ذاكرتي لأيام المراهقة، لمرحلة التغزل بزبد سمرة البشرة...
كانت تتزين بفستان حريري أبيض، شفاف بقدر لا يبوح بكل
شيء، بل يترك في جوفه مساحةً شاسعة للتأمل والإيحاء في
لغزه.

يشد خصرها حزام بديع يتألق بزرقة البحر، كأنه قطعة من
موجٍ عالق بين العين والنظر. يتوج شعرها الفاحم طوق
فضي، تتناثر منه خصلات تتهاذى كجدلة فوق الجبين. في
شحم أذنيها يتشبق حجارة توباز أزرق، فصّان كبيران يلمعان
بوهجٍ بريق البحر حين تغازل الشمس الفجر. يزين جيدها
طوق فضي، ينسدل منه صليبٌ يتلألأ بين منحنى الثديين، رمزٌ
يتجاوز المعتقد ليصبح جزءاً من فنتتها الطاغية.

كانت بشرتها تشع بدفء الرمال، تنقد بزيت البشاشة، متدفقة
بطراوة انسياب الضوء في المسامات. لا شيء في حضورها

ينتمي للعادة، بل هو انبهاؤ يتسرب عبر الحواس ليستقر في الأعماق.

الفاتنة شيماء:-...

ها هي تطلّ كما لو أنها إشراقة الفجر الوليد، تفيض أنوثة تتجاوز حدود الوصف، تنثر خلفها أثراً من وقع الفتن ليمتزج بنفح العطر أينما تحل. تتراقص خطواتها في تماهٍ مع الأرض، كأنها وُجدت لتعيد تعريف الجاذبية التي أخطأ فيها نيوتن. لرشاقة الجسد ينساب في اتزان أخاذ، تهجس به ممشوق كغصنٍ أرهقته الرياح، فصار ينثر سحر فتنته على الحضور. لا يكون الجمال مجرد صفة، بل حالة، تجريدية وشعورٌ يتسرب إلى اللاوعي دون إذن.. وجهها، لوحة من ضوء وبهاء، تتهدى فيه عينان فيروزيتان، كبحيرتين تسرّان أسراراً لا تُفصح عنها إلا لمن يتأملها بإمعان. على كتفيها ينسدل شعرٌ أصهب عصف بها الأهواء، يتموج مع حركات البدن كأشعة حب ترهف به قلوب العشاق. ليست مجرد جمالٍ ثرى، بل لحظة تلبس الحواس بحلقات الفتن، لن تقرد ألا أن تترك في المهج أثراً من نار الجوى لن يمحي أبداً.

تلك الحسناء، بهية الطلعة، مشرقة القسمات، تحمل من الجمال ما يسلب الألباب ويهز الأوتار الخفية للنفس. قوامها ممشوق كغصن الخيزران، تتحرك بخفة الرشا، كأن الأرض تتجاوب مع وقع خطواتها فتتمايل معها في انسجام خفي. لطولها الفارع وانسيابية القدّ، تفيض بسحر يأسر العين، فتشعر وكأن جاذبيتها تتجاوز حدود ما ترتديه، كأقحوانة ترتع في صباح ممطر.

تلك المليحة تحملُ من نزق الرقة والأناقة والجمال ما تذيب
به الحجر وتسف به العقل، تكاد تكون أجمل ما خلق الله حسنا
وجمالا. لحسن قدها المياس وطولها الفارع الذي يزيد عن
طول أحلام بأربعة أصابع تقريبا جاذبية سليطة.

ترتدي فستانا من شيفون وردي، مطرز بخرز النمم الملون،
والتي تعكس إنارة الأضواء بفسيفساء من طيف الألوان فوق
محيط الصدر، والمرقع بمخمل حريري لحمي اللون، يغطي
مساحة الصدر. فيما تنعم أذنيها بقرط من الذهب على
شكل مجموعة حلقات دائرية متداخلة، فيما يعانق جيدها طوق
ذهبي على شكل هلال لماع، يزداد سمكا من وسطه كهلال
العید بعمر يومين.

هزتني المفاجأة بهول الزلزال الذي أحدثته بإطلالتهن، وأنا
أرى تلك القامة من السحر والفتنة تخر شهدا بين أياديها.
ناعمات الطرف، كواعب، كأغصان الورد يملن مع خط
الشفق العالق بأمانينا. يتنسمن بعطر الود، تشع فوق ثغورهن
ابتسامة من نزق الهوى، عبثنَّ بهفاف القلب، سرحن بأجواء
مآقينا. ففي كل نظرة من نظراتهن تزداد سعيرا وتخويرا
جثامينا، صرنا نتتبع لسعة الفتنة المعطوفة في أجسادهن،
نمضي معهن إلى حيث الموجة التي أغشت نواهينا.

قبل أن التقى بعمر هجست بذاتي كأنني أثرُ عالق في ممرات
النسيان، فكرةً تتشبث بأطراف قمة مهجورة، حتى تهاويت
نحو ظلال ذلك العس، حيث تركتني الأقدام الناعمة نقشاً في
عتمة ليلي، بقايا حضورٍ لا يغادرني. كأنني تحولت بقدرة

صديقي عمر وفكره وفطنته من جملة مبهمة لأخرى سلسلة، وفي ذلك الانسياب، كان قد شكّلني من جديد، حوّلي من غموضٍ مبهم إلى وضوح يتقد بالمعنى، لجملة تجتمع عليها حروف طلسم الهوى، كأنه تمكن من فك شفرة ضياعي وترجمه للغة الهواجس، فأصبحتُ نصًّا يُقرأ بسلاسة لمن تأملني، دون أن يتعثّر في متاهات التعقيد

ما أغراني واستهواني هو ذلك التناسق الشديد في قوام الجسد، في الوقت الذي احزنني وأبكاني فكرة البغاء التي استحوذت على تلك المفاتن الفُضّة. مع أنهم يقبعون في قمة الألق، يمتلكن الحسن والجمال من النعم، ذلك بما فضلهن الله به على غيرهن من النساء، فأني أراهنّ يعبثنّ بتلك الفضائل في دروب الرذيلة، في الوقت الذي به يُحسَدنّ على ما يملكنّ من مواصفات جذابة تتحسر عليها بقية النساء.

حين ركزت في وجه شيماء اهتزت سرائري، شعرت بقوى خفية غزت ذاكرتي، أعادتها إلى سنين الخواء المنصرمة. عاد بي الخيال إلى الوراء عشرة سنين مضت، نزع عني وشاح الظن، صرت لا أركز على شاخص يعينني على الإلمام بالذاكرة... صرت ألّهت في داخلي كالمجنون خلف خيال هرّ وجداني، أخرجني عن قيدي وطوري، صرت اتبع ذاك الظن محاولا اللحاق به والإمساك بذنبه المموه، لأفسر صخب حضوره في تلك اللحظة، لأتعرّف على أبعاده بيقين..

شعرت به جردني من أحلامي البهيجة التي كنت أرتجيها في هبة، أقتربت كثيرا من الظن بيقين دامغ...يا ترى؛ من تكون

هذه الفاتنة؟ أين التقيتها؟. أأكون هي هبة بذاتها وقد غيرت
أسمها؟؟؟؟؟؟.....

طاف الخيال بمعالم وجهها، جردني من محيطي تماما،
رمى بي في حوض الجامعة، صرت أطوف أرجاء سنوات
المراهقة دون أن التقط صورة شبيهة بها، دون أن أقبض على
دليل يفسر لي الواقع الذي يتراقص أمامي... لففت الأفاق
والمراكز والنوادي دون أن أتشبه بواحدة أخرى غير هبة.
انحدرت لوديان الذاكرة البعيدة، لعهد المراهقة والطفولة
والجامعة، محاولا أن أجمع خطوط فكري المتشتتة لأحظى
بالفطنة دون أن أركن الى واقع غير واقع هبة، محاولا في
سعيي أن أبعداها عن الشك والظن السيء، محاولا ترجمة لغز
ملامح شيماء التي باتت تتقلب فيه وجه هبة الطفولي، تلك
الملامح التي لا تخفى على ذاكرتي قط، تلك التي داعبتها
وغازلتها يوما ما ببراءة حتى حفظت تقاسيمها عن ظهر
القلب، لون العيون والشامة تشهدان عليها..

يقينا أنني قد مررت على هذا الوجه في لحظة ما من عمري،
أشعر بسعيي كأني اقتربت من لغز رفض هبة لي كزوج لها،
هكذا صار يطوف بي الخيال في ميدان هبة..

- يا الهي أين، أين رأيتها؟؟؟؟ أأكون هي - هي.....

كان هذا الوجه المشرق هو وجه هبة ابنة السيد علي، أذكره
تماما، رغم اني قد تركتها وهي صبية قبل عشرة سنوات، لا
أشك بها ابداً، لن أغفل عن تلك الملامح التي تأملتها يوما ما

وتلك الندبة من الوشم في أسيل الخد الأيسر تشهد عليها... نعم هي - هي ذات الملامح تملئ وجهها، لن أغفل عن هذا الوجه الطفولي أبداً، حتى وأن كبرت وتغيرت الملامح، كثيراً ما تأملتُها ولاعبتها، ابتسمت لها وابتسمت لي، تلك التي حاورتها، راوغتها، طوقتها بنظري وبنبضات قلبي حين كانت لا تنطق سوى بالبراءة والعفة، أنها هي هي ذاتها هبة، لا يمكن أن أغفل عنها!.....

دخلتُ لمجال الألفة وهي مبسوطة، منشرحة بابتسامتها الجذابة، وبرشاقة جسدها الفاتن. تفرست في الوجوه سريعاً دون تركيز من قبلها، كأنها كانت خجلة. رشقنا بابتسامة من عصف جمالها الذي يتدفق أنوثة. صافحت الدكتور فؤاد بأنامل تكاد تتكسر بين قضبان أصابعه الخشنة، ابتسمت له بعذوبة، رشقها بقبح النية، أهدر على خدها الناصع قبلة شهوانية، نمت عن أصلٍ خسيس معبئ بنزق الفحش.. تحولت لمصافحة عمر، سلمت عليه، تبسم لها، رشقته بابتسامة خجولة، كأنها لم تتعرف عليه سابقاً.... ثم دارت بوجهها نحوي... وقفت كيمامة تتأملني، انتصبت كلوح جماد، لا حراك في ملامح وجهها، وجفت مرعوبة، صبت إشعاع عينيها بعيني، تجمد كل شيء فيها، أصابها ذهول وهلع واندهاش من لفحة المفاجأة. ركزت بعينيها، اضطرب قلبها، في الوقت الذي به شاغلت أحلام الدكتور فؤاد وعمر بشيق من ثنايا الغزل والوله...

ارتعشت أوصالها، كأنها أصيبت بنزلة برد.. تغيرت ملامح وجهها بين شف البسمة وتجهم مغیظ. أنقلب قارب بهجتها، بدت تغرق ملامحها في مستنقع العناء والندم.. تحولت بلحظة خاطفة من وجه بشوش مشرق تغليه الفرشة لوجه عبوس يختلجه الألم والحسرة، أضحى يتقلب في فسيفساء من ألوان القلق الغامقة، تساقطت فتننتها كأوراق الخريف، خالطت تجهم الوجه حيرة وارتباك ورهبة. تصبب جبينها بالعرق، ساح على ذوائب الزلف والرقبة، كادت تسقط لولا أن تسند ذاتها على كفي وهي تصافحني. تحولت من نزق حي لآخر ميت، أضحت كدمية بلا روح، كاد أن يغمی عليها لولا ضغطة زناد أصابعي على رقة كفها، كأني نغزتها باليقين الذي أصابها.

أدركت حينها بأني عرفتها، حيث أصابني ما أصابها من رعشة وقشعريرة، نخرت مفاصل جسدي، أخرس فاهي، شلّ فكري، ارتبكت أوصالي... لم تنبس بشفة، ولم أنبس بشفة. بقيت نظرات العيون تترجم مشاعرنا للبعض، تبادلّت الأسف والعتاب والعناء، صرت أحز كفها وتحز كفي بذات الوجس، تجمعت الآلام على حدود الفكر واللسان، كأني سألتها وسألتنی في ذات الوقت عن تلك التناقضات التي تدور في أروقتنا:....

يا ترى!.....

- يا ترى لم أنت هنا؟

- يا ترى لم أنت هنا؟

الشك أخترق حواجز الظن، بحث عن عرة تنتشلها من مأساة
الخسة، من أشواك هذه المعمة، كأنَّ المكان شهد علينا بأننا
متشابهان في السيرة والانحراف والنية.

توشحت بالحزن، مثلما توشحت بذات الشقاء، تكسرت قضبان
الفكرة على أعتاب ظهورها المفاجئ، باتت لا تقوى على أن
تميد النظر بوجهي، صارت تزحف خلف الرجاء والندم.
أضحت تترنح في سكرة من الألم، مقيدة بين أغلال الحيرة
والعذاب النفسي والتفسير المذل والشجن، بعضها من بعض
يتحلل بالتفاهة التي تركبها، خائفة القوى في وحل النزق
والانحلال.

يا ترى! لِمَ كل هذا الأخلال بالقيم؟ لِمَ كل هذا العقاب والبلاء
والجلاء الذي منحته لنفسك ولنفسى؟

سحبت كفها برفق من راحة يدي كشمس أفلت بكسوف تام،
اظلمها وشاح الندم. حين عصرت كفها بقوة، لمست أشواك
مشاعري التي غرزت بكفها، عندها قرأت إشارتي، فزمت
على العناب بالبرد، فترقرقت دمة في العين غطت على
الملاح بالأسف.

بعد أن قرأت صفحتها، سكنت رقائق فتنتها التي افتنت بها
الحضور في جحور القدر، خفتت أضواءها، صمتت جلجلة
خلاخل الحسن والجادبية التي دخلت بها، تلك التي قدمتها
كطاووس مبتهج. كأنها ألسعت بسم الألم، تألمت من وخز

نظراتي التي خزقت صدرها، وكأنني بها اشفقت على والدها
الطبيب الذي دنسته بالانحطاط والخسة.

تصرفتُ معها بعفوية مطلقة، كغريب لا يعرفها، بلامح
محايدة تخفي تحتها نيران الحسرة التي اشتعلت في داخلي،
بات الدخان يتسلل من جوارحي. وفي لحظة خاطفة، انسابت
دمعة من العين، لا رثاءً بها، بل للحالة المبتذلة التي عشقت
ذاتها بها، لتلك الصورة التي تبجحت بها وكأنها لم تدرك حجم
الدناءة التي سقطت فيها، وكأنها جرّت ذاتي معها إلى مستنقع
العذابات الذي لم أكن يوماً أرغب أن أحاط بها.

كانتُ قد لمستُ تدفق الحسرات في داخلي، بعد أن كشفت
غطاء وجهها المزيف. كما أدركت بأنني قد تمكنت من قراءة
أسرارها، ولمست حقيقتها المخفية تحت ظلال الحجاب،
وعلمت سبب رفضها لكم من العرسان الذين تمنوها...

تيقنت من اني قد تعرفت عليها... وهل يخفى القمر؟

.. حينها عطستُ وقحّتُ ثم غصت بقمع ماء بصوت أجش،
ثم جرعتُ قدح الماء بسرعة غريبة، ثم غدت تشهق وتختنق
دون إرادة أو بتمثيل ظاهري، أطّت بصوت خناقتها؛ حتى
غقت بهذر وعكتها.. طفح الخوف على وجهها، فيما بان عليها
ارتباك واضح قد أصابها. مما دعاها تظهر مشهد الاختناق
أمام الحضور بقدره تمثيلها...

تهافتت على جرع أكواع الماء بشكل غير طبيعي وهي تسعل
بقوة. وضعت يدا على بطنها وبالأخرى مسكت منديلا غطت

به فاهها، ، كأنها تريد كبح رغبة مُلحة تزعزع كيائها. لم يمهلها المشهد طويلاً، فاندفعت بسرعة، تتعثر في خطواتها، تتشبث بزميلتها أحلام التي تحاول إسنادها عائدة باتجاه الحمام، وصوت زعيق القيء يزداد غلوا في الأجواء.

حاول الدكتور مصاحبتها أو السعي لمساعدتها... إلا أنها أشرت له بكفها ناهية سعيه..

عاد وجلس على كرسيه وهو منزعج من سوء الطالع. ألح الدكتور في سعيه على مساعدتها لتتجنب المخاطر الصحية، إلا أنها طلبت منه التريث، وأن يبقى جليس مقعده.

وبعد هنيهة من الزمن، عادت أحلام تعتذر لنا باسم شيماء، والتي لا تستطيع مواصلة مشوار الليلة، لشدة الوعكة المصاحبة لها منذ الصباح والتي باتت تعثرها بين الأحياء - حيث اعتذرت لشعورها بآلام الدورة الشهرية والتي مخاضها أحياناً يكون مفاجئاً، وكأنها قد ارتدت ملابسها التقليدية وغادرت دون أن تستأذن متخفية بطارئ الوعكة.

حينها جرعت كأس النبيذ أمامي حزناً على ما أصابني بعد أن عرفت سر وجعي... الجميل في الأمر لم ينتبها عمر والدكتور على ما جرى وما دار بيننا من تهامس ونظرات عتاب، وكأنَّ الفاتنة أحلام كانت قد شغلتهما بفتنتها، ألتهما لحظة تخاطر الأفكار ما بيني وبين شيماء دون قصد منها، وإلا لو كشفت الأسرار لكانت الفضيحة مدوية وبالذات أمام عمر..

احلامي. بات يسترق ومضه من كريات دمي، يوحد فتيل
سحره من فكري وقذحية عيني.

أخيرا اكتشفت سر الكسل الرائب في مجرى الحظ، والذي لم
يكن كسلا حقيقيا قدر أن يكون سكرة ألهنتي عن الدنيا زمنا.
فذاك المستحيل الذي صدَّ عزمي ومرامي، صار رهن شارة
يدي... الوشوشة التي كنت أتجنب قرفها والتي لا أفقه لها
معنى، أضحت واضحة التعابير في موجات السمع التي تتردد
على مسامعي.

ما عادت الأمور كما كانت صعبة المراس على الفهم. العقدة
التي كنت أعاني منها، تفتت ذراتها، تحللت بذاتها. كل الذي
أتعبني وأرهقني وجردني من خيالي، لم يعد سليل خيال؛ أنما
حقيقة أقبض عليها بيقين.. لم يعد هناك ما يقلق الذاكرة،
ترفعت ثقتي بشخصي بعد أن زبحت عن جسدي أغبرة الشك
والريبة.

مضت الحالة بسلاسة وكأنَّ الأمر لا يعنيني ولا يمسنني قيد
شعره، صرت لا أهتم بشيماء ولا بالذي جرى وما حصل لها
بعد أن عرفت سرها. باتت لا تعنيني، لا تخصني، لم أزغ
بفكري في ربوع فتنها دون مغزى؟ لذا لم أطورق لفتنها
وجمالها قط، كي لا تصبُ العيون جام غضبها على ذاتي
البريئة، ثم الأُم على نأيها وطفاشها...

بقيتُ جالسا كالصنم في مكاني، متشبثا بالهدوء والكياسة،
صرت أجرع كأسَي الثاني من سم القرف على رواق، حزنا

على ما أصابها وأصابني من عناء ووعناء الحالة، شفقتُ على
أبوها الطيب وسمعتَه الرنانة، وعلى شبابها الضائع وذاتي
البريئة التي تعلقَت بها، كأنها كانت تحرث في أرض بور
دون أن تعلم...

حينها أدركت لمَ كانت قد رفضت الزواج مني ومن آخرين
قبلي، لم جزلت علاقتها بشقيقتي مريم؟.

2- أحلام

الوقت لا زال ناهدا في فم المساء، لازالت أم كلثوم تطربنا بصوتها الذي ينساب لخلايا الروح كضوء يتغلغل في العتمة. كانت دندنتها أشبه بموج يلامس شواطئ الذهن، يثير زخماً من الوله، يبعثر إرهابات الفكر، وكأنها بصوتها الشجي تحرك فينا ما كان ساكناً، توقظ في الأعماق رغبةً تتماهى مع أنغامها، فتسقي الأفئدة بنمير الحب، وتغمرها برهافة الشوق. تلك الأصدا لم تكن مجرد طرب، بل انعكاسٌ على سلوكنا، على مشاعرنا التي طافت كحماماتٍ تتبع للحن بهاجس مفعم بالسعادة، لترفق ذواتنا بمنحنيات جسد أحلام الذي لا يوصف مع ملح سمرة البشرة. كأنها بصوتها الشجي حركت غرائز الشبق في دواخلنا، لتسقي الأفئدة بحنو من نمير الحب ورهافة الشوق، فانعكست تلك الأصدا المصاحبة للطرب على واقع سلوكنا ومشاعرنا بشيء من التغيير... ونحن نجرع الجعة على تلك الأنغام نهجس كأن صوتها الشجي هو امتدادٌ لصوتٍ لا ينتمي للزمن، بل للحالة التي يخلقها ذلك الحس المشدود بأوتار صوتها.

...أستمرت أحلام برقصتها الجميلة، وهي تميل بجسدها ميل الغصن مع عزف النسيم. تهفو بنسق حنو الكأس المنضود بخيال راغد. سحر ينبض بلون بشرتها الساحرة التي تبدو تحت ضوء الثريا كقنديل مبهج بالألق. مع هاجس الرقص كانت تنث عبير فتنتها على العيون الشبهة، الصفاقة، تلك الماخرة بأمواج أنوثتها بشيء من الوحشية.

لرهافة الجسد لسعة في الروح. وهي تتلوى في الرقص تبدو
كثعبان يتلوى بين عصف الروح وشهقة الحدق ذات اليمين
و ذات الشمال، تلسع المتمنعين بفتنتها بتلك الرقة المنثورة
على قوامها، في الوقت الذي به تُغزُّ من قبل الجمع بنصل
النفس الامارة بالسوء، هكذا اوقدت فتائل الوجد بشغب
وصلاتها....

أستمرت أحلام في رقصها على عزف مقدمة أغنية أنت
عمري قرابة نصف ساعة من الزمن، تهجس بها وردة زاهية
فواحة بين الحضور تنث عبيرا هنا وهناك، متنقلة بين
الأحضان والعيون، كطائر يتنقل من غصن لآخر، تزورها
مسكة من هنا وأخرى من هناك، توزها قرصة هنا وتستبيحها
قبلة هناك.. وهكذا هلم جرى وهي تموء مواء القطعة الشبقة،
ماهية بين رشقات العيون العطشة، تلسعها الألسن برواء
وبنفحات من الغزل.

خلال وصلة الرقص رمقتني بنظرات خاطفة حادة شحنت بها
غرائز الشبق في ذاتي، حركت معها رعشات الجسد كسنابلٍ
أرهقتها الريح. كنت كمن لا يقوى على مقاومة فتنة تتقد
أمامه، كمن يلامس جمرة الفتن ولا يملك الفرار. تلك النظرة
لم تكن عابرة قط، بل كانت وعداً خفياً أضمرته لي، إشارةً
تترجمها النفس التواقية لسحر السُمرّة المدفونة في بشرتها.
شوقٌ جارف، كإعصارٍ ضرب الفؤاد، أجتاح الخيال، أبرق
الذكريات، أوقظ في الأعماق ظمأً قديماً تاق لذوات سمرّة
البشرة.

تمنيت أن أظفر بها قبل مُضَيِّفِي، وخاصة بعد أن لاح خيط السكر يرتفع وتيره في مناسب المخ واعضاء الجسد، يتبع اللون البرونزي المنبسط كفراء فوق الجسد المعنى، ذلك الذي أمتد تأثيره إلى ثنايا النفس وقصات الروح.

صار كل منا غارق في خيال دفين يتبع ميل الجسد الملط بالجازبية، لن يستكين ذلك الشوق العارم إلا باستكانة عاصفة الشبق في داخلي، هكذا تخيلتها تتلوى بين ذراعي كسمكة تشدني لأعماق سرائرها بود اتأمله وأشتاقه.

لذا بعد أن انتهت الوصلة الغنائية؛ رشحتني عمر لأنال من فتنة جسدها البرونزي، لأقطف ثمار فاكهة بستانها الجميل، المكنونة تحت نبض ذلك السحر الغارق بالفتنة، لأستمتع بشواطئ الرمل الممتد إلى ضفاف جسدها الملائكي... كانه قد قرأ نيتي وعرف غايتي، كانه لمح خيط دخان السكر يرتفع من مداخل رأسي، فألتمس غايتي المهووسة ترغب بخوض التجربة قبل أن ينال السكر مني.. لذا ودني أن أستمتع بليلتي واستشعر بضوء القمر قبل أن تطفأ الأنوار في جسدي ويصيني الأرق.

زادني شجاعة وعزيمة ترشيح الدكتور فؤاد لي، كوني ضيفه لأول مرة، وربما قد شعر بالذي شعر به عمر. إضافة إلى إن إكرام الضيف واجب متبع، وخاصة عند هؤلاء الطيبون في طباعهم من أصحاب (البيك)، مرنون في دواخلهم، متسامحون، متعاونون، يختلفون كليا عن الذين يخفون ذواتهم الخبيثة تحت قبة العمامة..

لذا تشجعت بالرغبة ونهضت كأسد ضرغام متأنق بالوحشية يستهوي لبوته. تهيأت لمفاتنها، تحزمت بشجاعة لا أعرف من أين أستقيتها، ومن أين حلت تلك السكينة على قلبي. ربما من الرفقة والمؤازرة التي اكتسبتها خلال جلستنا؛ أم من الكاس الذي شحن جسدي بشبق الرغبة والعاطفة، والذي أزاح هاجس العفة والخجل عن الذات نهائيا.

تقدمت مني على رؤوس أصابع قدميها، لامست بيدها خدي، ثم صحبتني وهي تقبض على يدي لفرشة الهيام على عزف أنغام الهوى..

قبلت ظاهر كفها، ثم تدحرجت برفق خلفها كطفل ورع يتأمل مهده، تمشي وأزحف خلفها بتبخر لغرفة الهيام والأحلام، ملوحا لعمر والدكتور بيدي تلويحة الوداع... فيما كان عمر والدكتور فؤاد يطرقان خلفي عبارات سخرية والتلهيل، مرفقة بالضحك والقهقهة.

- .. هيا يا صلاح.... أرنا عضلاتك.. هيا.. كن أسدا، سنحاسبك فيما بعد.. ننتظر النتائج..

كنت اتبعها وعيناوي مبهورتان بناشز عجيزها وهي متهيئة للمواجهة الحاسمة، كانت تميل مع اللحن بحركات لولبية، لدسترة أصول الشوق. صار الهيام ينفث من شذقي كنار من السعي المراق على لدانة سمرتها.. في الوقت الذي به شكرت عطفها، شكرت لطف الدكتور فؤاد والصديق عمر.

تحركت خلفها ببطء حركاتها، كأنني أجّر قدمي نحو مصيرٍ لا رجعة فيه، أقتفي أثرها نحو مستنقعٍ يبتلع العفة والحياء دون هوادة. كانت النية الجانحة قد طوت صفحات البراءة، أوقدت في داخلي هاجساً يتصارع مع الدين والخجل، مع القيود التي قيدتني زمناً وأنا تائه بين الغواية وهي تتسلل بلا استئذان والشرع الذي أضحي وجوده كالبنيان. كما لو أنها لوت ذراعي بفيض أنوثتها، ألبستني قناع الفاسق، دفعتني نحو الهاوية حتى غاب عني إدراك العقل، تلاشت ملامح شخصيتي في زيف اللحظة. كنت كمن يبذل ذاته بأخرى مزورة، ينسلخ عن نفسه، يتركها خلفه دون أن يلتفت إليها.

سايرتُ شيطانها الذي أوهمني وأغراني، رافقتها على ما تروق وتشتهي النفس، وعلى ما خططت أحلام في مآربها لاصطيادي. صرت أتبعها بشغف ورواء، كهربة ما دجت في خلايا الجسد، خامرتني رهبة الفشل التي كنت أخافها فيما سبق، ولكن كان للخمر دور في تخطي عجزِي، ارتباك ما لاح في الوجه، تنملت أطرافِي برعشة خفيفة لا أعلم أن كانت بسبب الخمر أو بسبب رهبة الموقف، ربما لأنني أول مرة أخض التجربة مع مومس..

لم يسبق لي أن لامست جسد امرأة، كل محاولاتي السابقة كانت مجرد محاولات سطحية لم تتجاوز حدود البراءة، لم تكن سوى سعيٍّ صادقٍ لترميم الذات، للبحث عن ارتباطٍ روحي يتجاوز مرحلة الغريزة. كنت أبحث عن شريكة حياة، عن حبيبة مخلص، لا عن نزوة عابرة أو رغبة طاغية.

لكن هذه المرة، وجدت نفسي أمام تجربة مختلفة، أمام رغبةٍ تتجاوز حدود الفكر، أول مرة ابحت فيها عن فرصة جزل متاعب الغريزة وهي معضلةٌ دفيئة كنت أتمنى تجاوزها. وها هي أحلام تقودني نحو ذلك البر الأمن، نحو لحظةٍ تتجلى فيها الذكورة بكل ما تحمله من صراعٍ بين التوق والتحفظ، بين الانجراف والتردد..

دخلت لغرفة جانبية بصحبة الرغبة الجامحة والرغبة الملحة والارتباك الذي بدأ ينهزم أمام الشبق والاشتياق. قادتني لضفاف فتنتها الرائبة بود. جعلتني أمخر عباب الفتن برقة ولدانة ذلك الإحساس المدفون فيها، وكأنها مسحت عن وجهي هالة التعب والخوف والأرق بفرض ابتسامتها وخفة دمها، جعلتني أرتوي من منهل تلك الأنوثة بشبق حين قبلتني قبله شوق من خدي.

الغرفة مستطيلة بحدود 4×6 م فيها نافذة بعرض ثلاثة أمتار تطل على جانب من حديقة المنزل، تحتوي على سرير وثير من القطن المكبوس بعرض متر و60 سم، وطول مترين.. الغرفة من نوع الماستر التي تحوي على حمام داخلي، فيها طاولة صغير من تخم السرير (كومدينو)، موضوع عليها علبة مناديل ورقية شفافة، وقدحين من الماء وثلاجة صغيرة مملوءة بالبيرة والفواكه من اعناب وحمضيات. تقبع على الجدار لوحة فتاة عارية غائرة في الأحلام تضيء على المسرح نشاط غريزي للروح. مصابيح طولانية من النيون معلقة في سقف الغرفة مع ثريا صغيرة تتوسط السقف.

رَتَجْتُ الباب بقفله الداخلي، ثم قبلتني قبلة من شفاهي ومن رقبتي، ثم طبعت أخرى على خدي، أزالته بها وشاح الارتباك تماما من على الجسد، كشطت العناء عن ثكنات الفؤاد. شعرت بجمرة شفتها ترمض موضع القبل على الخد والشفاه والرقبة...

ثم وسوست بأذني وهي تود أن تنبهني بهدوء عن شيماء.

- أسمع يا هذا!..
- اسمي صلاح..
- يا صلاح؛ شيماء تبلغك السلام، وتأمّنك بأن تكتم سرها.. وتوعدك بقاء يوم السبت في تمام الثامنة صباحا في مرأب العجلات.. ستشرح لك كل شيء بنفسها.... كن كتوما، ولا تسألني عن شيء آخر، لأنني لا أعرف المزيد، وما على الرسول سوى البلاغ. فقط أودك تسجيل رقمها عندك... 000000000... لا تكلمها إطلاقا، إلا إذا تأخرت عن الموعد، ستخرج صباح السبت على موعدا الطبيعي للمرأب.. والآن أنسى كل شيء وأستمتع بوقتك معي كما تشاء.
- شكرا لك... فقط أود أن أعرف منذ متى وأنتن صديقات؟
- لا لا لا.. صدقني لا أعرفها... للمرة الثانية فقط ألتقي بها هنا، واليوم عرفت رقم هاتفها فقط.

كانها شجعتني وأعطتني جرعة من الطاقة، لأنسى مشكلة هبة الغامضة، لأعيش لحظات تاريخية مع سليل فتنتها.

حينها دخلت لعالم السحر والأناقة، عندها غصت جوارحي في سدم فتنتها كمركبة فضائية طافت بين أروقة النجوم، كلما زغت في عمق تلك المفاتن اكتشفت كنوزا جديدة من السحر مكنونة في أعماقها، كأنها تود أن تبلغ عن حسن المباحج الرهينة لأطلق سراحها في فضاء الحرية وميدان الوله، لاكتشف كنيزها الأخاذ والمدهونة بالجادبية وهي تشع كمصابيح وهاجة فوق بحر مسجور بالعاطفة، تلك المواضع المشبعة بالفتنة والالق تدعوني إليها لأحتوي جسدها.

شعرت بلذة جامحة حين قبلت ناعم الخد وحين لامست طراوة البشرة؛ كأني قبلت جمرا ولامست نارا متدفقة من تلك السمرة المراقبة كسحر الغسق. جذبتني إليها، تدثرت بملاءة محاسنها، هجست بها أعادت لفؤادي لاعج الصبا، فانحدرت معها نحو نمير السحر وهي تشد أزري لأعماقها؛ حتى ظفرت بتلك الرغبة الجامحة التي كانت قد آلمتني فيما مضى، تلك التي تأملتها جليا في سن المراهقة؛ حتى راغ لحن الشوق يطرب على وتر الرغبة مع عزف نبضات فؤادي المسرعة.

لم أمهلها راحة قط، حين لامست مفاتنها كأني اكتشفت مكنون اسرارها. حين بادلتني القبل؛ صبت جمر النار في المقل، لاعت الوجد بأنفاسها، مالت للعناق. صرث أجهش بالشوق وألهث بالأهات وأنا أنهش ذلك الجسد برغبة جامحة، لأزيدها جَوَاء ولهافة بي؛ حتى انسابت طراوة الغنج على مفاتن جسدها برفق وهيام.

تركت يديّ تنزف حنوها على تلك المواضع الندية، تمسح
المنقّدة بعطفة من حنوها، تشطف أوار السعير من شحوم
الصدر وحسن الدبر، حتى غدت تبرق بين بياض واحمرار
تحت واطئة راحة يدي، غدت تنزف شوقا وأنوثة دون
هوادة.. صارت تشهق بالرغبة، تستلذ بعبق أنفاسي وطراوة
قبلاّتي الدافئة. اشطط الجسد كنبتة دبكة، تنتح مسكا وعنبرا
من مباهج الانفاس وريعان الجسد.

برحت أتجول برجولتي على ضفاف أنوثتها، أتنقل من مرفأ
لآخر في جولة هيام تفقدية، أطوف بالرغبة فوق أمواج الجسد
المسجورة بعنفوان الرغبة. بت أنسج بساط الخيال من رونق
مباهجها كالعنكبوت، أزجل خيوط الوله بسحر الفتن وبالقيل،
أغطيها بسقف المشاعر، لاح الشوق يرق في وهج ابتسامتها
وحسن جاذبية بشرتها وهي مكورة بحجري كطفلة تود اللعب
والمداعبة.

ما فتئ أنضوى وتماها الخجل تحت وهج الشوق، كقطعة ثلج
ذاب على اسيل الخد، تسامى كدخان فوق سدم الجسد. كانت
قد تحملت وزر رغيتي على عاتق الصبر، فأغشت عاطفتي
بشيء من رائحة الشهوة وقدسية الغريزة المشاءة في ثنايانا،
مثلما أغشيتها بنتر ذكوريّتي وغريزتي المتوهجة..

بت أتقلب فوق الجسد كثعبان ملتف عليها بذراعي وسافيّ،
احيطها بجنون عجف وكياسة لينة، أتحول من طفل يستلذ
بلعبته لعجوز يتأمل فرصته، عبثت في كل مرافق الجاذبية،
بكل ما أملك من حنون ومجانة، شغلت عيناى ويديّ، وفمي

وقلبي وروحي وانفاسي، عشقت مشاعري وهواجسي بخيوط
مشاعرها وهواجسها، ما فتئت كانت قد راغتْ أهوائي كوغف
صابون فوق الجسد النهاد، صرت أمتص رحيق الأنوثة بفمي
كدبور أعسر، متماديا في جنوني وعبثي دون توقف؛ حتى
تراخت يداي وبانت تداعب تاج الشهوة بالبنان، مثلما الاطفها
بأنفاسي ولساني واسناني...

صرت أنثر القبلات بكرم لا مثيل له، قبلة هنا وقبلة هناك،
مسكة هنا وحضن يشدني إليها؛ حتى لاحت حالة الإغماء
تنعطف على مشاعرها، حينها تعلقت باللحظة المجنونة التي
تراخت بين يديّ، تحولت مشاعري لعاصفة ريح تحاكي
ضعف أوراق شجرتها، غمرتها بظلال شبقي من شذى
أنفاسي، لم تستطع مقاومة العصف، فبادلتني ذات المشاعر،
استسلمت لحالة الغثيان وطواف الشهوة، في الوقت الذي به
بانت تجلدني وتخرق بلين رقتها حواجز صبري المنيعه دون
أستاذان كسيل مدمر.

أشدت الوثاق وأنتبر الوند في مكمّنه، برحت تحنو بالشوق مرة،
بفضاظة مُرة مُرة، لتزيدني خشونة وقوة. فرشت بساط
أنوثتها، أشدت بنا العبث، أدخلتني كمستجد في سجلها، بت أشد
بها وتشد بي حتى أستكان طائر الشوق في وكّره؛ حتى
امتزجت المشاعر والأحاسيس في بوتقة الشبق، انتشت اللذة
في الجسد بعد أن نقلتني من دنيا الهوس والسعادة لدنيا الخيال
والوله.... هكذا طفئت أرجاء الفردوس المغشي بالزهور

الوارفة، غطست لأعماق البحر، تلففت اللؤلؤ والمرجان
المكنز بأعماق جوارحها.

أحسست بعالم جديد وهو يبرق بالسكر وينبض بالحياة،
يغمرنى بعاطفة جياشة لم الفاه من قبل. طوقتني المباهج،
أدهنت الغلطة في داخلي، جعلتني أغص في متاهات النشوة
وأنا أرهز بها فوق تلك الفرشة الوثيرة بقوة ثور جامح، وما
هي سوى لحظات حتى انفجرت بالونة العصف وانفلجت
الغمامة بالدرر، حينها تسلفتُ جدار الأورجازم المنيع لأول
مرة في حياتي، استشعرت بنشوة النصر تحت تلك الأنوار من
مباهج السعد، وهي تحيط بي وتهدهد مشاعري وأحاسيسي.
هجست بملاة أنوثتها غطت مشاعري، جعلتني كطفل ألعب
وأقطف أزاهير الفتن دون عناء.

أنها أول مشواري مع النساء.. أحدث انقلاب تام في مجرى
حياتي، طاف بي في سدم الحياة الجديدة. لم أكن أدرك العمق
الذي غصت فيه، أنه عمق من الخيال لا يقاس بالمسافات،
أنما بحجم السعادة التي نقلتني لضفة أخرى من سدم الحياة.
من خلالها اكتشفت أسرار الحياة على مضض.

وأنا أدخل عالم الوله؛ هجست بذاتي وهي تستبيح أسرارها
كطائر النوء الغطاس، تبحث عن الكنوز في تلك الأعماق، أنه
أول الغيث، أنها البداية، ربما هي النهاية دون أن أدرك
قدري.

حين انتهيت شعرت بأني قد خرجت من ساحة المعركة، رافع راية شخصيتي الجديدة.. كأني لست أنا الذي يبحث عن الأنا في أعماقي، كأنه قد تقمص جسدي أنسان آخر، أو تلبسني جني أو شيطان، أكتشف قدراتي، روضني، قوّم ذاتي، اختزل كم الأنا المدفونة في ذاتي بـ أناه، جعلني أرى قدراتي المخفية..

لحظات عشتها مذهولا، ممتنا بها أحلام. كنت قد قضيت نصف ساعة أو تزيد معها دون أن أشعر بالزمن، حينها شكرتها، وكرمتها بمبلغ من المال سرا، ثم ودعتها بقبلة طويلة من الشفاه المملوءة بالركة والأنوثة والحيوية.

ثم خرجت ليتولها الدكتور بعد أن وشل مخزونها، حيث عمر لم يحضر إلا للمجاملة وتقوية الصحة مع رفيقه الدكتور فريد..

خلال جولة الدكتور كنت قد انتشيت كأسا آخر من الجعة، حينها سألني عمر عن أحوال جولتي مازحا.

- كيف حالك يا فتى؟...أسدا كنت أم ضبعا؟ هههههه.
- دع ثقتك كبيرة، أكيد بأني قد تجاوزت العقدة، والشكر يعود اليك، صنيع لا أنساه لك...

كأن السكر قد سرى مفعوله في جسدي، حيث شده فكري في خيال، بقيّ يطوف في رواق ذاك الجسد.. كوني أول مرة أنتشي الخمر، وأول مرة أنعم برقة أنثى، فتلعثمت بكلام بات

في جسد احلام.. لذا بعد أن أخبرتني بموعد لقاء السبت مع شيماء؛ بقي البال مشغولا بها، وزاد جحيما وهياجا وولعا بعد جولة أحلام، فقررت أن أعيد الكرة مع شيماء، لذا بت أفكر بالجعة والجاجيك والنقل وبعض الفواكه، لقد فكرت أن أستغلها على قدر العذابات التي كنتها إليّ عبر سنة ونصف من العناء..

3- الصراع مع الذات

مر يوم الجمعة ببطء شديد على ذاتي، لانشغالي بكم الارهاصات والعقد التي تراكمت على ذهني وفي طريقي، تلك التي وددت أن أضع لها حلاً جذرية قبل أن يمضي اليوم إلى حثفه. إرهاصات انفجرت كينابيع شغلت القلب وقرحت الفكر، فلو كنت أتحكم بالزمن لألغيت ذلك اليوم من سجله، لضيق النفس ونفاد الصبر، ولارتقاء الحيرة أعلى مراتبها.

ذلك اليوم يكاد يكون أثقل أيام عمري شئت أم ابيت، شئت فيه قراءاتي، حاقتني اضطراب فكري وعاطفي شديد أرهق جوارحي، حيرة مرة عصفت بكياني، قلبت حسابات الزمن، عقصت أحلامي. هجست بمطرقة الزمن تدك طموحاتي، حطمت زجاجة عطر المحبة في القلب إلى الأبد، صرت كالبصير الذي لا يدرك طريقه ومرامه؛ لا أرى من لوحة الحياة سوى نورٍ يعرج في سدم ظلام دامس.

حين يكون الإنسان منشغلاً بأمر ما، وهو ينتظر لحظة انكسار الشمس ليحظى بمسرة تأملها؛ لا يمكنه أن يستكين بفكره المضطرب قط رغم هدوء الأجواء، فما بالك بالذي استخلص نتاج حسابات فشله من بوتقة الزمن قبل أوانها.. عندها دونت في سجل الغد نهاية درامية للقدر، وضعت نهايةاً مأساوية للعبة الحب، ارشت لوحة الحياة بباقة ألوانٍ عبثية استخلصتها من وحي الغسق.

كانت التقلبات ثقيلة، كأنها أطَّتْ بطقوس الود حتى انحنت تحت وطأتها، فحصدت سنابل المحبة وهي لا تزال غضة طرية، تاركة خلفها فراغاً يتسع ببطء، جعلتني أتحوّل تباغاً من حالة مفعمة بالحياة إلى أخرى يشكها القيد، يطوقها الجمود، ويثقلها الملل. ذلك اليوم المقيت مر بي وكأنه يوماً فلکيا غريباً لا ينتهي قياساً لعمر يوم الأرض، حمل عصف التغير والتجذير بوجه جهم، اختنقت فيه النسمة. جثم الهم على صدري حتى كاد يلتهم أنفاسي. كأن عقربة الساعة أصابها الصدا، فتوقفت الدقائق والتكتكة، كأن الزمن نفسه قرر أن يهادن اضطرابات النفس، أن يمنحها لحظةً من السكون المرهق.

تلك الليلة هي الأطول على مدى العمر، مرت بي وأنا ساهدٌ في فرشتي حتى بزوغ الفجر، أتّقل بين مفاتن أحلامٍ التي شغلت فكري، ونزوة شيماء التي قتلت براءة هبة وعكرت صفوة مزاجي. ليلتها لم أستطع أن أغفى برهة قط؛ كانت ليلة ليلاء، جهمة، بها اتقدت فتائل حسابات الذهن، فبان الغد أعورا في حسابتي، ككومة قش يحترق في طرقاتي، لا اشاهد في أفقه سوى دخاناً ينفث من رحم العناء.

لقد اضطرب فكري، تلاطمت فيه أمواج الهواجس، بات سوط العذاب والعناء يطقق رأسي بلا هوادة. أنازع الأطياف بين نوبات الكرى، هجست بمكعبات الحلم قد تكسرت وذابت بين عفة هبة التي كنت أحلم بها ونزوات شيماء التي تأملتُها واشتهيتها.

بين إجلال هبة وبراءتها، وبين إغراءات شيماء وهياقتها،
تحطمت تأملاتي، تاهت بين سحر الأولى وشرر الثانية، بين
جاذبية تأسر الروح وقبح يبعثر اليقين. هكذا، وجدتني أساق
بين شواطئ هبة الرملية حيث الصفاء والهدوء، وبين
مستنقعات شيماء الطينية حيث الغموض والاضطراب. أخذت
تتقاذفني الأهواء بين عالمين لا يلتقيان، بين نزعة اشتياق
لعاطفة هبة، وكره انتقام لأبجديات شيماء.

كان قد هاجني عصف النكد، جردني عن طبعي وهدوئي،
قادني لوهدة شك اللقاء، إلى هوس اليأس والجنون.. حاولت
كف جماح نفسي، أن أختصر طرق الملاذ إلى قلب شيماء، أن
أختصر زمن الأهواء بإشباع الرغبة الملتاعة، إلى حدود
اللحظة التي سألتقي بها في منعطف الفراق.

هكذا خططت وسرت نحو مرمى الهدف دون يقين مطلق، لقد
مررت بفترة صراع عصبية، هجست بذاتي تود أن تنتقم من
الآفة المسماة شيماء التي قتلت براءة هبة وحطمت أحلامي
وازهدت آمنياتني في مهدها، تلك الجنية التي شرشرت تأملاتي
على غارب الزمن.

أشعر بتلك الأثمة شوهدت صورة هبة، هي من كسرت
برواز ألقها، هي من أوقدت النار في جحرها. هي من جعلتني
أكره هبة بصفات شيماء، مثلما أحببت شيماء بإذكاء هبة
وبراءتها.

...تري؛ كيف سيبدأ اللقاء؟ بمن سألتقي؟ ب هبة أم ب شيماء؟
بماذا سأحاورها، بشوقي وأحلامي أم بالرغبة اللابدة بين
أفخاذي؟... ماذا سأقول لها، وماذا ستقول لي؟ من سيخترق
دائرة الصمت والسكون الدائرة بيننا؟ كيف سأواجه سلطان
هبة؟ وكيف سأجانب فتنة شيماء؟ هل سأتجاوز جبروت هبة
المستبد؟ أم سأنغمس بإغواء شيماء المنفلت؟..

أكيد سأتحكم بها، أضحي الحبل في قبضة يدي، سأتعامل معها
تعامل الجلاد والضحية، وحسب أهوائي. هذه المرة لا بد من
فرض سلطاني عليها بعد أن كسرت مرآة عفتها وتحطمت
مجاديفها.....

لا، لا.. لن أقدر على سلطانها، ربما لن أتمكن من مواجهتها،
لقد أصبحت ذات خبرة في مجال التسكع والانفلات، فسيان
عندها رضاي أو زعلي.. ربما لا هذا ولا ذاك فتلك اللحظة
هي التي ستقضمنا بأنيابها معا، ستقرصنا لهفة الشوق والعتاب
والعذاب، ستقص أجنحة المراهنات بمقص العناء والمجادلة؟

بقيت في سكرة وتيه من أمري؛ لا أعرف أين ستذهب بي تلك
اللحظة العقيمة، كيف سأواجه انفعالاتها؟ الخواطر مرتجة،
الأفكار متناقضة.. في الحقيقة لا أعرف كيف سأتعامل مع
شيماء وكيف سأقابل هبة؟ خاصة جولتي الأنفة مع أحلام
نقلتني إلى شخصيتي الجديدة، كشفت لي بعض أسرار النساء،
نقلتني لواقع ملموس جديد لن أستطيع التخلي عنه أو نسيانه،
أو تجاوزه بسهولة، رغم مرارة الفعل؛ إلا انه يطابق أهواء
وحلاوة شيماء..

من خلال جولتي مع أحلام؛ أدركت أبعاد العالم المجهول في ما وراء الطبيعة، والذي فيه تختفي قوام الشخصية والأناقة والأنا، عرفتني بحقيقة الأنا التي لم أكن قد استكشفت طبيعتها بشكل جيد، وضحت لي حقيقة هبة (شيماء) المخلة التي كانت مخفية عني. أهجس بذاتي التمسست الفارق والنقيض بين شخصية هبة وشخصية شيماء، صرت أخاف هبة وأنعت شيماء، أشتاق لحجاب هبة وأتأمل عري شيماء.

صرت أتفاجأ من حقيقة ذاتي التي باتت تتقلب بين الأمزجة وحسب الأهواء، صرت أندهش منها وهي تتبع الموبقات بإرادتها، كأني لست أنا، تغيرت صفاتي، أضحت غريبة لم أعود على مضامينها، صارت تتصف بمزايا الحرباء، متقلبة اللون والمزاج، متماشية مع الظرف. كأنّ لقائي بأحلام ومعرفتي بخفايا هبة قلب موازين الكياسة عندي رأساً على عقب...

وما أن حل يوم السبت الموعود؛ حتى حل بركام التناقضات وأهوال الحالة التي فرضت نفسها عليّ، أدركتُ صباحه بشيء من اللهفة المغموسة بالشقاء، تمنيته يكون على واقع الصباحات الأنفة المليئة بالأمل، تمنيته يكون مفعم بحياة جديدة فيها ديمومة المحبة، تجعلني أفكر بغدي.

مع إشراقة الصباح تأنقت بأبهي ما أملك من الثياب، تعطرت بأزكى عطر أملكه، انتظرت خروجها من وكرها على مضض، متلصصاً خلف حواجز الزمن، وكأنّ لي جولة أخرى مع القدر الذي بات يجري إرادتي... حينها شعرت

بأنّي سألتقي بأحلام أخرى، ولكن بصيغة وشخصية شيما،
تلك التي جنحت خلف المغريات.

ذاك ما جعلني أكسر طوق الجمود الذي تقيدت به في مسيرة
حياتي بشيء من الثقة بالنفس وبعقيدة مجردة تختلف عما كنت
ملتزما بها، جعلتني أنثني أمام رقة الجسد والأنوثة بقدر غرين
النعومة المكنون في ذلك الجسد. جعلتني أحسب الحياة بشيء
من الغلاظة والخيبة، صرت أسلك سلوكيات هجينة، متبعا
خط السعادة في دروب تعيسة، بت أمضي خلف الأهواء على
حسب تلك الأبعاد المنظورة في فكر الشخص، حيث الوحدة
اللعينة لا تؤدي إلا لتنشيط العقد والتوحد في شخصية الفرد.

إذا لابد من أن نعيش بشيء من النسيان والتغيير، بعيدا عن
المكابرة والمتاجرة كحال الحيوانات، من غير تفكير أو تأثر
ينقص من أعمارنا، لابد من تجاوز العقد والتمسك بلحظات
التفاؤل العابرة كالطيور المهاجرة.

ما هي سوى لحظات تأني؛ حتى بزغ قرص الشمس يسطع
في الأفق، هكذا لاح لي الصبح مع خطوات أقدامها، هكذا
لمحت خيالها يخترق الأجواء في داخلي، مثلما بان القها
يسطع في الطريق أختلج الضوء الأحداق بجفوة.

كنت قد خرجت من الدار مع لحظة ولوجها في الزقاق.
هجست بلفحة دفاء قد لامست ذاتي وهي تخطو خطواتها
بتؤدة وكياسة وتأتي، متجاوزة المطبات وتلك الساقية الوسطية

العطنة، سالكة دربها بمحاذاة جدار الحائط، متخذة من الممشى مسار لها..

خرجتُ قبل أن تدرك حدود بيتنا دون أن أعبأ بها، دون أن ألتفت خلفي، وكأني غير معني بها، ماشيا أمامها بخطوات ثابتة، لم أبالي بجبروت الماضي الذي أضحى يتبع أثري لتحديد مصيره. وأنا ماض في الطريق، كنت أشعر بوقع خطواتها وهي تتبع خطواتي بمسافة خمسين متر تقريبا، وكأنها تزحف في خطواتها نحو نجواها أو جدتها..

يا لمعاكسات القدر، كم تغير الحال وانعكست الحالة، هكذا انقلبت الأمور رأس على عقب بليلة وضحاها، بعد أن كنت أتبع رجاءها دون أن تصغي لي، صارت تتبطني دون اهتمام من قبلي.

كنت أمشي بشيء من التبختر، تختال ذاتي في وقع خطواتي، كمن يمسك بقرص الشمس رافعا راية النصر على من كانت تلوح بوجوم نصرها فيما سبق.... فلم أهتم بشخصها ذلك الاهتمام من واقع فكري ونظري، اختلفت المقاييس في داخلي، تبدلت نظرة التخاطر، صرت أشفق عليها بقدر انكسارها وهوانها.

فيما سبق لم أكن أعرف حقيقة دوافعها وسلوكها معي، كانت افكاري مثلبسة ولازلت كذلك في التباس أكبر مما حصل لي ولها في تلك الليلة، لذا كنت شبه ضائع في صحراء فلاتها.

مشيت بخطوات متأنية، لأوازن بين وقع قدمي وإيقاع سمفونية قدمها، أحاول الحفاظ على المسافة بيننا دون أن أخلّ بنسق اللحظة. كنت مضطربا في واقعي، رافقتني هموم جمّة، هواجس وأفكار ودلائل وتخبّطات اختلطت بوشائجي، شتت مخي. لا أعرف كيف أرتب ذاتي وأرفق وجاهتي أمام أنوثتها، عاجزاً عن ترتيب قيافتي أمام حضورها الطاعي.

بحكم المصير المحكوم، ولدت في داخلي دوامة من الأفكار بألوان مغتمة، ألقت بظلالها في حجري، تراكمت كأحجار الطريق، كأنها تعيق تقدمي دون أن تمنحني وضوحاً. كنت أبحث عن وصفٍ للحالة، لكن تشتت الذهن جعلني أتخبط بين عبثية الأفكار وسوداويتها، بين وهمٍ تراءى لي في الخيال، ثم تجسد أمامي كحقيقة صارخة.

لم أفق من صدمة شيماء وهي تتبعني، كأنها تسير نحو وهدة الانتحار، رغم أنني أعددت ذاتي للقائها، لكن شيئاً ما في المشهد كان قد يتجاوز قدرتي على استيعاب الحالة، كأن الزمن نفسه توقف على حافة الشك، ليتركني في مواجهة لم أكن مستعداً لها.

في كل خطوة كنت أحاكي ظني وعقلي، متمنيا واقعا غير الذي تكلمت به وتقمصته، غير البشاعة التي فضحتها. خلال مشيي كنت أجادل حظي وفكري، فأقول لنفسي البرينة....

- يا ليتها بقيت كما كانت، يا ليت العشاوة ظلت تحجب عني شكل التغير، لأحتفظ بصورتها الجميلة كما

رسمتها في حدقي، كما أحببتها بصدق لا تشوبه شائبة،
حبًا عذريًا خالصًا لا أطلب سوى القرب والرضا. على
مدى أشهر، كنت أترقب إشارة توافق منها، علامة
رضا تحمل لي يقينًا بأنني جزءًا من عالمها، لكن
الزمن مضى والتغيير فرض نفسه، تاركًا خلفه أثرًا
خشنا لا يمحي.

لا أعرف أن كانت تلك هي رغبة سيطرت على أفكاري، أم
فكرة تستر رغبتني وأهوائي، لكنني بقرارة نفسي كنت أشعر
بشيء من الزهو والرفعة إلى جانب معاناة اشتد وتيرها
بمشاعري. أهجس بأحشائي تضورت بوجوم النار العابثة بها،
فيما اختنقت أنفاسي بكمد من الحزن والآهات التي جثمت
على صدري. تلك الراحة المؤلمة؛ لم تكن سوى راحة آنية، لا
تمثل حقيقة مشاعري ولا مشاعرهما قط، تفجرت أمامي
كفسيفساء الألوان قذفتها شمس الحقيقة، أضحت الملامح
تعكس ما بداخلي، ربما لأنني عرفت سر رفضها ودرجة
انحرافها..

تلك المعلومة كانت نقطة تحول في شخصيتي، أعادت الثقة
لي، صرت أقيم ذاتي وأبجلها كدلالة على اني لم أكن أقل شأنًا
في قيافة شخصيتي عن الآخرين، ولست وضيعا وضعيفا كما
كان يجول ذلك في خاطري لرفضها لي. بمعرفتي سر
الرفض؛ تخلصت من رتم العقد التي لازمتني عبر تلك
الحقب، إذا عرف السبب بطل العجب.

في الحقيقة الأمر، تلك العقد التي تقيدت بها، كانت قد قيدتها أيضا، جعلتها أسيرة الخطوة، لا تستطيع أن تحرر ذاتها إلا بفعل قوة أكبر تستند عليها، فعل ما يأخذ بيدها وبزمam الأمور لبر الأمان، كي لا تهتز صورتها أمام المجتمع.

وأنا أخطو خطواتي كنت أشعر بالأرض تهتز تحت قدمي، الارتباك شاخص في خطواتي، كأنّ الحلم الذي تمكنت من الإمساك بأذنايه أضحى هباب وضباب، حلم مزيف لا يمد للمستقبل بصلة.. القبس الذي كنت أراه مشعا عن بعد، ما كان سوى فانوس يعق في شحن ذبالتة. الهالة التي أغوتني وأغرنتني وأضنتني بخيالها، لم تكن سوى وهج أثير مشبع بندى العذاب، ملظ بوهج من شرارة الحق.

اتجهت للمرأب، حيث كنت قد تركت عجلة الدائرة التي أستخدمها هناك لأضمنها من السرقة.. رغم أنني قد بلغت المرأب ولكني لم أبلغ الوجهة القادمة، ولا الهدف القادم المجهول بالنسبة لي. تركت ذلك لها لتحديد الوجهة.

يا ترى؛ إلى أين سنذهب؟ ... على ما أهوى أنا، أم على ما تهوى هي؟ وماذا سيكون جدول أعمالنا؟.. ذلك ما كنت أنتظره منها أن تضع النقاط على الحروف وعسى أن يتوافق اهوائها مع أهوائي التي حضرت دون عقل وفكر إلا من غريزة مغتازة بطبق جاهز. تمنيت أن لا يكون لها رأيي في الموضوع كي لا تفسد الفاكهة، كي لا تجرح انامل الغاية لما ذهبت له نفسي، حيث كنت أعددت خطة القنص كما تشتهي النفس وبذات الفكرة التي اطرقتها مع أحلام قبل ليلتين.

4- هبة أم شيماء

ركبتُ العجلة وارتقتُ إلى جانبي كرفيقة أو كزوجة وفي وجهها تخفي ابتسامة خجلة... ما أن جلست في مقعدها حتى رفعت الخمار عن وجهها لتزيدني حزنا ولوعة، لثُريني شعاع وجهها المغنح بابتسامة شفافة على وجه الصبح، بانث مشرقة الملامح كمصباح فضي، ناعسة الأهواء، جميلة الوضوء، وجد فيّ متنفسا لتتطلق من سجنها الذي وضعتها فيه كطير محبوس. لتطير في عالم الحرية بأجنحة السعادة من الشمع.. كنت أهجس بها مسلوحة الإرادة، مكسورة الخاطر، فهي لا ترتقي قمة منزلتي من وجهة نظرها، متألمة أن تبلغ نجوم السعد بالاستناد على قامتي.

تلك الفاتنة التي أسودت قائمتها في عالم العفة والشرف، تتمنى أن تمحي سخام الذل بتذلّلها إليّ، تود أن تستر صورتها بستار من وغف وورق حتى حين. تلك المتسلطة بجبروتها فتنتها أضحت مكسورة طي إرادي، سهلة المنال. تلك التي الكل يتأمل صحبتها؛ أضحت خاتما بأصبعي. تهجس بها حمامة حجلة بين صقور الجارحة، صار مرد أمرها معقود بمعصمي، بات قدرها مقرون بقدري، فلن تمر في المجاز الضيق المحصور بيننا مرور الكرام، لا في عالم الأحياء ولا الأموات إلا بختم ضميري. بل أضحت في عالمها القاضي والجلاد أتحكم بها، صرت المشرف العام لحركاتها ونواياها وقدرها واهوائها المستقبلي ولكل ما تبديه وتخفيه وتتألمه. غدث لا تقوى على محاوراة الزمن دون أن تشاورني، دون أن

تأتمر بقراري، كأنها وضعت شأنها وقدرها في سجن محكم ثم تركت مفاتيحه بيدي.

ارتقت العجلة دون أن تنبس بشفة، تركت أمر ملاحظتها على غارب الظن والضمير وشطط الأهواء والغريزة دون شرط وهي تنظر القادم المأمول بعين محيرة. علقت القرار بطرف مسمار من مساحة لساني، بثت اتحكم بها وبسجنها وبحريتها بفرض إرادتي.

كنت قد هيات ذاتي وقررت بتغيير سلوكي وجزل أفكارى على ما تترسب في ذهني من نتيجة بعد لقاء الخميس مع أحلام، فتركْتُ صيغة القرار تفرزه إرهاصات اللقاء وحسب قواعد الظرف الذي سيتحكم بنا.

في البداية تحسبت لموانع العقد كوني لم أكلّمها بصورة مباشرة منذ عشرة سنوات! عُقد ظرفها منعته من التوافق مع إرادتي، وعقد ظرفي تحللت لعناصر خاملة لا تنبض فيها حياة. فكرة جريئة ما قد تحيلها عني، وقد تحيي الجمود بيننا، حاجز وهمي مما حاكته مغازل المشاعر قائم بيننا، قد يحجب حجابها عن عيني المعصوبتين بالحزن والشجن. بثت أهاب من الحاجز النفسي وخاصة بعد أن كشفت نفسها لي كشيماء، وعرفتُها كفتاة لعب مغشية بحجاب هبة.. هكذا انحدر فكري لوهدة الخسة بعد أن اضطربت الحالة النفسية في داخلي. عندها بت أفكر أن أنتقم منها، كونها وضعت عواطفى تحت مداسها، كوني بجلتها وهي أذلّنتي. تمنيت أن أطوق جيدها

بطوق الياسمين، غير أنها انحدرت عن أصل منبتها لتحشر نفسها بزاوية مظلمة.

ما ان أرتقت العجلة حتى شعرت بانقباضات أرهقت نفسي وبتذبذب بنبضات القلب، حالت ما بيني وبين مآربي ومآريها. قرأتها شخصها كسطور من عذابات نفسية قيدتني في مهمتي، منعتني من أن انحدر لضفتها، من أن أتجاوز على حرمتها، تلك التي كنت أقدها وأأملها بصيغة الآلهة هبة. فقلت لها: ..

- أهلا يا
- هبة، أنا هبة ولست شيماء..
- أخيرا التقينا يا هبة دون إرادتنا، وليس على مزاجنا، تحكمت بنا الظروف فقادتنا إلى هذا اللقاء لنفض ما في دواخلنا للآخر.
- الآن خرج الأمر من بين يدي وأضحى مقيدا بين يديك فأنظر ما ترى سأكون رهن أشارتك.
- مع الأسف، ليس لنا محور حديث يجمعنا لنبدأ به وننتهي إليه، ما كنت أهى نفسي له منذ أمد؛ وأد بنصل ضعفك، أحترق بلهب جواك وضلالك، ما كان مخفيا عني؛ كان واضحا للعلن وللغير، لذا أنا محتار بصيغة التعبير وكيف أبدأ الحديث معك الحديث؟ من أين ابدأ وكيف أنتهي.....
- يا ترى؛ في البداية أين تودين أن نمضي؟... هل في فكرك مكانا ما يروق لك لنفض فيه؟

- لالا لا أنا رهن أشارتك، أمضي إلى حيث تشاء. حتى أنا لا أعرف أماكن خاصة.

لا أعرف أماكن خاصة، ترى هل يعقل ذلك؟... وأنا لا أعرف أماكن خاصة في ظل أجواء بغداد الملغمة بالرعب والمراقبة من قبل العناصر المجهولة وتحت سيف الاحتلال، سوى تلك التي كنت قد خططت لها يوم أمس، كنت قد هيات أجواء لقاء هادئة خاصة لهذه المناسبة ونتيجة لطبخت يوم أمس ما بيني وبين أحلام. لذا وحسب النتائج المطروحة: هيات لنفسي للقاء شيماء وليس للقاء هبة..

دعها تسمي نفسها ما تشاء، حيث هبة ماتت في نظري وذاكرتي بسيف شيماء منذ الخميس الماضي، لذا هي عندي شيماء وليست هبة، وعليّ التعامل معها كفتاة مومس، غريبة، أسمها شيماء.

أشعر بأني قد تمكنت من تنفيذ المخطط بإتقان لغاية في النفس الأمانة بالسوء، لغاية دفيئة كبنتها بداخلي بعد أن أفرجت عنها أحلام. العبارة وما فيها بعد تجربة أحلام انفتحت شهيتي على الطعام الدسم، على العنف الشهوي، على ممارسة الجنس وتقبل الموبقات والتخاطر بالغرائز مع أي فتاة تحذفها الصدفة في طريقي. بت لا أثق بالنساء، كل النسوة اجتمعن بشخصية شيماء، كلهن صررن في سلتها. في ظني صار قياس شيماء ينطبق على جميع الفتيات الأخريات بذات المنطق.

فانطلقت بها لمخزن الصيدلية في منطقة الأعظمية- وهذه الدار المعزولة تعتبر مخزن سري لأدوية الصيدلية التي أعمل بها- يحرسها في الليل حارس ليلي لغاية الساعة الثامنة صباحا، ثم يترك الحراسة حيث تكون في مأمن من العابثين، لتتحول عهدتها إلى الصيدلية التي اراجعها أنا أو عمر لغرض جلب الادوية منها. فاستغلّيت الفرصة كون مفاتيح الدار بمعيّتي... علما أنني تمكنت من أن أتصل بالمشفى لأستأذنهم بغيابي لأمر طارئ خاص، وفي تلك الايام كانت تكثر إجازات الطوارئ بين الموظفين دون حساب بسبب الفوضى الدائرة في البلد والخوف الطاعي والمشاكل التي تطرأ على حين غفلة نتيجة عبث جنود المحتل وسلوكيات المليشيات المنفلتة في ضوء تناحر الأحزاب والكتل على السلطة.

وأنا ماضٍ برغبتني وغايتي إلى حيث المتاهة، شعرت بذاتي محاصرة بين أمواج الغبطة وهي تفيض بأعماقي وسيل الحزن الذي ينبثق من صدري ويتكور في قسّات وجهي، حينها لا أدري أن كنت مبتهجا بوجودها معي أم جهما، بئسا ام فرحا، أناجي بؤس قدرتي الذي أنحدر إلى واقع ما كنت أتمناه لي ولها.. حيث النفس منقبضة والمسافة شسعت ما بيني وبينها، أضحت الصورة في أفق المستقبل غامضة، لا تروق لي ولا تروق لها، كنا نجري خلف مجهول بين منحنيات الزمن العويس والطرق الغير آمنة..

في الوقت ذاته شكرت صديقي عمر الذي أختصر لي المسافات وحبس نرف الزمن، حيث بفعلته كان قد أخرجني

من القمقم الذي دفنت ذاتي فيه، كنت مختنقا في اختفائي،
بدعوته تلك كان قد فك عقدة اللغز التي أرهقت فكري زمنا
وأنا أتبع خيط الحظ دون أن يدلني عن منفذ أخرج منه، دون
أن أجد له صورة حقيقة في مجرى الزمن لأتشبث به.

وأنا ماض في طريقي؛ شعرت كأني ربحت جائزة الحلم
الكبرى، في ذات الوقت هجست بأني خسرت تلك الجائزة
الثمينة إلى الأبد. الصورة مشوشة ومضطربة في الذهن، قدر
اجلالي لهبة، قدر اسفافي بشخصية شيماء. لذا كنت مرهقا
نفسيا بفعل تواجد هبة إلى جانبي، متنقلا بمحمل قدري بين
سفاهة وانحدار شيماء وعفة ورفعة هبة، متأرجح بين طيبة
الطبيّة وخسة الزانية، لا أعرف موزعا للاستقرار بينهما،
وكأني لا أود أن أترك الاثنين في ذات الوقت، صرت أعشق
الأثنين بجنون، أقدس هيبة وكيان هبة وأعشق دناءة شيماء
وعالمها الفاسق.

تحركت عجلة البيك أب، تاركة المناظر تهرب خلفنا
تلهث، مودعة، وهي تمضي عكس اتجاهنا، حينها انتابت
مشاعري الجياشة موجة حنين لسابق عهد هبة حين كنت
أتحايل إلى كسب رضاها، جاشت مشاعري بفيض من الحب
لمصب تلك اللحظات ولرقي الذات وفتنتها، حين كانت الدهشة
تتسلق بي سلم الأشواق لناصرية الفتن، حين تهادت في أفق
الأيام طيور النشوة والمحبة الصادقة، فهجست برعشة تركب
أوصالي، كأنها أعادتني عن غيبي لتقييم فتنتها وتبجيل قدرها
على ضوء قدر هبة..

ما أن تلاقت الأمواج على باب الظن؛ حتى تلاشت علامات
الأهواء والعناء والاغراءات والتمني.... الخ بفعل انكساراتها
في مستنقع شيماء، تلك التي كنت قد خططت للإيقاع بها،
بفعل الصرخة الجياشة التي تفجرت في أعماقي حين شممت
عطن قيحها. تلك التي جزلت عني الأمنيات وأحرقت الاحلام
قبل نهاية المطاف، ليبقى سواد دخانها ينفث من كوة الذاكرة
كشاهد عيان يذكرني بها.

الحيرة جزلت مآربي، جعلتني أتخبط في نيتي، فالمرفاً الذي
رفض استقبال مراكبي أمس، صار يهتم بها ويحتضنها برفق،
هذا المرفاً الذي أشعر به مليء بالكنوز من لآلئ ومرجان
وأحجار كريمة ومعادن مذهلة، أيضاً تجوبه الديدان والطحالب
والبكتيريا الضارة وكم من الحشرات الخبيثة. تلك صارت
رهن إشارتي بأسرارها وكنوزها الدفينة وعلليها...

ما كان يقلق ظني ويعيق سعبي هو أن تكمن خلف تلك الكنوز
والأسرار أسرار أخرى ماهية في ثنايا جلدها، أسرار تغشي
نظري وتمنع عني قطف ثمار الرغبة التي نضجت أكلها،
والتي أتوق حلاوتها وألهج بها.. نتيجة التناقضات المتفجرة في
الحدث بت أخاف من مساوات الشك أن تحيط بي، أن تضلل
دوافعي وغاياتي وتحرق أوراق سعبي الذي أبتغيه، فلا أنا
ماسك برأس الخيط ولا أنا عارف مخرجاً للمتاهة التي
أضلتني..

سألتها ونحن ماضون في الطريق للدار المعنية عن مدى
معرفتها بالدكتور فؤاد، أهى علاقة قديمة أم حديثة؟

قالت وخيط الحزن قد شف فاهها، كأنه قد جف على ثغرها
لشدة وهج السؤال، تلالأت في عينيها دمعة، كانت قد وقبت
عن شرارة لفحت مشاعرهما، أحدثت فتنة بين الآه والندم
فشظت كنار بين الغمضة والحدج، عندها شهقت وفي أنفاسها
لنعة ألم وغنج مرهف عقر فتنتها، فتأتأت بصمت ذاو كهمس
مضي يسري بين الخجل والحرج.

- هذه المرة الثانية التقيه، عرفتني عليه أحلام قبل شهر
فقط.

شعرت بحنق تجاه ذلك الوغد الموارب، كأنه قد تعدى على
حرمة جوهرة تخصني أنا. لم أستطع استيعاب الحالة التي
مررت بها، لم أستطع أن أحدد حدود الغاية في عالم هبه
لاختلاف الدوافع.. لقد وضعتني تحت بند المطرقة والسندان،
في دوامة الصور الغامضة، خيال يختلج بعصف الشك
ومرارة الاشتياق، أقحم ذاتي في صرة الصراعات بين القيم
والعرف والواقع البائس، بحيث صرت لا أعرف لمن أكيل
التهم، هل أكيلها لذاتي أم لذاتها؟؟ أم للقدر والزمن المرير؟
وأنا أبحث عن ظل أحتمي به بين خطوط الرجاء، فلم أجد
سوى سراب أفكار تأويني.

وأنا في غيبي وانشغال فكري بها وبما سيجري؛ كانت قد
أغشتني بعطرها التي ضمخت به جسدها، ذلك العطر الفواح
من عطر العود الذي تعشقه النساء، كأنه حرك عقرب النفس
الأمارة بالسوء عن موضعه، حركت النية الخبيثة عن سكونها

وخوائها، لتلتقي بعصف ذلك العطر المغنج بالجازبية فوق
مرافئ الفتن.

قبل أن نجتاز جسر الأئمة باتجاه الأعظمية أوقفنا سيطرة
الجسر المكونة من عجلتين نوع همر، تابعة لجيش المارينز
الأمريكي.... رمقنا الجندي بنظرة شك شزرة، حين وجد امرأة
محجة بخمارها تجلس بجانبه، كأن الخوف قد طغى على
فؤاده لحالات الانتحار التي هزت أركانهم. فسألني...

- Who Is she?

- She is my wife

بات يراجع ذاته للحظات ثم أعاد لنا هوياتنا وسمح لنا
بالعبور، كان خوفي من أن يمنعنا من العبور ويطمع بفتن
هبة، لكنه كان خائف من لعنة الموت التي لا يدري كيف
يتجنبها، في الوقت الذي به كانت هبة تغطي وجهها
بخمارها..

في قرارة نفسي كنت أتمنى نسفه في موقعه، لكنه هو من
يمتلك السلاح والقوة، هو من يستطيع نسفنا بآلته الفتاكة نتيجة
جنبه.... بعد أن عبرنا السيطرة قالت والحسرة تعصر فؤادها..

- فكرة لطيفة؛ my wife.... كيف خطرت على بالك؟

رمقتها بنظرة ملئها حسرة وألم، هجست بالغضب صار ينفث
شرره من عيني..

- ما في اليد من حيلة، تلك كانت أمنية أترجاها منذ أمد، فبت أنسلى بها بفكري والعج بها بلساني.

حينها ساد جو من الصمت والسكوت بيننا حتى أدركنا حدود الدار المزعومة. أدخلت العجلة في المرأب الخاص. كنا قد وصلنا بعد مغادرة الحرس بساعة زمن تقريبا.

دخلنا إلى مخزن الأدوية، حيث يحتوي البيت على غرفتي خزن محكمة الأبواب، فيما توجد غرفة ماستر 4×3 في الطابق العلوي. تعتلي سقفها مصابيح من الفلورانس، كما يزينها شباك بعرض مترين يطل على شارع خلفي تنسدل منه ستائر مخملية بيضاء، وفي رواقها مطروحة طاولة وكرسيين من البلاستيك الأبيض، وسرير مدثر بفرشة من الإسفنج العادي، كما يوجد في الغرفة كومبيوتر لجرد الأدوية والحسابات وثلاجة صغيرة.

هذه الغرفة الخاصة، لا يدخلها الحرس إطلاقا. كنت قد عبأت الثلاجة عنبا وزجاجتا ماء، ومجموعة قوارير بيرة كنت قد جهزتها من يوم أمس مع كيس من اللوز، وذلك بعد أن عرفت من عمر مصادر بيع البيرة، لما لها من تأثير سحري تشذب النفس من الخوف والخل، أملا أن أتبع أهوائي وأكرر ذاتي في فئنة شيماء بعد أن أرققتها وأغرقتها بفئنة أحلام.

عادة الصيدلية تفتح أبوابها بعد الثانية ظهرا وحتى السادسة مساء لحساسية الموقف في الشارع، وتجنبنا للحالة الظرفية التي لا تسر من عبث المارقين بالأمن، لذا كأن الوقت وقت

فتوح ومجدول بالعبث واللعب، لذا كنت مطمئنا من أنه لا أحد
يطرق أبواب الدائر قبل الثانية ظهرا.

5- الكأس الأخير

بمجرد أن دخلنا غرفة الماستر؛ خلعت عباؤها وحجابها، فبان جسدها الخمرى يتلألأ بالسحر تحت أضواء المصابيح المشعة وغلالتها السوداء فبانَت مفاتنها أشبه بالجواهر المنثورة تحت ضوء الزجاج المنعكس، كأنَّ المصابيح استهوت جسدها فأغشيت بالنور من ثراء ذلك الجسد المشع بالبهاء. لم تكن ترتدي سوى البكيني وحاضنة ثدي وغلالة من مخمل شفاف تغشيها، تشف ما تحتها من بريق وبهجة وخواء ونية، تغطي من الجسد ما فوق الساقين المشعين كقناديل بهجة.

بفعلها ذلك، كأنها كسرت أغلال القيود، وطرقت ناقوس الصلاة بمطرقة الهوى، أضحى الرنين يتردد في أروقة القلب والذهن، أيقظت الهواجس النائمة، أودعت المشاعر تدور في فلك الغريزة بالنية والشبق، بين الغاية والانقياد. كان جنون الصخب المدوي في داخلي يدفعني نحو التيمم بثرى ذلك الجسد، قبل أن يضمحل فجر العبادة، فتغدو صلاتي نافلة، عندها لا تُقبل توسلاتي وتأوهاتِي، فتزيحني عن الجنة بذات المسافة المزلزلة...

كأنها بفتنتها اعتدت على هشاشة ضعفي، مرّقت أسمال الخجل، جعلتني أندفع نحو صخب المشاعر بعاطفةٍ جياشة. كأنها كسرت مرآة صبري، شاغلت عواطفِي، أراحَت عني غبار الشك والريبة، جعلتني أقرع جدران الصمت والغفلة. بفعلتها، كأنها أعلنت عن ساعة الصفر، وعن بدأ لحظة التحدي والمنازلة في ميدان الهوى. ارتقت مرحلة العمل الفعلي لترتقي

حدود الغاية التي كنت أتأملها. بذلك السيل الجارف من الحب الذي كنيته لها؛ طالبتني أن أكون على قدر الرجولة والتحدي.

ابتدأت من حيث ما نوت أن تبتدئ المنازلة، من حيث أن رمت عباءتها على أرضية الغرفة، أضحى العصف يشتد في داخلي، يزلزل كياني، يكشف عن وجه النوايا الخبيثة تحت أضواء الشبق، صارت الأمور تنفلت من قبضة يدي دون إرادة، تصيب الجبين بالعرق، ارتعشت أوصالي وكأنه أصابتنى نسمة برد فجائية.

بخلعها الحجاب كأنها اطلقت إشارة بدأ العد التنازلي لواقع النزال، أعلنت عن ابتداء الجولة الأولى من النزال تحت أضواء الصمت الخافتة. يا ترى إلى أين سيمضي بنا القدر؟

فقلت لها:.....

- أه! يا هبة!..... ما أجملك؟... ما هذا السحر الذي يرتدك، من أين لك كل هذه الفتن؟ أنت أشبه بحواري الجنة التي وعد الله بها المؤمنين.. يا ترى! هل فعلاً أنا من المؤمنين الصابرين الذين تيمموا بالصبر لأحظى بك؟ وهل أنت من الملاك أم من الجن؟ أم حواء ولدت من جديد فهربت من جنة الله لاجئة لجنتي، لتلتقي بي على ضفاف وجعي وأحزاني خلف حاجز الألم؟؟ هل شعرت بهوسي بك يوماً ما كما كنت أشعر بالوجع حين تصدين عني وأنا في قمة الوله والحسرة والغرام.. هل طاف الهوى بنهى العقل وخفايا الظن

مثلما فعل بي؟.... هل احسستِ بوجعي ؟ هل؟. هل؟. أم
تعشق ذلك الوله بسنارة الحظ دون دافع وإرادة،
فرماك القدر بوكر أحلامي كحجر، فهشم مرأة الصبر
ثم رسمك جنية بريشة القدر؟

ههههه. أيه يا دنيا كم أنت عجيبة ولينة، كأنك لستِ
سوى ملعب صور نتبادل به الادوار دون إرادة..

أهجس بالنتيجة واحدة؛ طالما التقى الحظ بالقدر وهفا
بيّ الشوق بسحر أطلال الهوى، غطى بوشاح الود
حدود الصبر والنوى، جعلني أحرُسُ وأنا التمس
أحاسيسك بحس عبثي طفق يتراقص فوق قلبي الذي
أنكوى...

أين كنتِ قبل أن أفكر فيك؟ أيُّ سرٍّ أغواكِ لتنفضي
غبار الغياب حتى تلتقي بي؟ من أيِّ متاهة خرجتِ،
وكيف تسالتِ إلى عالمي المتمرد؟ أكان القدرُ أعمى
حين رماك بين يديّ، أم أن الشوق ابتلاكِ فاندفعتِ
بنجواك نحوي؟ أم أن شيطانَ الدهشة وسوسَ لكِ،
فغواكِ بي، ومن ثم بكِ أغواني؟ أم أن نجوى القلبِ
ساقطكِ إلى هذيان العشق، فاستسلمتِ لسطوة رجولتي؟
أم أن الهوانَ قاد خطاكِ لهوة جنوني، أم الزهدُ المقنّع
دعاني؟ أم أن الأنا السحيقة تبعثُ ظلكِ، فتوغلتِ فيكِ
بلا رجوع؟

لا ... لا يهم.. الأمر سيان، تدرج الحظ والتقى بالخط
على سفح القدر، لا أدري إن كنا سنسقط في هوة
الوادي أم سنرتقي قمة السلام حيث القدر؟

- آه...آه يا صلاح.... لا تفكر بما مضى، دعنا نعيش حاضرننا ونخطط للقادم من المستقبل معاً، دعنا من الحزن الذي كل الفؤاد والعقل. عندما أصل لهذه المرحلة المعقدة من التفكير تقف الحياة على باب الصمت والجنون، فلا أستطيع تخطي عتبة اليأس أبداً، فأهجس بأوراق العمر تتساقط دون هوادة. الخسارة والضياح والنتيه ملفات تتراكم على سطح فكري وجسدي، لذا لا أريد أن أقف في تلك البقعة واتصفح أوراق الجرائد البالية.

- المستقبل!!!! أنت على حق، ماذا نجني من الماضي غير الألم! فتنتك هي محور الحدث يا هبة، رغم أنك دعست على المستقبل بقسوة؛ أجذك تفكرين بالمستقبل الذي لا أعرف شكله ولا رأيت صورة له. المستقبل بالنسبة لي الاحتفاظ بك من العبث، أنتِ جوهرة حقيقية أود الاحتفاظ بك من عين الدبابير، أنا أناني بطبعي، وأحب النوع النادر من الجواهر، ونوعك نادرٌ جداً، كالماس والياقوت أو التوباكو، ولكن.....

توقفت قليلاً وأنا أنظر لها وإذ بدمعة تحجرت في مآقيها، وكأنني أشعلت فتيل العتب فشعرت بمشاعري تجلدها بسوط الندم، هجست بها دون أن تهمس بشيء كانت قد قرأت مشاعري وأخرست، عرفتُ أن تستنبط طوية معاناتي، لكنها طأطأة رأسها.... ثم أردفتُ قائلاً:.....

- حيرة صماء تحيط قلبي، بالله أخبريني سر هذا اللغز؛
لِمَ هذا الانحراف يا هبة؟..

لم هذا التجني بالقامة المجللة؟...

ألم يكن من الأجدر أن تتزوجي برجل يقدرك وبشرف
يجلك؟ أود الإجابة على هذا السؤال الذي يغيظني،
يمتعضني، يحرق أعصابي، لأنه كان كل حلمي في
الحياة أن تكوني زوجة لي. تلك هي قمة أمنيائي
وتأملاتي. أرجوك... أود أن أطفئ النار المستعرة في
الفؤاد، لأنني أشعر قد أضعت مفتاح السعد منذ أن
تعرفت بشيما.

- هل عرفت لِمَ رفضتك إذا؟...

غيرك وغيرك؛ أناس محترمون كنت قد رفضتهم قبلك
بوظائف مرموقة ومراتب عليا! حتى أنني كنت أهرب
من مواجهة المعارف والأصدقاء، وذلك ما حصل مع
مريم التي هي أعز صديقاتي.... هل أدركت من
أوصلني لحالي المقرف هذا؟.

- أكيد لا.. هذا شأنك، وهل هناك من أغراك، أو أجبرك
على فعل ابشر؟

- نعم!.... أنه أبي!

- لالا لالا لالا لالا مستحيل!!!! ماذا؟... مستحيل!!!!..
كيف؟ اشرح لي ذلك....

كنت قد انتفضت على وقع الخبر الذي لا يدخل مجال العقل،
أجبتها بشيء من العجب والاستغراب، الغضب تقمص ملامح

وجهي، لأنني على إطلاع بورع والدها وعلى اتصال به، كيف به يتجنى على أبنته. فصرت مهتم بتتبع حقيقة الحدث.

- هو الذي أوصلني لهذه الحالة المهينة، بتزمتة وتشدده المبالغ به، والقائم على مبدأ الخوف من المجهول، حرمني من كل متعة في الحياة، منع عني أبسط الأشياء التي يستخدمها عامة الناس، كالتلفاز، والهاتف المحمول، والنترنت...

كل شيء حرام في نظره، أجبرني على أن أبحث عن تلك الأشياء في عيون الناس، أذهب لبيوتات صديقاتي علني أستمتع في مشاهدة مسلسل أو فلم ما في بيوتاتهن، أو أحضر حفلة ما تنسيني كآبة البيت والوحدة وخاصة هو مشغول في أمور الدين أكثر من اهتمامه بي وبمتطلباتي الحياتية كفتاة. ومع الأسف في وقتها كانت أُمي مريضة وكبيرة السن، لم يبق لي وليف معي يعضدني ويسليني، منعني من الخروج وزيارة صديقاتي، على الرغم من أنه كان على حق في كثير من الأمور، ولكن طفلة مراهقة لازلت في أول مشوارها لم تكتشف الحياة بعد، تحب الفرفشة، يجب أن تعامل بحنية.

كنت بين الحين والحين أغافله أمام الفرص السانحة أمامي فأخرج من البيت دون أدنه ودون أن يعلم.. في الحقيقة صديقاتي هنَّ عدواتي الحقيقيات، ولم أكتشف ذلك إلا بعد فوات الأوان، حيث الغيرة كتمت على أنفاسهنَّ، لا أبرأهنَّ أبداً، تعاملنَّ معي بخسة ونذالة،

هذه هي المصيبة، هذه هي ضريبة جمالي، ليتني كنت
قبيحة الشكل مثلهن...

أحدهنّ أهدتني هاتفها القديم قبل أن يكون لي دخل
أتصرف به، أحسستني بصغر حجمي حين غطت
حاجتي برأفتها، وبذلك الشفقة التي أغدقتها عليّ بشيء
من العبودية.....

- هذا ليس مبرر للانحراف يا هبة.
- نعم.. ولكن أبي هو الذي ساقني إلى الرزيلة، حملني
على الرذيلة دون قصد منه، كبل أحلامي وهواجسي
وثقافتني بقيد افكاره، لم يسمح لي باختيار من أهوى، لم
يفسح لي المجال من أن أتنفس هواءً نقياً فيه من
البراءة والثقة ما يرخي المشاعر ويلين الرغبة النفسية
والجسدية.. وخاصة كنت في ظل عوز وحاجة
ووحدة.

كانت تتكلم وهي واضعة الساق على الساق، بحيث يشع ضوء
الجسد من تحت الغلالة المخملية فيزيدها فتنة، ليزيح ظلمة
الحالة الدائرة في هواجسنا، أهجس تحت الغلالة قمر يتهاذى
تحت وشاح السحب، يخترق دهمة النفس. بفتنتها كانت قد
أثبتت الرغبة في داخلي على خوض غمار تجربة أحلام للمرة
الثانية، حركت النزعة والشبق بشوق لاعج نحو تلك الثنايا
المتألّفة بالفتنة.

ما فتئتُ شعرتُ بالرغبة قد تيقظت في أعماقي، باتت تختن
غواها تحت وشاح غلالة النوم، أضحت تتحرك في داخلي

كحشرة مجنة، كشرارة نار تخترق حاجز الصبر، تتبع لغز المفاتن الساحرة.. تَرَكُنْ هنا للحظة، لتغتر بفنتة هناك، باتت هواجسي تزحف على الجسد بصمتٍ، بهوس، بجنون. تتحرك على المراتب بهدوء، تنزلق إلى منابت الشهوة والجاذبية المبتوثة فوق الجسد والتي أستهويها تحت تلك الأضواء الخافتة، غدت عيني تزاور الأماكن الغضة، المليئة بالرقّة والنعومة، تهجس بالجسد المطروح أشبه بقفص يحتوي على مجموعة مصابيح مضيئة تود أن تنفذ من مآرب الرغبة. تسترق نغمة الشهوة من تلك اللدانة والنعومة الجاثية عليها.

أصبحت رجلا ممراجا تثيرني المباهج، كطير خار في العصف المثار بالجاذبية من لدانة النهدين وثأدة الفخذين، وهو يرعش تحت نبضات الشبق. فيما في محيط الصرة يثار غبارٌ نيوني من بريق صرتها تحت الغلالة... زاغت عينيّ وهيّ تلوك النظر في تنقلاتها بين منابع الشهوة؛ حتى أطبقت يدي على منابت الجسد المدهنة بالجاذبية، ناهيك عن مفاتن الوجه التي تتلاطم بها أمواج الفتن بين العينين والوجنتين والشفة الكرزية.

كما كان للخجل القابع في محيط الجفن لمسة القوافي في القصيدة، تصدح بصوت الحياء المثار من أعماقها، تزيد الوجنتين توردا وأنيئا وحيوية. كانت للنسائم العطرة المشاحة من البشاشة القاطنة في الشفتين دلائل شهوة مخفية، تزيد الفم سحرا والقاء، لتلتقي تلك المباهج بالعصف المثار من قوام أنفها الذي يشمخ كجبل في صحراء وجهها... رغم ضيز القدر،

رغم انكسار النفس وأنين الشقاء؛ بقي ذلك السحر يطبق على ثنابات الفتن بذات الالق، يطوق جيدها بطراوة الشهد، يثير في النفس استهجان وجنون.

يكاد الإغراء لا ينفك عن ثنابها، كأنه نبع صاف يتدفق من ثنابا الجسد. لمحت حاضنة الثدي تضغط برقة على شحوم الثديين، فتجلبها إلى أكليل ورد تفوح منها أنوثة عطرة، أهجس بهما شعلتين توقدان ذبالة الشوق والرغبة في نفس كل من ينظر إليهما بشبق. تلك الكررتين المنتبذتين ككرة التنس جعلاني أتمسك بغيي في أمداء النظر لأعماق الفتنة في محيطهما، عازم أن أقطف زهرة الأقحوان بهيامي وأشواق.

بمفاتنتها أثارَت فضولي لأتبع الجاذبية المراقبة كالزبد فوق البشرة، زادتني لوعة واشتياقا وجنونا لمداعبتها.. خاصة حين كان النهدي يرق مع لهفة التنهدات التي تطلقها، مع العطفة المراقبة في شهقاتها وهي تتحدث عن غل مأساتها، مع اشتداد واختلاج أنفاسها بين الشهيق والزفير.

وأنا جالس بجانبها أشعر بعصا الجاذبية تعمل كسنارة الصيد، تكبلت بصيد رغباتي، تلقفت رصف الفؤاد وزيف العين قبل أن تثير هواجس الفكر المضطربة في مكنها، قبل أن تسبق الروح إلى وهدة الإسفاف والزنا. كانت قد نثرت غبر الشوق على جدار الفؤاد وصرة البال، استهوت الأطياف في حق العين.

في الوقت الذي غشيَّ العقلُ بمفردات تعابيرها وكلامها- وهو بمثابة حقيقة مؤلمة لما جار عليها أبوها المسكين دون قصد منه، والذي كبلها بواقع فكره الديني المتزمت؛ كانت عيناها تلتهم بشراهة ثنايا الفتن في الجسد، تسرحان فوق سهوله وتلاله، حيث للوجه نضارة مفعمة بالسحر والراحة؛ مثلما للجسد قدسية من ذلك السحر والاغتنام.

صرت أمعن النظر في مرافقها المبهجة، مبهورا بما فيها من رقة ونضارة وملاحة غمرت الروح سعادة لا توصف، دارت عيني بعينيها اللائذة في مباهج رجولتي، أضحت تسافح ذلك الشوق الدائر بيننا، تبحر بتؤدة في شوقي وعبقي دون إرادة... مع مرور الوقت وارتفاع دخان العطب في الفؤاد؛ غدت الروح تشهق خلف الفتن، تتبع رشاقة القد ومرتع النبض بحيوية، صارت تلتاع من ملمس البشرة، وتكور الفخذين، ولجت بالنفس غاية تدور بين حواضن الفتن، متألمة تتويع رغباتها بطوق تلك المباهج.

هجست بها تهامس عينيَّ في صمت ورهف وهي تمضي خلف تلك المفاتن، صارت تبحر بنية الفجور، لتتخطي أسوار جسدها الملائكي بسعادة مرجوة، ولتطفئ النار التي اضرمت بداخلي...

يا ترى؛ بأي صبر أشف الروح وهي تجري في سكرة من أمرها متخذة من مدار السحر طريقا لها، محاطة بالملذات والجواهر. لن أستطيع تخطي عجزى ولا أن أغض الطرف

عن حسن تيمثُ به، وبلعجة جنون همثُ بها، ناهيك عن تلك التي صارت تتفجر في داخلي من عبوات الرغبة دون إقرار.

وهي تتكلم عن مأساتها بحرقه، كان قد تراخى جسدي تماما أمام عصف أنوثتها، أضحيتُ كالمسطول متسكع بين أصغائي لها وهيامي بمفانتها، ترتعش يداي وهي تنجذب لسحر حلماها الوردية... ما أن لامست ذوائبها بأناملي حتى انتبرت في مكنها، تهيأت للمداعبة، أتقد فتيلها تحت رعدة الشهوة، التهبّت صابنتها، تهيّجت لهفتها بحرارة الجسد، كأنها استشعرت بكهربة عواطفي فارتقت لمعانقتها... برحتُ الأنامل تعبث برقّة النهد بفيض عاطفتي، برحتُ تنزف عذوبة من تنهدات صدرها.. ما أن تخطت يدي حاجز الصمت حتى تمادت الأخرى بغيها، لتتحدّر لقمة الرغبة، لوهدة الجنون، للهيّان واللاعودة، لتصطلي بلهب أستها وسعير افخاذها.

لم أستطع مقاومة نهج تيار الأنوثة المتدفق من حناياها بتلك الإباحية، صارت تشرشر رغباتي فوق فسيفساء المفاتن. وأنا أنصت لها بود برحت أسمع هدير نبضات القلب وهو يجهد في حيثياته بحنو وعاطفة. فيما صارت شفاهي تمتص رحيق رغباتها من الشفاه والخد، بت أقبل الوجنات والرقبة، حتى طفح لون الوجد في كل موضع لامسته، صار كالوشم يغز مفانتها.

مضت شرارة الحب تسري بنزق في أعضاء الجسد، الذي بات يتلوى ويتأوه بالرقّة والجاذبية، أضحت تأن نأىّ اليمامة من النار التي استباحّت ثناياها، حينها قالت...

- دعنا نحتسي قليلا من سم الجعة؛ حتى تتحلل أجسادنا؛
حتى تحيلها لجمر فوق بساط الشهوة..

حينها طفقت تداعبُ مكامن الشهوة بطيب حديثها وبرقة
أناملها....

- وهو كذلك يا حبيبتي - أقولها بصدق؛ فعلا أنت
حبيبتي، لقد أحببتك من أعماق قلبي يا هبة، فما بالك
لو قلت لك أنت أول حب حقيقي في حياتي...
- معقولة؟

رشفنتني بابتسامة شفافة غير مصدقة، كأنها قالت لي لا تكذب.

- ثقي بالله هذه هي الحقيقة، فأنا لم أمر بتجربة حب
حقيقية، كل النساء اللاتي مررن على خريطة حياتي
كن نساء فقط، لم يطرقن باب الفؤاد ولا الفؤاد تمكن أن
يتجاوز الحواجز ويسلبن العاطفة. كنتُ أهجس
بالضياح مع مشاغل الحياة وخنقة الحصار، فلم اهتم
بحقيقة عواطفني التي ظلمتها كثيرا إلا متأخرا..

قلت لها ذلك ولم أرفع عينا عن رياض وجهها وخمائل
جسدها، عبثا حاولت أن اثني رغباتي الجامحة عن سحر
مفاتها، جُنية دون أسيجة واسوار تتنوع بالأزهار.. أهجس
بالأنفاس تواقّة لشم عبير تلك الزهور المبعثرة على سفح ذلك
الجسد، قلت لها وفي نفسي أن أقضم شفثيها:...

- كل شيء فيك جميل، وكأنك تُعبرين عن الجمال بقتل روحك الزكية، البريئة، تلك التي تأملتها طاهرة نقية.. بالله يا هبة؛ أطفئي نار الشك في داخلي وصارحيني، قل لي الحقيقة كما هي، ما الدافع الذي أوصلك لحالة الفحش؟

- لا تبغضني، الحسام الذي ذبح عواطفك الصادقة كان قد ذبحني، جعلني أختبط في سواد يومي، فلم أرى نوراً ينتشلي من المأزق منذ لحظة انزلاقي دون إرادتي... لذلك لا أريد منك حبا، ولن أسمح لك بأن تغرق في محبتي.. لأنني لن أستطع أن أكون لك قدرا تفتخر به، ستبقى شيماء في ذاكرتك لابدء، ستبقى عقدة شاخصة لن تستطيع تجاوزها.. لذا أريدك بلسما لجراحاتي، زلالا أطفئ به جمر فؤادي، أريدك ورقة بيضاء أدون عليها ذكرياتي، أريدك كفن دائم لروحي العاجزة.... سميه ما شئت، فانا لا أود للجروح أن تتقد بأحضانك منذ اللقاء الأول بيننا.

قدمت لي كأسا من النبيذ، بتنا نرتشف بهدوء، فيما صارت الشفاه تلوك بالشفاه، اليد ترتع بثنايا الجسد، كأنها تبحث عن مفاتيح السعادة لأبواب رغباتي المغلقة.
ثم أكملت حديثها بشجن.....

- هؤلاء الناس؛ يسرقون الومضة من العيون، يجعلونها عمياء لا تغادر أثر الأقدام القريبة، يحرثون الأرض لا لزرعتها، أنما لتسجيل أسمائهم عليها فقط، ليمسحوا

عن تراها معالم الزينة والجمال، كي تبقى أرض بور
لا تلفت أنظار الناس.. منذ فترة تحول هذا الجسد
(تؤشر على جسدها) لأرض بور، لا ينبت فيه زرع
ولا شجر، فلا تدفن أحلامك الجميلة في فلاة تربة
قذرة.

أخذت ترتشف الخمرة من الزجاجاة مباشرة، فيما أنا نسيت
طعم الخمر المقرف، فألفيت ذاتي تتبع خطاها، فارتشفت
الخمرة كما باتت تكرر عها، ثم مالت على جسدي وقبلتني قبلة
طويلة من رقبتي، أحسست بحرارة أنفاسها تتدفق في
أوصالي، ايقظت الشهوة من رقادها.

أستمرت في زقزقتها وأنا أنصت لها بتأن واهتمام.

- أريدك أن تشتاقي، تتمناني، تشتهي هذا الجسد
الرخامي، أن تسرق منه حاجتك.. أنه زلال، أصفى
والذ من الشهد، وأشهى من كل ضروب الغزل... لا
تخجل؛ ستكون أوصالي كريمة معك، رغم اني
انجرفت لأحضان قيم مريضة، فاسدة، ولكن أرجوك
لا تتركني، وأرجوك أن تفهم غايتي، فأنا لست عاهرة،
وأن كنت في قناعة نفسي أحسب ذاتي من العاهرات،
مومسة، قذرة، أحتقر نفسي.. صدقني أحيانا أجلس في
غرفتي أبكي بحرارة، حتى تبتل ملابسي بالدموع-
فالقدر اللئيم الذي أحتقره؛ كان قد نحر عفتي بسيفه، لم
أستطع أن أنجي ذاتي من غل خنجر الغدر.

تملكها صمت عميق وهي تنفّرس في وجهي كذئب يود أن يفترس حملاً، شاقها بركان غضب من ما أصابها، ودت أن تصب شهواتها في جسدي.. أضحت تلمس ما أستباح شعوري من أثر بما تقيئت به إلى جانب جولات يديّ وشفاهي في مفاتن جسدها.. حينها جنحت فوق جسدها كمسافر تائه بين كنوز التحف، متجولاً بين منابع الشهوة، وبين الحسرة المرة وطهارتها، تتحكم بالأهواء والوجدان والغريزة بشيء من التخطب.

أضحت لينة القوام، كأنها تود أن تكافئ محبتي وترضي عواطفني بجائزتها. صارت تغوص بالأسباب، تشرح لي الغموض الذي لف فكري، صارت تنشر آثامها على حبل غسيلي، عسى أن أفهم وجهة نظرها، عسى أن أكون لها عضداً ورفيقاً وجدار صد تتكأ عليه في أوقات الشدة.

أضحيت أفكر بطيف جنونها والملابس التي جرجرتها إلى واقع الحضيض، في ذات الوقت كانت قد نضجت الشهوة، غدت تتلأأ في شجرة الرغبة كفاكهة ناضجة. حينها أطلقت يدي وأطلقت حريتي، لا أستطيع أن أبقى ساكناً أمام عصف فتنتها، لن أتمكن من كبح جماح النفس عن اللذة.

شيئاً فشيئاً صارت تبرم صفائر الشغف بسنارة مفاتنها وحلاوة جسدها، بسحر قبلايتها وحضنها. فيما الخمرة سرقت من الجسد توازنه، امتزجت شتات الفكر مع الخيال المترقرق فوق منقلة الذهب. كان قد تهاوى الصمت بيننا كرماد سيجارة في

نفاضة الجسد، على حين غفلة انفجرت بالونة الضحك، تعالت
الفرقة، اشتد الوله على كرز الشفاه حين قلت لها...

- يا هبة؛ من أين تشتري فاكهتك؟
- أكيد من البقال.. ههههههه.

أضحى اليقين يزحزح ضلال الشك، صرت أرتشف الجعة
وأمزمز بحلاوة الخد والشفاه. استعرت أوصالي شوقا ولهفة
تحت واطئة لاجع الهوى..

ما أن أفرغت قارورتها الثانية حتى انهمرت دموعها الدافئة
على ناصع الخد كوابل المطر، غدت تنطق بلسان مر يمضغ
الحقيقة الجافة المخلة باليقين المر، تسحن بأسنانها ذلك الغل
الذي داهمها على حين غفلة، نتيجة الحسد والغيرة من بعض
من اعتبرتهن مقربات ضمن قوس الصداقة، بعد أن غرتها
أحدى زميلاتهن بجلسة سمر في حفلة تعارف..

..أكملت حديثها قائلة:...

- وددت أن أهجر البؤس المفروض عليّ من قبل أبي،
حينها شعرت بروحي تنطلق من قفصها كبلبل كئيب،
ليصاح في فضاء الحرية. صدحه هذا جعل الباز
اللعين ينتبه إلى وجوده، لينطلق خلفه حتى تمكن من
قنصه على حين غفلة من أمره.... تلك الجلسة زخت
عليّ تعاسة سوداء، جردتني من عفتي بعد أن جررتني
لواقع الرذيلة.... كان قد هيئ لي فخٌّ قذرٌ من قبل من
اعتبرتها صديقة لي وزميلة.. ربما الغيرة دفعتها

لنتنقم من حسني وجمالي، ربما المادة دفعتها لتمثل بي، ربما كرها وبغضا لي دون أن أعلم، لا علم لي بنيتها - النساء حين تغار تحقد بغل، وقد تصل بحنقها إلى درجة الأجرام، مثلما حصل معي، لقد انتقمتم مني من كنت أحسبها صديقتي، فقط لأنني أجمل منها..

- كيف انتقمتم منكم يا هبة؟

- تركتني وحيدة في غرفة صغيرة أشاهد مسلسلا كنت قد تتبعت بعض حلقاتها سابقا، ليدخل عليّ شابين غربيين، تناوبا على اغتصابي عنوة.. كم توسلت بهما، صرخت، قاومت، لقد عانيت كثيرا دون أن أجد من يسعفني، نفذوا جريمتهم على البساط الذي كنت أجلس عليه...

لم أكن أعلم بأنني قد دخلت بيت دعارة، إلا بعد أن انكسرت جرّتي وتبدى ماء الشرف.... لم أكن أعلم بأن تحت الجلد الناصع تكمن عقربة سوداء سامة.. لا أعلم كم قبضت أجرا على فعلتها الحقيرة من هؤلاء البغاة، ومن يومها أجبرت على ممارسة البغاء بعد أن هددوني بكشف أمري لوالدي، ربما صورا الجريمة...

كانت قد ورطتني واختفت من عالمي نهائيا، قتلت البراءة والطفولة بذاتي، بل سرقت كل أحلامي وسعادتي، جعلتني سلة نفايات بلا قيم لكل من هب ودب، الكل صار يبصق بها ويمضي.....

- منذ متى حصل ذلك وأين؟

سأشرح لك.... تلك الحادثة وقعت في أحد بيوتات الحرية قبل أشهر، جعلتني أحرص أمام الملاء، لقد فجروا قنبلتهم في أعماقي، دمروا كل شيء، دمروا روحي الجميلة التي تخلت عنها الضحكة والفرحة. من يومها وأنا أزحف خلف عفتي بعد أن كنت سيده نفسي.

صمتت قليلا ثم أطرقت تكمل قصتها، فيما كنت باللحظة التي أستمع إليها؛ كنت منغمسا بتقبيل أسيل الخد وشحمة الأذن، ثم أطرقت تكمل حديثها:.....

- لقد نالوا حاجتهم بقبح من هذا الجسد، تركوه فضلات للعابثين والسذج، لا بل أنهم أحرقوه ليرتفع دخانه فوق اسطح المنازل.....

حينها قلت لها وعلامة الصدق غمرت أحاسيسي:.....

- أني لم أجرب الحب من قبل، وحين تقدمت لخطبتك كنت قد ذبتُ شوقا وغراما بمفاتنك، وبعد رفضك الزواج مني صرت أكره كل النساء، أنت فقط من بنيت لها محطة في فكري، كي أتوقف بها حين أجهد.

- أدرك كل ذلك، ولكني مجروحة بالحقيقة، لم أستطع أن أبوح بسرّي لأحد.... أتعلملهذا الخمار؛ تواطئ كبير ودنس، أكل طهارتي وبصق في عفتي، جعل لحشاشة النفس نتن ينفر منه البليد والمعتوه.

منذ أن أجبرت على ارتدائه وأنا طفلة لا أتجاوز الثانية عشرة من العمر، منذ ذاك اليوم أشعر بكبت في النفس

وضيق في الصدر. لم يدعني والدي أن أفهم قيمة الحجاب لأرتديه عن قناعة، ولا دعاني أفهم الحياة على رواق. لقد تركني كشريفة تائهة بين لغز الحياة وفرفشتها، بين عقليته وعفة الحجاب وحرية النفس. حينها كنت طفلة، لا أفهم عمق المعاني، حيث كنت الوحيدة بين زميلات الصف ترتدي الحجاب، لذلك ولد في داخلي أحساس بالغبن، كنت أود أن أفرغ شحنات طفولتي في اللعب والمرح كزميلاتي.

حينها خطر في بالي سؤال فسالتها:...

- قبل أشهر عديدة شاهدت فتاة تشبهك في سوق ذهب الكاظمية، هل كنت أنت ---أم ---
- منذ أشهر وأنا غارقة في بحر الظلمات، ربما كنت أنا... ربما لا، هناك كثيرات متورطات يشبهنني...لقد أصبحت هذه الحالة سلعة يتاجر بها بعض المرتزقة والمومسات والقوادات دون متابعة أمن الدولة. أحلام هي أيضا ضحية تلك الأوكار حسب ما فهمت ذلك منها...

هكذا أصبحت ناشزة، نتنة لا يتقبلني أحد كزوجة.. منذ ذلك الحين ودماسة الليل يخيم على صدري، لا أعرف فرحا ولا بهجة....

منذ ذلك اليوم صرت أبغض الرجال، تملكنتي الانانية كصفة، أود أن أزرع التعاسة في نفوس الآخرين من

البشر مثلما زرعوها في ذاتي. أصبحت عدوانية
السلوك..

أما أنت...

براءتك غلبتك، طبيبتك دفنتك، صدقك فضحك، صفاتك
الغريبة هي من عبدت لي الطرق لأصل إليك أو هي
التي أوصلتك إلي.. تلك الصفات جعلتني اقترب من
سورك لأفسد طهارتك، وبالأحرى وددت أن أوقف
معاناتك، لأنك لا تستحق مني كل هذا التعسف
والعذاب.

خلال انشغالها بالحديث وعلامات تأثرها بما نطقت وذكرت،
بانئت واضحة جلية، حينها كنت قد تخطيت حاجز السكون
والإصغاء، كانت الخمرة قد تخطت بي حاجز الوعي، ارتفع
منسوب السكر في الرأس، تلاطمت أمواجه. كان وجهها
المضيء يشع كقمر يشتط ضيائه من شعل الجسد، بذاتها
اللطيفة أضحت شرسة، غدت كلبوة تود افتراسي، الشبق نفذ
من شراة أنفاسها التي زادتنى لهفة ورغبة بها..

في الوقت الذي عبرت عما دار لها في دهليز بؤسها، كانت
يادي قد تجاوزت بروكها، صارت تعبث بطراوة الجسد،
امتدت لتقطف ثمارها، فيما غرقت شفاهي برضاب شفاهها.

عندها دفقتها على السرير لأمتد فوق قامتها، استسلمت للقدر.
لم أدع نغصة تربك دوافعي، هجمت عليها كالذئب جائع.
صرت العنق نحرها وأقبل خدها، كنحلة تمتص رحيق
أزهارها، زدتها شهوة ورقة وزادتنى شهوة وصلابة، طفقت

تحرق الصبر بالعبث، تحاصر الخجل بالغنج، أزاحت عن
كاھلي شقاء أمس وكدره، زجت بروحها في كأس أشواقي،
هجست بريح عصفها تعصف بأحداقي، حينها ألتفتت إلي
قائلة:....

- أرجو أن تسامحني أن أفسدت عليك أحلامك! لذا
سأكون تحت رحمتك متى ما شئت.
- دعينا نصمت قليلا، فأني أهجس بذاتي قد طفقت تغرق
في بحرك الطامي.

أخذت تقباني بشراة من خدي وعيني، غاصت شفاتها
بشفتي، تأجج الجمر في أعماقي بعد أن امتدت يداها لتلمس
عصب الشهوة في قضيب...صرت أرتجف تحت رحمة
الشوق والغريزة، اعترتني موجة جنون، غرقت مراكب
أحلامي بمحيط مفاتنها، غاصت بناني في ثنايا الشعر، شدت
وثاقها إلى وثاقي.

مع اشتداد العصف الغرام كانت قد اشتدت العاصفة خارج
المنزل، فلم تهدأ منذ أن أغدقنا أنفسنا بالأحلام الوردية، كأنها
وجدت لتشهد على كرنفال احتفالنا وتلاحمنا، لتسجل لنا
موعدا مع القدر.

انحدرنا مع هدارها ودويها نحو وادي الجنون، صارت تزجر
وتزئ كالوحش، تصر أذاننا، تخيفنا من شر أفعالنا... لا
أدري أن كانت تود تحذيرنا من خطايانا، أم تواطأت مع
غايتنا لتغطي على إرهاباتنا الجنونية تحت جوف الرغبة.

ابتدأت العاصفة الخارجية إيدانا وإذعاناً ببدء عاصفتنا التي
عصفت بخيام الفكر والقلب والروح معاً، بحيث ذرّتنا في أثير
غواها، لتختلط الوشائج وتعلن عن بدأ تأريخ جديد يجمع
شتاتنا..

رغم شدة العصف في الخارج إلا أنه لم يداني شدة عصفنا،
كانت قد أصفرت الوجوه، غدت تتساقط أوراق الحياء، لشدة
العصف المराغ بيننا. بتنا لا نسمع هدير للريح ولا صك
الأبواب المزعجة وحفيف الأشجار وطقطقت صفائح الألمنيوم
والعلب الفارغة خارج المنزل، لا نسمع لزقزقة العصافير
الشاردة نغمة ولا لهديل الطيور دندنة، كأننا كنا نعيش فوق
كوكب بعيد.

بات الصغير الموحش يشدد مع تلاحمنا أكثر وأكثر، حينها
شعرْتُ جسدي غص برقعة جسدها، التفت الساق بالساق، فيما
مضتْ يديّ ترفق بهيافة الخصر وتزحف على لين الورك
وطراوة الانساق، ارتفعت درجة اللذة والشهوة كعلامة
الزئبق، أشدتْ عصف الجماع في كسر حاجز النفس، حينها
انتزعتْ حاضنة النهد وفيما نضت بكينها بعيداً.

صرت أُمّرح في هذا الحقل الهضيب، أقطف والعق ما تسترق
الأنفاس، بات الهمس يشدد بيننا وبين طوق الياسمين الذي
يطوق جيدها وأقراط الفتن المعلقة في إذنيها. تأودت الرغبة
في مكنها، تراخى الجسد، تلاقت الرغبات على مصب
الشهوة، قمطتها بذراعيّ وساقيّ؛ صار العصف على أشده،
فلم نسمع سوى تهامس الأنفاس تترجم تنهداتنا، غدا عطر

الشهوة يلدع الرغبة، كنيازك تقصف الفؤاد، لأعطس بوجعي
في بحيرة الضوء مع تراتيل الود التي صرنا نسمعها وهي
تخرج من أعماقنا كيقيين محبة صادقة، التمعت صدفتها تحت
وجعي ككرستال حب مفعمة بالشوق والحنين.

ما أن ولج القضيبي بكوة الشمس؛ حتى تناثرت في الأفق شعل
الأضواء تغسل آثامنا، برق السحر يفرش وجهينا، صارت
تأن بين الشد والجذب تحت وقع الرهز المجن المتواصل،
أهجس بذاتي قد تجاوزت خط الجنون كثور جامح طفق
يرتعش تحت حزمة انفعالاته وانزلاقاته، حتى استكانت الروح
على وتد العصب كحمامة تصغي لصفير الريح خارج حدود
المنزل بشيء من البلاهة والعجب.

كانت قد غصت وشائجها بوشائجي، أرتوت من عصف
رجولتي، أضحت تأن من شدة العصف، طغت وحوحتها على
السكون، علا صراخها فوق صرصرة الريح، صارت تلهث
خلف جنونها، أصابها ما أصابني من نزق السيل المراق وكم
الإفرازات التي نزقت، حتى بزغ فجر يوم جديد في أفق
مربعنا، حينها هويينا لقاع الصمت والسكون كأوراق الشجر
المتساقطة بعد أن ارتقيناه هضبة الأورجازم.

في نهاية المطاف دقت ساعة الصمت، حيث أدرك شهريار
الصباح على قصص شهرزاد، لقد أدركنا لحظات اليقظة..
حينها بعثرت شفاهي بكلمات من فضلات القلب الصادقة
لأحيط بها شهرزاد بكلمات صادقة، فقلت لها دون تكلف...

- حين كنت أمتلك قلبي؛ لم ينبهني أحد إلى الضرورة الاحتفاظ بملكيتـه! وحين قابلتك؛ لم أكن أعرف أهميته فتركته يفلت من بين ضلوعي إلى حنانيك، وحين هوى لم يجد ملجأ لـديك يحتمي به، حتى أنكب على وجهه في الطرق كالمجنون، بقي على شاكلته تلك زـمنا يبحث عن هويته... وبعد هذه الجولة الحميمة أستعاد ألقه وتألّقه مرة أخرى، فصار القلب ينبض باسمك مرة أخرى، صار مُلك لك فقط. ...أنا أحبك.. أحبك .. أحبك بصدق يا هبة!!

- أعلم ذلك ولكني لم أكن أستطع كسر حاجز الجدار الذي حال بيني وبينك.

- لقد علمت ذلك، فهمت وضعك، ولم يخطر ببالي أبدا بغضك لي.... أود أن أسألك!...يا ترى بعد كل الذي سمعته منك، وبعد هذه الجولة الحميمة والمتعة؛ أسألك بصدق وبرغبة.. هل تتزوجيني؟!!!!!! هل تودين أن تعيدي لشخصك ولعائلتك الهيبة؟ هل توافقين على طلبي؟

حينها لم تصدق ما سمعت! انهالت الدموع من عينيها، وارتجفت أصابعها وهي تمسك بيدي كمن يبحث عن ملاذ هربا من عاصفة مشاعر لا تهدأ. كان الجو مغبرا، لكنه بدا كأنه يصغي إليها، يتأمل لحظة السكون الحاسمة لظهور وجه القمر في كأس الود والهيام...

عندها قالت:.....

- هل أنت واع لما تقول؟ ألا يخفيك ماضيي الأسود؟ أأ أنت مستعد لنسيانه؟ ..
- نعم بكل تأكيد، أحبك جدا.... سأنسى كل شيء من أجلك.. وهذا أيضا يعتمد على سلوكك وتصرفاتك معي وعهدك وحبك لي.

كنت في قرارة نفسي قد أخذت هذا القرار لسببين...

أولاً: لأنني فعلاً أحبها، ولا أعرف فتاة غيرها في مشوار حياتي.

ثانياً: وددت أن أنتشلها من واقعها المزرى المنحط، فهي ضحية الجشع، والتخلف، والبغض والكرهية، ثم هي تمتلك صفات نادرة غير موجودة في معظم النساء، إضافة إلى أنني وددت أن أفعل ذلك عرفاناً بها وبمعرفتها وبمكانة أبوها وبجمالها وبالجيرة والتاريخ الذي كان قد جمعنا، وقبل كل ذلك وددت أن أعيد لذاتي وذاتها البسمة..

في تلك اللحظة، لم يكن الأمر مجرد كلمات تُقال، بل إعلانٌ جديدٌ بأن الماضي لن يكون سجنًا بعد الآن، وأن القلب الذي بحث عن هويته قد وجدها أخيراً، حيث كان يجب أن يتم ذلك منذ البداية...

حينها أنكبت على ساقَيَّ تقبلهما. تعتذر لي، تود أَرْضائي بما تستطيع فعله.

ومع تساقط الدموع على وجنتها، شعرت كأنها تغسل ما تبقى من أثم الماضي، كما لو أن القدر أعاد ترتيب المشهد ليمنحها فرصة أخرى، فرصة لترى الحب كما يجب أن يكون... صافياً، متحرراً من الأحكام القاسية.

- لا لا تعتذري ولا تتأسفي.. أحفظ بكرامتك، كل ما أريده منك أن تنسي ماضيك نهائياً، وتلتزمين بما نتفق عليه، وأن تحطمي هاتفك الذي جنى عليك، سأعوضك بدلا عنه هاتف محبة جديد، سأجعلك قمرا في ظلمة ليلي.

فعلا رمت هاتفها بقوة على الأرض فتناثر أشلائه في أرجاء الغرفة. ثم ارتدينا ملابسنا، خرجنا معا لمحل تجاري، أبتعت لها هاتفاً حديثاً وشريحة جديدة، ووعدتها بخطبتها يوم الخميس القادم. ثم أوصلتها للشارع الرئيسي، حينها كانت الساعة قد تجاوزت الثانية ظهرا موعد انتهاء دوامها الرسمي.

ولم يمضي الأسبوع؛ حتى طلبت من كريمتي أن تطلب يدها للزواج، وتم كل شيء ببسر. وقد أجبرت نفسي على قطع علاقتي بأصدقائي، وترك عملي في الصيدلية بعد أن اعتذرت لعمر، وغيرت رقم هاتفني ونقلت نفسي لمشفى أخرى بعيدة.

ذلك التغيير شملها أيضا، حيث غيرت مدرستها لمنطقة أخرى نائية، كما غيرت من شكل الحجاب لحجاب جزئي، حيث تخلت عن الخمار. فتم زواجنا، ورزقنا بطفلة جميلة حملت سمات أمها أسميناها صدف.

النهاية

للكاتب أحدى وعشرين كتابا
بين رواية ومجموعة قصصية

المؤلف : عباس مدحت البياتي

الروايات

مجموعات قصصية

- | | |
|----------------------|----------------------------------|
| 1- لغز اللؤلؤة | 1- فرصة هدف |
| 2- فتاة الكاظمية | 2- عصير الرمان |
| 3- جنوح النفس | 3- لغة العود والحجر |
| 4- عبير | 4- زيارة طبيب |
| 5- شذرة العقد | 5- كرسال |
| 6- طريق الجحيم | 6- <u>الانتقام</u> |
| 7- غراب البين | 7- المجموعة الكاملة الجزء الاول |
| 8- الاقداح المتكسرة | 8- المجموعة الكاملة الجزء الثاني |
| 9- عواصف الجنين | |
| 10- فواصل الشوق | |
| 11- حين تتقد الرافعة | |
| 12- عقاب الذات | |
| 13- الرؤيا | |



في تلك اللحظة، لم يكن الأمر مجرد كلمات تُقال، بل إعلانٌ جديدٌ بأن الماضي لن يكون سجنًا بعد الآن، وأن القلب الذي بحث عن هويته قد وجدها أخيرًا، حيث كان يجب أن يتم ذلك منذ البداية...

- حينها أنكبت على ساقَيّ تقبلهما. تعتذر لي، تود أَرْضائي بما تستطيع فعله.

مع تساقط الدموع على وجنتها، شعرت كأنها تغسل ما تبقى من أثم الماضي، كما لو أن القدر أعاد ترتيب المشهد ليمنحها فرصة أخرى، فرصة لترى الحب كما يجب أن يكون... صافياً، متحرراً من الأحكام القاسية.